خل وبقل

مجموعة مقالات ادبيـة ونقدية

لعبد الله كنون



مقدمة

هذه المجموعة من المقالات والابحاث الصغيرة التي كتبت في أوقات مختلفة اما تحت الحاح بعض الصحف والمجلات ، واما بدافع من هذا الذي يسمونه بأريحية الادب ، وهو أشد إلحاحا من أولئك ، اذ يأخذ بمخنق الكاتب فلا يتركه أويستجيب لما يمليه عليه .

ولقد كنت نشرت قبلها مجموعتين من هذا القبيل ، احداهما باسم التعاشيب والاخرى باسم واحة الفكر ، وما كان لهما من صدى في الاوساط الادبية ، ولا سيما بالاقطار العربية الشقيقة ، اذ اعتبرهما بعض كبار الكتاب نافذة يتطلع منها على الحركة الادبية بالمغرب ، هو الذي شجعني على تعزيزهما بثالثة هي هذه التي اخترت لها اسم (خل وبقل) .

ولا أكتم القاريء العزيز ان هذا الاسم هو أثارة مما بقي في ذهني من دراساتي الاولى ، فقد روى عن شعبة انه قال : «كل علم ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل» . واذا كان هذا الاقتباس مما ينم عن اتجاه الكاتب وتأثره باصطلاح أهل الحديث ، فإنه لا يسوءه ذلك بل انه ليسره . وهو لا يستنكف ان يصرح انه انما أعد إعدادا ليكون من هؤلاء الفقهاء الذين يحكمون ويفتون ، وهؤلاء المحدثين الذين يسندون ويروون

ولكن العوامل المختلفة من طغيان الثقافة الادبية على ناشئة هذا العصر . وما عالجناه منذ فجر النهضة التعليمية بهذا الوطن العزيز ، من التمهيد والتمكين للغة الضاد وآدابها ، خشية ان تجرفها الرطانات الاجنبية المختلفة ، وغير ذلك من البواعث والاسباب ، هي التي جعلت هذا الفقيه المحدث ينصرف عن اختصاصه ويتجه هذا الاتجاه .

وماذا في ذلك ؟ وهل بين الادب والفقه والحديث تناقض؟ ألم يكن ابن قتيبة وابن حزم وابن رُشيد والمقري ، وغيرهم كثير ، من أعلام انمحدثين وأعيان الفقهاء وهم مع ذلك من مؤلفي الاداب ، ومصنفى الاخبار ؟

لقد كان القدماء يقولون : إذا أردت أن تكون عالما فعليك بفن من الفنون لاتتعداه الى غيره ، وإذا أردت ان تكون أديبا فشارك في الفنون كلها ، وهو قول ما يزال صحيحاً حتى الان، فإن الادب ينتظم جميع أبواب المعرفة، وما نقص من ثقافة الاديب باب من أبوابها الا ظهر ذلك في انتاجه ، وإنى أسجل أن دراساتي الفقهية والحديثية قد أفادتني كثيرا في الناحية الادبية ، وأني لاحظت مآخذ كثيرة على آثار بعض الادباء انما جاءتهم من عدم إلمامهم بشيء من تلك الدراسات .

ولا أقول هذا لاشيد بأدبي وأرفع من شأنه ، كما أني لم أذكر ما ذكرته من أسماء أولئك الائمة، لاوهم أني من طبقتهم فما سميت هذه المجموعة بخل وبقل الا اشارة الى أنها في الادب ليست بذاك . وهى في علم الرواية والاثر ما حكم به شعبة .

عهد مازيغ الى ابنائه

روى من كان شاهدا اذ حضر مازيغ الموت فقال : لما حضرت الشيخ مازيغ أسباب الوفاة ، وأيقن أنه مفارق هذه الحياة ، جمع أولاده العديدين وقال لهم : «يا بني ، اني تارككم وذاهب الى ربي . وسأعهد اليكم ببعض الامور فافقهوا عني ما أعهد إليكم به ولا تضيعوا منه شيئا ، فتجفوني وتكفروا حقي عليكم: انه لا اله الا الله وحده، ربكم ورب آبائكم الاولين خلقكم ورزقكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . وآتاكم من من الحول والقوة ما لا قبل لاحد معه بكم . فاعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فإنكم في هذه العدوة بمرأى ومسمع من أولئك الاروام أعدائكم الابديين ، وإنهم متى ما آنسوا منكم ضعفا أو رأوا بينكم تخاذلا ، انقضوا عليكم ولم يفلتوكم ، واعلموا ان هذه الارض ، ليست هي منبت آبائنا الاولين ، وموطن أجدادنا السابقين ، وانما طوحت بي اليها المقادير ، وساقتني لها المشيئة ، ولاراد لما قضاه الله وارتضاه ؛

مشيناها خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها

وارزاق لنا متفرقات فمن لم تاته منا أتاها

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

أما أرض الاسلاف فناحية المشرق حيث ينزل هذا الشعب من أبناء إسمعيل أهل قرباكم ، وذوي رحمكم ، فإياها فتيمموا

ولها فاستقبلوا ، وبالقوم هنالك فاعتضدوا ، وعليهم فاجتمعوا ، فالخير كله من ثم مأتاه ، وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب.

قال الراوي ومات الشيخ مازيغ وأقام أبناؤه في مأتمه مجتمعين عدة أسابيع ثم تفرقوا في أحيائهم وقراهم ، على أن يجتمعوا للنظر في عهد أبيهم بعد الفراغ من أعمالهم الفلاحية وقضاء مصالحهم الحيوية .

وقد اجتمعوا وتداولوا الرأي فيما بينهم فما أعلم من بنين كانوا أفهم لغرض أبيهم وأحرص على انفاذ عهده بقسميه الادبي والسياسي منهم حتى لقد حموا هذه الارض من أن تطأها قدم أجنبي ممن ذكر في وصية أبيهم . فما دخلها قط الا في إدبار من دولتهم وانتقاص من سلطانهم . وأول ما ما عملوه في هذا السبيل، عند بلوغ الدعوة الاسلامية إليهم أن خرج ستة نفر منهم حتى وفدوا على عمر بالمدينة وهو يومئذ أمير المومنين فقال لهم : «من أنتم ؟ » قالوا «نحن بنو مازيغ» فقال عمر لجلسائه «هل علمتم قط بهؤلاء» فقال شيخ من قريش : «يا أمير المومنين، هؤلاء البربر من ذرية برّ بن قيس بن كهلان خرج مغاضبا لابيه وإخوته فقالوا بربر اي اخذ البرية فقال لهم عمر رضي الله عنه : «ما علامتكم في بلادكم» قالوا «نكرم الخيل ونهين النساء» فقال لهم عمر «الكم مدائن قالوا « لا » قال «الكم اعلام تهتدون بها» قالوا « لا » قال عمر « والله لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه فنظرت الى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله صلى الله

عليه وسلم يا عمر لاتحزن فان الله سيعزز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطرق» ثم قال عمر «فالحمد لله الذي من علي برؤيتهم» ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه .

واذا ترامت اليهم هذه البشارة ازدادوا بينة من أمرهم فلم ينشب أحدهم وهو (طارق) ان جمع جيشا يحتوي على اثنى عشر ألف مقاتل من أبناء اخوته وعمومته وعبر بهم بحر الزقاق الى بلاد الاندلس الجميلة ثم حرق الاجفان التي عبروا فيها قطعا لاملهم في الرجوع وخطب فيهم ضاربا على وتر وصية أبيه فقال: «ايها الناس، أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام» فما حاصوا حتى قتلوا ملك (القوط) ودوخوا ارض الافرنج فبلغوا ضفاف (اللوار) ناشرين هناك أعلام الحضارة الاسلامية ومؤسسين دولة الثقافة والعلم والادب العربية .

وما أن سول الغرور (لقشتالة) وملكها أن يقضوا على ذلك التراث الحافل ويجلوا اولئك الوافدين الاغراب من أرض الوطن، حتى انبرى اليه يوسف من أبناء مازيغ ايضا وقاتلهم في (الزلاقة) قتالا شديدا انتهى بالانتصار عليهم وكانت نتيجته بقاء الاندلس في حضانة الاسلام أربعة قرون أخرى .

ولم تزد الحوادث ابناء مازيغ إلا يقينا بصدق نظر أبيهم ،

فبينما (عبد الكريم) يقضي بيلهم في مليلية إذا بأحد أولئك الاروام يلحق به إهانة لا تحتمل فثار ثائر الامازيغ وشنوها غارة شعواء على أعدائهم الابديين ولقحت الحرب بين الفريقين فثبت الامازيغ على قلتهم وضعفهم وانهزم الاروام على كثرتهم وقوتهم اذ كانوا قد استنفروا اليها المقاتلين من العالم المسيحي كله واستنجدوا لها الاكف من الامم الغربية جمعاء وزعموها آخر الحروب الصليبية التي أعلنتها الكنيسة المتحدة فيما مضى مدى قرون على الاسلام. وما زالت على افتراقها اليوم تذيقه منها الموت الزؤام، انما الله عز وجل اخبر بأنه لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة اوتحل قريبا من دارهم حتى ياتي وعد الله ، فلذلك رجعوا على أعقابهم ناكصين . يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المومنين .

هذا في السياسة ، وفي العلم والادب لم يقنع ابناء مازيغ حتى جلس منهم (عكرمة) بجنب سعيد وعروة والحسن تاخذ عنه الامة علوم الفقه والدين وبرز منهم في العلم والعمل (ابو عمران وابوجيدة وابو يعزى وابو شعيب) وكثير غيرهم وناهيك منهم (بمنذر وسابق) في الخطابة والشعر (والجزولي ، وأبي حيان) في النحو واللغة .

قال الراوي : ومع هذا لا يزال بعض اولئك الاروام يحاولون ان يصرفوا الامازيغ الى جهتهم ويقولون لهم انتم منا نسبا وحسبا ودينا وخلقا، وما الاسلام والعروبة الاد خيلين عليكم - قطع الله يد ورجل من قالها - وان كان قولهم هذا

لايزيد اخواننا الامازيغ الا تمسكا باسلامهم وعروبتهم، وضنا بهما واستماتة فى سبيلهما ، حتى لقد نبه ذلك القول الغافلين منهم والمتهاونين الى ما يجب عليهم من الحقوق وما يطالبون به من الواجبات فكان الامر كما قال الشاعر :

عداي لهم فضل علي ومنة — فلا ابعد الرحمن عني الاعاديا

هم عرفوني زلتي فاجتنبتها — وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا



ـ كان هذا الحديث معدا للنشر في كتاب التعاشيب فمنعته الرقابة وقتذاك .

سابق البربري

ابوسعيد بن عبد الله، هكذا كناه ونسبه في تاج العروس وقال : روى عن مكحول وعنه الاوزاعي . فهو إذاً من تابعى التابعين.وممن سكن دمشق ، اذ ان مكحول دمشقي والاوزاعى هو إمام اهل الشام ، ويأتى فى اخباره مع عمر بن عبد العزيز ما يؤكد ذلك .

ولما ذكر فى الذخيرة السنية ان زناتة تنتسب الى بر بن قيس عيلان قال ؛ وفى ذلك يقول سابق المطماطى حين قتال البربر للروم بافريقية ايام سليمان بن عبد الملك .

ايا معشر الروم ارحلو عن بلادكم
وخلوا لنا عنها بطي المراحل
فقد قصدتكم بر بن بسيوفها
واحلافها اهل الرماح الذوابل
قبائل من بر بن قيس وخندف
وذي يمن فى عزها المتطاول

ومعلوم ان مطماطة احدى قبائل زناتة، وزناتة من البربر ، فهل إن سابقا البربرى هو هذا المطماطي ؟

اما العصر فهو عصر واحد . واما الشعر فهو ما اشتهر به

صاحبنا ، وزيادة على ذلك فان نسج هذه الابيات يوافق المنوال الذي نسجت عليه جميع اشعاره التي سنرويها بعد .

ولكن الذى يشوش علينا فى جعلهما شخصا واحداً هو ان ابن خلدون يذكر فى عداد قبيلة مطماطة سابق بن سليمان بن حراث كبير نسابة البربر' وينقل عنه كثيرا ، وكذا يذكره الزياني فى رحلته ، ويفهم منه انه وقف على كتابه في تلمسان وإن كان إسمه عنده يقع فيه تخليط ، وعلى كل حال فهو من مطماطة كما نسبه صاحب الذخيرة، وهو عالم بالانساب كما تقضي بذلك أبياته التي أوردناها في نسبة القبائل البربرية الى بر بن قيس، ولا يختلف عن صاحبنا الا فيأن هذا هوابن عبد الله والآخر هو ابن سليمان . . ومع ذلك فلم نر من وصف صاحبنا بأنه نسابة البربر او أن له كتابا في هذا الموضوع . خاصة وأن زمانه كان سابقا عن وقت تاليف الكتب في الجملة.

وقد اشتهرصاحبنا بقول الشعر والاجادة فيه بحيث سارت بعض اقواله سير الامثال ومنها هذان البيتان :

قد ينفع الادب الابناء في صغر

وليس ينفعهم من بعده الادب

ان الغصون اذا عدلتها اعتدلت

ولا يلين ولو لينته الخشب

نسبهما اليه غير واحد .

والمعتقد أن لها ديوانا شعريا يحتوى جميع ما قاله في الادب والاخلاق والحكم والمواعظ ، اذ هي المواضيع الغالبة على شعره ، ولم نقف له على شعر في غيرها باستثناء الابيات الثلاثة السابقة ، وبيت غزلى نسبه اليه في الكشاف غلطا وهو لجرير .

وهاك ما جاء فى فهرست ابن خير دليلا على ما ذكر : (أخبار سابق البربري واشعاره) . حدثنى به القاضي ابو بكر ابن العربي رحمه الله قال انا ابو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي قال انا ابو اسحق ابراهيم بن عمر بن احمد البرمكي قال قريء على ابى محمد بن العباس بن زكرياء بن حيويه فال قريء على ابى الحسن احمد بن جعفر بن محمد من كتابه وهو يسمع ، وأنا أسمع فأقر به، قال كان سابق البربري فذكر أخباره وقصيدا واحدا ثم سائر قصائده بروايات مختلفة . قال ابن العربي تقيدت في مواضعها عندنا والحمد لله .

ولا يوجد هذا الكتاب الان اوعلى الاصح لانعرف عنه خيرا ، ومن المؤسف حقا ان يضيع هذا الاثر الادبي النفيس لشاعر ربما كان هو أول من نبغ من هذا المغرب العربي بقول الشعر فى لغة الضاد والاجادة فيه .

وهذا النبوغ المبكر ، على اثر اتصال البربر بالعرب ، ان دل على شيء فاذما يدل على صحة انتساب هذه القبائل المغربية الى الشعب العربي ، وصدق النسابة الذين يرجعون البربر الى اصول عربية من عدنانية وقحطانية . وما أصدق ما ينسب الى تماضر بنت قيس عيلان ترثى اخاها برا ، وتذكر بعده عن وطنه .

كأنى وبرا لم تعز ديارنا بنجد ولم نقسم نهابا ومغنما
وشطت ببر داره عن بلاده وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية وما كان بر فى الحجاز بأعجما

نعم ، لقد استعجم بر لما غاب عن بلاده وتوحد فى ديار الغربة ، وها هو لما اجتمع ببني أبيه واخواله وأعمامه يستعرب ثانية ويتفتق لسانه في اسرع ما يكون بلغة الضاد ، ويصبح سابق بين عشية وضحاها من أشعر اهل زمانه وطارق من أفصح خطبائهم . ولماذا لا يكون ذلك ، واسمعيل ابو العرب المستعربة يمثل لنا نفس القصة ، وانما يعرضها عرضا معاكسا لقصة بر ؟

اما انه قد آن لنا ان نهتم جديا بالمسألة ، ونعرض قضية عروبة البربر على الباحثين النفسيين ، ونحلل هذه اللهجات البربرية تحليلا فلولوجيا ، فلا يمكن أن يكون هذا التعلق الشديد بالعرب، وهذا البيان المعرب بلغتهم ظاهرتين عاديتين

لا ترجعان الى عناصر نفسية واصول لغوية متحدة او مشتركة، والا فلماذا لايعتز الفارسي الا بأصله . ولم تكن الا كلا ولاحتى عاد الى فهلويته يمكن لها في بلاده بعد ان كان بلغ فى العربية شأوا لايلحق، على حين ان البربري فى عنفوان مجده وإقبال دولته لا يحيد عن الانتما" الى الاصول العربية التى يعتقد أنه منحدر منها ، وما يزال كذلك الى الان يدل بعروبته ويرفع من شأن عربيته .

المسألة مهمة جدا فلينظر فيها بجد !

ونعود فنروي بعض ما وقفنا عليه من شعر صاحبنا سابق فى مطالعاتنا طول عدة سنين ، وهو جملة من القصائد والقطع النفيسة فى الادب والاخلاق نزفها الى الناشئة المغربية على أنها أثر من الاثار الادبية الرفيعة التى انتجها ابناء هذه البلاد الخصبة ، وان كان بعضهم ما يزال يتشكك فى أن لبلاد المغرب ادباً .

قال سابق يزهد فى الدنيا ، وهما مما أنشده له الجراوي فى كتابه صفوة الادب المعروف بالحماسة المغربية .

النفس تكلف بالدنيا وقد علمت	ان السلامة منها ترك ما فيها
والله ما قنعت نفس بما رزقت	من المعيشة الا سوف يكفيها
اموالنا لذوي الميراث نجمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنيها
قس بالتجارب أحداث الزمان كما	تقيس نعلا بنعل حين تحذوها
والله ما عبرت في الارض قاطرة	الا وصرف الليالي سوف يفنيها

ومما أنشده له الشريشى فى شرح المقامات ، ولعله هو والابيات قبله من قصيدة زهدية طويلة :

نلهو ونأمل أيامـا تعد لـنا ... سريعة المر تطوينا ونطويهـا
كم من عزيز سيلقى بعد عزته ... ذلا وضاحكة يوما ستبكيهـا
وللحتوف تربى كل مرضعة ... وللحساب برى الارواح باريها
لاتبرح النفس تنعى وهى سالمة ... حتى يقوم بنادي القوم ناعيها
ولن تزال طوال الدهرظاعنة ... حتى تقيم بواد غير واديهـا
اموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وأنشد له الماوردي في أدب الدنيا والدين هذين البيتين وقد وطأ لهما شارحه بالابيات المذكورة قبلهما على أنها جميعا قصيدة واحدة :

اذا زجرت لجوجا زدته علقا ... ولجت النفس منه في تماديها
فعد عليه اذا مانفسه جمحت ... باللين منك،فان اللين يثنيها

وقال ولعله من هذه القصيدة ايضا :

أين الملوك التي عن خطبها غفلت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
غـرت زمـانـا بمـلك لا دوام لـه ... جهلا كما غر نفسا من يمنيهـا
وصبحت قـوم عـاد في ديـارهـم ... بمفظع يـوم عـادتهـم عواديهـا
وتبعـا وثمـود الحـجر غـادرهم ... ريب المنون رميما في مغانيها
فكيف يبقى على الاحداث غابرنا ... كانتـا قـد اظـلتنـا دواهيـها

ومن قوله في الحكمة على طريقة المعاريض :

تعاون على الخيرات تظفرولاتكن على الاثم والعدوان ممن يعاون
وداهن اذا ما خفت يوما مسلطا عليك ولا يحتال من لا يداهن
ولا تك ذا لونين يبدي بشاشته وفي صدره ضب من الغل كامن

وقال في اتباع الهوى ولعلهما من تتمة الابيات قبلهما :

وهجرالهوى للمرء - فاعلم - سعادة وطول الهوى رين على القلب رائن
فكن دافنا الشر بالخير تسترح من الشر ان الخير للشر دافن

وقال ولعلهما منها أيضا :

فحتى متى تلهو بمنزل باطل كأنك فيه ثابت الاصل قاطن
وتجمع ما لا تاكل الدهر دائبا كأنك في الدنيا لغيرك خازن

وأنشد له المبرد في الكامل هذا البيت المفرد :

وان جاء ما لا تستطيعان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

وأنشد له البحتري في حماسته هذه الابيات الاربعة مفردة.

استخبر الناس عما أنت جاهله اذا عميت ، فقد يجلو العمى الخبر
وفي البحث قدما والسؤال لذي العمى شفاء وأشفى منهما ما تعاين
ان عبت يوما على قوم بعاقبة امرا أتوه فلا تصنع كما صنعوا
اذا عبت أمرا فلا تأته وذو اللب مجتنب ما يعيب

والاول من هذه الابيات هو من قصيدة طويلة ذكرها ابن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبدالعزيز . قال :

(ذكر ما وعظ به عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من الشعر) عن أبي سليمـان أحمد بن عبد الله الجواليقي قال: قال سابق البربري لعمر بن عبد العزيز رحمه الله:

بسم الذي أنزلت من عنده السور ... الحمد لله، اما بعد يا عمر
ان كنت تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبرعلى القدر المجلوب وارض به ... وان اتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامريء عيش يسر به ... الا سيتبع يوما صفوه الكدر
واستخبر الناس عما انت جاهله ... اذا عميت فقد يجلو العمى الخبر
قد يرعوي المرء يوما بعد هفوته ... وتحكم الجاهل الايام والغير
ان التقى خير زاد انت حامله ... والبر افضل شيء ناله البشر
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته ... وطالب الحق قد يهدى له الظفر
وفي الهدى عبر تسقى القلوب بها ... كالغيث ينضر عن وسميه الشجر
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله ... ولا البصير كأعمى ما له بصر
والرشد نافلة تهدى لصاحبها ... والغي يكره منه الورد والصدر
قد يوبق المرء امر وهو يحقره ... والشيء بالنفس ينمي وهو يحتقر
لا يشبع النفس شيء حين تحرزه ... ولا يزال لها في غيره وطر
ولا يزال وان كانت بها سعة ... لها الى الشيء لم تظفر به نظر
وكل شيء له حال تغيره ... كما تغير لون اللمة الغير
والذكر فيه حياة للقلوب كما ... يحيي البلاد اذا ما ماتت المطر
والعلم يجلوالعمى عن قلب صاحبه ... كما يجلي سواد الظلمة القمر
لا ينفع الذكر قلبا ناسيا ابدا ... وهل يلين القلب الواعظ الحجر
والموت جسر لمن يمشي على قدم ... الى الامور التي تخشى وتنتظر
فهم يمرون افواجا وتجمعهم ... دار اليها يصير البدو والحضر
من كان في معقل للحرز أسلمه ... أو كان في خمر لم ينجه الخمر

حتى متى أنا في الدنيا اخوكلف ... في الخد مني الى لذاتها صعر
ولا ارى اثرا للذكر في جلدي ... والحبل في الحجر القاسي له أثر
لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي ... كما يؤرقني للعاجل السهر
اذا لداويت قلبا قد اضر به ... طول السقام وهيض العظم ينجبر
مايلبث الشيء ان يبلى اذااختلفت ... يوما على نقضه الروحات والبكر
والمرء يصعد ريعان الشباب به ... وكل مصعدة يوما ستنحدر
بينا يرى الغصن لدنا في ارومته ... ريان صار حطاما جوفه نخر
كم من جموع اشت الدهر شملهم ... وكل شمل جميع سوف ينتشر
وكم من اصيد سامي الطرف معتصب ... بالتاج نيرانه للحرب تستعر
يظل مفترش الديباج محتجبا ... عليه تبنى قباب الملك والحجر
قد غادرته المنايا وهو مستلب ... مجدل ترب الخدين منعفر
ابعد آدم ترجون البقاء وهل ... تبقى فروع لاصل حين ينقعر
لكم بيوت بمستن السيول وهل ... يبقى على الماء بيت اسه مدر
الى الفناء وان طالت سلامتهم ... مصير كل بني انثى وان كثروا
ان الامور اذا استقبلتها اشتبهت ... وفي تدبرها التبيان والعبر
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... اذا انقضى سفر منها اتى سفر
لها حلاوة عيش غير دائمة ... وفي العواقب منها المر والصبر
اذا قضت زمر آجالها نزلت ... على منازلها من بعدها زمر
وليس يزجركم ما توعظون به ... والبهم يزجرها الراعي فتنزجر
اصبحتم جزرا للموت يقبضكم ... كما البهائم في الدنيا لكم جزر
لاتبطروا واهجروا الدنيا فان لها ... غبا وخيما وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالالى كانوا لكم غررا ... وليس من امة الا لها غرر
حتى تكونوا على منهاج أولكم ... وتصبروا عدم الدنيا كما صبروا
مالي ارى الناس والدنيا مولية ... وكل جيل عليها سوف ينبتر
لايشعرون بما في دينهم نقصوا ... جهلا وان نقصت دنياهم شعروا

فهذه قصيدة من أحسن شعر سابق وأحفله بالموعظة والتذكير ، ولو لم يكن له إلا هي لكانت أصدق برهان على تألهه وشاعريته التي خضع لها عمر بن عبد العزيز مع ما عرف من تأبيه على الشعراء وامتناعه من مقابلتهم . ولم لا يخضع له عمر وهو يفتتح شعره ببسم الله والحمد لله ؟ !

وقد وقفت على أبيات مختلفة من هذه القصيدة في مظان عديدة فلاحاجة لذكرها ؛ وقد اتحفنا بها كاملة الحافظ ابن الجوزي جزاه الله خيرا .

وأما البيت الثاني من الابيات الاربعة التي عند البحتري فلا شك أنه من تلك القطع النونية التي أوردناها قبل . وانها جميعا تكون قصيدة من أبدع قصائد سابق .

بقي البيتان الثالث والرابع ، ونحب أن نشير إلى أن معناهما هو ما تضمنه بيت مشهور من قصيدة تنسب إلى أبي الاسود الدؤلي وهو :

لاتنه عن خلق وتاتي مثله   عار عليك اذا فعلت عظيم

ونحب أن نشير كذلك الى ان هذه القصيدة. قد نسبت لصاحبنا ايضاً كما نسبت للمتوكل الليثي ، وهذا البيت منها بالخصوص وجد فى قصيدة للاخطل ونقل السيوطى عن تاريخ ابن عساكر أنه للطرماح . وانظر شرح شواهد المغنى .

وفى البداية والنهاية لابن كثير : روى ابن أبى الدنيا

عن ميمون بن مهران قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربري وهو ينشده شعرا فانتهى فى شعره إلى هذه الابيات :

فكم من عزيز بات للموت آمنا ... اتته المنايا بغتة بعد ما هجع
فلم يستطع اذ جاءه الموت بغتة ... فرارا ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مقنعا ... ولا يسمع الداعي وان صوته رفع
وقرب من لحد فصار مقيله ... وفارق ما قد كان بالامر قد جمع
فلا يترك الموت الغني لماله ... ولا معدما في المال ذا حاجة يدع

وفي أمالي الزّجاج : ويقال من حفر مهواة وقع فيها أي مهلكة . وقال سابق البربري :

فلا تحفرن بيرا تريد أخا بها ... فإنك فيها أنت من دونه تقع
كذاك الذي يبغى على الناس ظالما ... تصبه على رغم عواقب ما صنع

وهذان المبيتان مشهوران ، ولعلهما والقطعة التي قبلهما من قصيدة واحدة .

وفى الاغانى قال أبو الفرج: اخبرنى هاشم بن محمد الخزاعى قال حدثنا أبو غسان قال: قال عمر بن عبد العزيز يوما لسابق البربري ودخل عليه: أنشدني ياسابق شيئا من شعرك تذكرنى به ، فقال : او خيرا من شعري ؟ فقال هات . قال : قال أعشى همدان :

وبينما المرء امسى ناعما جذلا ... في اهله معجبا بالعيش ذا انق

غرا اتيح له من حينه عرض فما تلبث حتى مات كالصعق
ثمت اضحى ضحى من غب ثالثة مقنما غير ذي روح ولا رمق
يبكى عليه وادنوه لمظلمة تعلى جوانبها بالترب والقلق
فما تزود مما كان يجمعه الا حنوطا وما واراه من خرق
وغير نفحة اعواد تشب له وقل ذلك من زاد لمنطلق

قال فبكى عمر حتى اخضل لحيته .

فهذه الاخبار تفيدنا اولا انه كان مقيما بالشام ومن ثم كان أخذه عن مكحول الدمشقى وأخذ الامام الاوزاعى عنه وثانيا أنه كان له عند عمر مكانة وقدر ولذلك كان يطلب منه أن يعظه وينشده من شعره الحكيم ، أو من شعر غيره . لانه كان متحققا من زهده وورعه وانه لا ينظم ولا يروي الا ما كان من قبيل ما قيل فيه «ان من الشعر لحكمة».

ومن شعر سابق ايضا فى المراء ومدافعة الحق :

لا تدفعن لجوجا حين تزجره ان اللجوج له في الدفع اغراء
واغض في حسن عفو عن بوادره فالحر فيه عن الافات اغضاء

وقال ولعل من تتمة ما قبلها :

لا تظهرن لدي جهل معاتبة فربما هيجت بالشيء اشياء
فالماء يخمد حر النار يطفئها وليس للجهل غير الحلم اطفاء
ترى السفيه له عن كل محلمة زيغ وفيه الى التسفيه اصغاء

وقال في ذهاب الامم ، وربما كانت هذه الابيات كلهـا من قصيدة همزية من روائع سابق .

وكيف يامن ريب الدهر مرتهن	بعـدوة الدهـر ان الدهـر عـداء
القى على الجبل من عاد كلاكله	وقـوم هـود ، فـهـم هـام واصـداء

وله في العفو والتسامح :

اذا ما كنت طالب كل ذنب	ولم تحـلل اخـاك عـن العـتـاب
تباعد من تـبـاعد بـعـد قـرب	وصار بك الزمـان الى اجـتـنـاب

وبعد فهذا شاعر فحل من أكـبر الشعراء الذي يفاخر بهم هذا المغرب العربي ويستظـهر بهم عـند الحـديث عن الادب والادباء . . وقد احتج به أهل العربية وعلماء البـلاغة ، وقربـه الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز، مما يعطيك ان شعره كان مرآة لسلوكه وأخلاقه، فهو قد أربى على أبى العتاهية المعروف بشعره في الزهد والمواعظ سواء من ناحية تخلقه أو من جهة سبـقه الى جعـل شعـره قاصرا عـلى هذه المواضيع فلا نقول فيه انه أبو العتاهية المغربي بل نقول في ابي العتاهية انه سابق المشرقي . رحمهما الله معا ويسر لنا الوقوف على كتاب أخباره وشعره .

الشعر الاندلسي *

من أكبر مميزات الشعر الاندلسي التي تطالعنا عند بحثه أولا ، أنه شعر حضري لا جاهلية له . وليس يشبهه في ذلك شعر قطر من الاقطار العربية . حتى العراق الذي بذ الاندلس في الحضارة نجد في شعره أثارة من هذه الجاهلية لا تخفى على الناقد البصير . أما في الالفاظ فانها تكاد تلمس، وأما في المعاني فإن رواسب من أفكار شعراء الجاهلية لا تفتأ تطفو حينا بعد حين على صفحة هذا الشعر الرقراق الذي قيل - ويقال حتى الان - عند ضفاف الرافدين .

ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية الى جساوة في الطباع وقساوة في البقاع ، فان الاقليم في الشرق ، ولو في العراق ، غيره في الغرب ولا سيما الاندلس . والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلظة ، ولينا وشدة ، ما في ذلك شك . وقد كان شعراء العراق كغيرهم ، يخرجون إلى البادية ، فيتنقلون في القبائل لاخذ اللغة عن أربابها ، وتعلم الفصاحة من أصحابها ، كما نرى في ترجمة المتنبي والبحتري وأضرابهما ، فلزمتهم

---

* كتب هذا المقال لمجلة المجمع العلمي العربي على إثر انتخاب كاتبه عضوا مراسلا للمجمع ، ونشر بها في الجزء 3 من المجلد 31 ،

هذه البداوة وظهر أثرها في شعرهم. وأين هي هذه البادية من شعراء الاندلس الذين ولدوا في بحبوحة الحضارة ونشأوا في غضارة الترف، فولد الشعر معهم ونشأ حضريا مترفا.

ومن بدا منهم كابن عبدون فانما قصاراه من البداوة المظهر الذي غر الوزير ابا بكر بن زهر[1]. وأما المخبر، فانه الذي انجلى عن قصيدة:

«الدهر يفجع بعد العين بالاثر»

واما هؤلاء الشعراء الذين طرأوا مع الفتح من مثل ابي الخطار الكلابي والصميل بن حاتم فانهم وان كانوا يذهبون في شعرهم مذهب اهل الجاهلية، فاننا لا نعدهم بحال من شعراء الاندلس. لانهم لم ينشأوا فيها ولم يشتهروا بشعر كثير فيؤثروا فيمن أتى بعدهم، فبقي الشعر الاندلسي مصونا من عنجهية البدو، لا جاهلية له مطلقا.

ولقد استمر الحال بعد الفتح على ما يقتضيه طور التمهيد والتنظيم من الانصراف عن شؤون الادب والشعر الى ان قدم عبد الرحمن الداخل، اي نحوا من 46 سنة. وحينئذ انفسح المجال امام شعراء الاندلس للتحليق في جو «الصقر»[2] الذي القى الى النخلة بهذه النفثة السحرية:

1) انظر حكايته معه في المعجب للمراكشي.

2) يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش.

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول اكتآبي عن بني وعن أهلي

ومن ذلك اليوم نحدد موقع الشعر في الجزيرة ، فمن الوجهة الاجتماعية كان الامير المنشيء للدولة المؤثل لمجد الاسلام شاعرا يعبر عن عواطفه بشعر بليغ ونظم رقيق ، فلم يستنكف من أتى بعده من الشعراء ان ينسجوا على منواله في تعاطي الشعر وحب الادب حتى كان كل أمراء بني أمية وخلفائهم تقريبا شعراء ، وكذا ملوك الطوائف الذين خلفوهم من بعد ، والناس على دين ملوكهم كما يقال ، فقامت للشعر دولة ببلاد الاندلس لم يكن له مثلها بالبلاد الاخرى ، وبينما كان «الشعر بالعلماء يزرى» في المشرق كما أتى في بيت المشافعي رحمه الله[1] ، كان العلماء في الاندلس يتسابقون لنظم الشعر ويتباهون بمعرفته ، ولا يعدون العالم كاملا الا اذا شارك في علوم الادب بأوفر نصيب[2] .

ولهذه المكانة التي كانت له في النفوس كثرت رغبة الناس فيه ، وصار طلبة الخاصة والعامة ، حتى قيل في مدينة شلب ان قليلا من أهلها من لا يقول الشعر، ولو مررت بالفلاح

1 ـ وهو قوله :
ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد
2 ـ انظر الرافعي ص 285 تاريخ آداب العرب ج 3

في فدائه وسألته عن الشعر قرض في الحال ما اقترحته عليه[1] .

ومن الوجهة الادبية ، فإن الشعر في الاندلس لم يكن رجعا لصدى الشعراء القدماء ولا طبعا على الرواسم (الكليشيات) المعهودة ، فإن عبد الرحمن لما كان فريدا غريبا في بلاد غير بلاده ورأى النخلة في موطن غير موطنها أشبه شيء به، هاجت شاعريته ونطق بذلك الشعر الذي عبر عن ذات نفسه ، ولم يكن صنعة ولا زورا من القول ، فلفت نظر الشعراء بعده الى هذه الطبيعة البديعة او قل ان هذه الطبيعةالتي أنطقته . لفتت نظرهم الى جمالها الفتان وسحرها العجيب فقالوا فيها ما شاءوا وتفننوا ما أرادوا .

ومن ثم كان أكثر شعرهم في الوصف والتصوير ولاسيما لمظاهر الطبيعة من الرياض والازهار ، والجبال والانهار ، والسحاب والامطار ، حتى عد ابن خفاجة اكثر وصاف الطبيعة واحسنهم قولا فيها ، وألف أبو الوليد الحميري من أدبائهم كتابا كاملا من شعرهم في نعت الرياحين والزهور سماه « البديع في وصف الربيع» وهو ممن عاش في أول القرن الرابع ، فما بالك بما قيل بعده في هذا الصدد ؟

ولعل أول شاعر أندلسي يمثل بروحه الخفيفة وأدبه

---

1 ـ ياقوت في معجم البلدان .

المرح . هذا المحيط الحضري الرائق الذي نشأ فيه الشعر الاندلسي - هو يحيى الغزال المتوفى حوالي سنة 250 ، وشعره مرآة صادقة لنفسه الطروب : وقد كان ذهب سفيرا الى بلاد الروم فأعجب به الملك والملكة أيما إعجاب لفرط أدبه وجماله وجرت له مع الملكة محاورات جميلة ، وقال في ذلك أشعار لطيفة

ثم يأتي بعده أديب الاندلس أحمد بن عبد ربه مؤلف كتاب «العقد» المعروف ، وكان الجو الادبي بالاندلس يزداد صفاء كل يوم فلذلك جاء شعره ينفح بعطر الحضارة ويكاد يشرب من رقته وعذوبته ، وهو إن ألف لقومه أدب المشارقة ، فقد أعطى لهؤلاء نماذج من أدب الاندلس في مقطوعاته البديعة التي ضمنها كتابه الفريد . ولئن قال الصاحب ابن عباد في العقد لما وقف عليه ، « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، فلقد قال المتنبي في صاحب العقد « ايه يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حبوا» وذلك عند ما سمع أبياته العديمة النظير :

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا	ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما أن رأيت ولاسمعت بمثله	درا يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه	ألفيت وجها في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة	ما بال قلبك لايكون رقيقا[1]

1 - المقري في نفح الطيب ج 4 ص 218 .

وقد كان هذان الاديبان هما طرفا الادب في القرن الثالث[1] وذكرهما يغني عن ذكر غيرهما .

فلما دخل القرن الرابع دخلت الاندلس معه في عصرها الذهبي ، حيث بلغ التمدن بها أوجه تحت حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والمنصور ابن أبي عامر فانتشرت العلوم والفنون، وارتقى المستوى الفكري غاية لم يصلها من قبل .

وفي هذا العصر كان التعليم قد عم سائر الطبقات ، فقلما تجد إنسانا لايعرف القراءة والكتابة ، والرجال والنساء في ذلك سواء[2] واذا عم التعليم بهذه الصفة تنبهت المشاعر وتهذبت الاذواق ونشطت الحركة الادبية من عقالها وتقدمت أشواطا بعيدة في ميدان الابتكار والتجديد ، لان الامة التى نضجت أفكارها لا تقبل من الانتاج الا ما كان حريا بالقبول . وكان من أثر هذا النضج الادبى اختراع الموشحات التى صارت زينة الشعر العربى . وهى هدية المغرب الى المشرق التي تقبلها بكامل السرور وسنتكلم عنها فيما بعد .

وقد أظل هذا العصر كبار شعراء الاندلس من مثل أبى

1 ـ الرافعي في تاريخ آداب العرب ج 3 ص 275

2 ـ دوزي في كتابه الاسلام الاسباني

القاسم بن هانئ وابن دراج القسطلي والرمادي ، وناهيك بهؤلاء الثلاثة .

فأما ابن هانيء فهو الذي يقال له متنبيء المغرب ، عاش عيشة الاستهتار حتى تألب عليه أهل بلدة اشبيلية وخرج منها ولحق بالعدوة . فلقى الخليفة المعز الفاطمى ومدحه فحظى عنده وكان يريد استصحابه الى مصر ، فمات مختضرا فى عنفوان الشباب نتيجة اسرافه في السكر والمجون .

ولما بلغت وفاته المعز أسف عليه وقال هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . وكان يذهب في شعره مذاهب شتى من التفلسف والاستخفاف بالدين ونقد المجتمع . وله أسلوب متين وعبارة جزلة، واشتهر بحسن التشبيه وإجادة الوصف . ومن جيد شعره قوله :

أليلتنا إذ ارسلت واردا وحفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنهاشنفا

وبات لنا ساق يقوم على الدجا ... بشمعة صبح لا تقط ولاتطفا

أغن غضيض خفف اللين قده ... وثقلت الصهباء أجفانه الوطفا

ولم يبق إرعاش المدام له يدا ... ولم يبق اعنات التثني له عطفا

الى آخرها وهي قصيدة شهيرة .

وأما ابن دراج فقال فيه الشقندي : انه شاعر الاندلس وقال الثعالبي : هو بالصقع الاندلسى كالمتنبى بصقع الشام .

وكان شاعر الدولة العامرية غير مدافع ، وتأخر به الزمان الى أوائل القرن الخامس ، وأدرك ملوك الطوائف . وله القصيدة الرائية الرائعة التي عارض بها أبا نواس فأربى عليه ، وفيها يقول :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور
وأن خطيرات المهالك ضمن لراكبها ان الجزاء خطير

وأما الرمادي فهو يوسف بن هرون الكندى . كان معاصرا للمتنبي ، وكان كثير من شيوخ الادب في وقته يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس في الافتتاح لانه من كندة على ما هو معروف ، والمتنبي والرمادى فى الاختتام لانتسابهما معا فى كندة[1] . وكان شاعر الحكم المستنصر واختص بالحاجب المصحفي فأصابه شررالنكبة التى انزلها المنصور ابن أبى عامر بالحاجب المذكور، وله من قصيدة هذه الابيات البليغة :

في أي جارحة أصون معذبى سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت في عيني فثم مدامعي أو قلت فى قلبى فثم غليلى
لكن جعلت له المسامع موضعا وحجبتها عن عذل كل عذول

واذا تخطينا عتبة القرن الرابع الى الخامس، عصر ملوك

---

1 ـ ابن خلكان

الطوائف ، وجدنا ان هيبة الخلافة الاموية وعزة سلطانها وان زالا معها فان مجدها الادبي بقى متمثلا فى عدة عواصم بعد أن كـان محصورا فى قرطبة. فهذه اشبيلية وفيها بنوعباد أصبحت تنافس قرطبة وتجاذبها رداء الفخار في هذا المضمار. وهذه طليطلة ـ وفيها بنو ذي النون ـ وسرقسطة ـ وفيهـا بنـو هود ـ وبطليوس ـ وفيها بنو الافطس ـ وغرناطة ـ وفيها بنـو زيري ـ والمرية ـ وفيها بنو صمادح ـ ومالقة ـ وفيها بنـو حمود ـ فى كل منها بلاط حافل بأهل العلم والادب وملوك يتسابقون الى الحصول على المشاهير من الكتاب والشعـراء (فما كان أعظم مباهاتهم الا قول: العالم الفلانى عند الملك الفلاني، والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلاني)[1] .

واذا كانت قرطبة قد احتجنـت في عـهد الخـلافة الاموية سائر أهل الكـفاءات الادبية ، فقد أديلت منها هـذه العواصـم الاخرى . وكـان ذلك في صالح العلم والادب حيث ان ازدحام البلاط القرطبي بأهل الفضل والنبل كان لايدع مجالا للناشئين والوافدين من غير اهل الشهرة . وحسبك بما وقـع لصاعد في ايام المنصور بن ابى عامر وما قاساه من مكائد المنافسين له. وأما الان فان الاديب اصبح بالخيار على زمنه ، وحكمـه نافذ

---

1 ـ الشقندي في رسالة المفاضلة بين الاندلس والمغـرب .

على اميره ، لانه اذا آنس اهمالا او تضييما سرعان ما يتحـول الى حيث العز والـكرامة فى بلاط آخر . وعلى كل حـال فان هذا التنافس قد ابرز من الملكات ما كان خفيا، ومن الشخصيات ما لولاه لـكان نسيا منسيا ، وبذلك كانت الحيـاة الادبيـة فى هذا العصر ازهى وأزهر منها في كـل عصر آخر مـن عصـور العرب في الاندلس ، فان عدد الشعراء الذيـن نبغـوا في هـذا العصر لايكاد يأتي عليه الاحصاء .

وكانت الـظاهرة الادبية الغالبة على أدبائه ومثقفيه بـل وفقهائه وعلمائه هي الشعر . فلا تجد عالما ولا فقيها فضـلا عن أديب لا يتعاطى الشعر ولا ينظم منه شيئا ولو قليلا ، وقد طغى ذلك على ما عند بعض العلماء فكانت صفته الشعرية أبرز جوانب حياتة أو على الاقل تجد جانب الشعر من حياتـه يتكافـأ مع جانب العلم ، كما نرى فى أبى بكر بن باجة الذي عرف للعالم بكونه أديبا موهوبا وشاعرا بليغا كما عرف بكونه فيلســوفا وطبيبا وموسيقيا ونباتيا بارعا في الجميع . وكم له مــن نظـير بين العلماء وبين الفقهـاء ، وقد ترجـم الفتـح في « القلائد » و «المطمح» لـكثير من العلماء وما اعتبر فيهم الا الناحية الادبية والشعرية كأنها هي المقصودة بالذات وما زاد عليها فانما هو فضل ونافلة من القول والعمل .

واذا ذهبنا نعرض اسماء الشعراء البارزين في هذا العصر

نجد في طليعتهم أبا الوليد بن زيدون الذي يطلق عليه بحتري المغرب[1] لرقة ديباجته وتفننه في ضروب الشعر . وحقيقة فانه اذا كان ابن هانيء كالمتنبي يعتمد في اثارة الشعور على اظهار القوة باصطناع الالفاظ الجزلة وتجسيم الاحداث الخطيرة مع تحكيم العقل فيما يعرض من وقائع الحياة. فان ابن زيدون كالبحتري انما يعتمد على الناحية الوجدانية فلا ضوضاء ولاجلبة وانما هي معان جميلة وصور سحرية لهواجس النفس واحاسيس الضمير في الفاظ رقراقة كالثمرة الناضجة تتدفق مائية وحلاوة فقارئه اذا كان متفتق الذهن مرهف الحس يشعر كانه ينطق بلسانه ويعبر عن ذات نفسه ، لانه يمتزج به امتزاجا ويهيم معه في اودية الخيال الفسيحة فلا ينتبه لنفسه الا اذا انتبه الشاعر فرجع من رحلته وافاق من غيبوبته .

ويكفي ان يستعرض الباحث قصيدته الفريدة التي يقولها في التشوق الى حبيبته ولادة بنت المستكفي ليرى حسن الافتنان في الوصف وجمال التصوير للعواطف ورقة الشعور في الحب . وهي القصيدة التي لم يقُلْ ـ مع طولها ـ في التشبيب ارق منها[2] فبعد أن يفتتحها بوصف حاله في البعد

1 ـ ابن بسام الذخيرة ج ل ص 326

2 ـ الشقندي

وشكوى الزمان في التفريق بينه وبين حبيبته فيقول :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الانس دانية ... قطوفها ، فجنينا منه ما شينا
ليُسقَ عهدكم، عهد السرور فما ... كنتم لارواحنا الا رياحينا

يقول في وصفها ونشأتها الارستوقراطية وتوصله اليها بكفاءة المودة :

وبيت ملك كأن الله انشأه ... مسكا وقد انشأ الله الورى طينا
او صاغه ورقا محضا وتوجه ... من ناصع التبر ابداعا وتحسينا
اذا تأود آدته رفاهية ... تدمي العقول وادمته البرى لينا
كأنما نبتت في صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ماضر إن لم نكن اكفاءه شرفا ... وفي المودة كاف من تكافينا

ويطول بنا الحال اذا تتبعنا ما فيها من عيون الابيات وفرائد المعاني . وقد ولد ابن زيدون في قرطبة في أعقاب الدولة الاموية ولكنه لم ينبغ ولم يشتهر الا بعد انقراضها . وخدم ابن جهور في قرطبة والمعتضد بن عباد في اشبيلية ثم ولده المعتمد وزين له غزو قرطبة فملكها . وكان يلقب بذي

الوزارتين . وبلغ في علو القدر ورفعة الشأن ما لم يبلغ اديب غيره وتعشق ولادة بنت المستكفي وكانت أديبة شاعرة الا ان الوزير ابن عبدوس كان ينافسه في حبها واستأثر بها دونه وكاد له بسبب ذلك مكائد . وتوفي عام 463 .

وكان ابن عبدون عند بني الافطس في بطليوس كابن زيدون عند بني عباد باشبيلية ، وهو نظيره في الادب والشعر وسير في رثاء مواليه لما دالت دولتهم على يد المرابطين قصيدته الخالدة التي يقول فيها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر	فما البكاء على الاشباح والصور
انهاك انهاك لا آلوك منصحة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان أبدى مسالمة	والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه	يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا يغرنك من دنياك نومتها	فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي - اقال الله عثرتنا	من الليالي - وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة	مناجراح وان زاغت عن النظر
تسر بالشيء لكن كي تغر به	كالايم ثار الى الجاني من الزهر

. . وقد ذكر فيها مصارع الملوك وعظماء الرجال الى زمنه، ثم بكى بني الافطس بما لم يبك به شاعر دولة. ومن ابياتها الفذة هذا البيت الذي عبر فيه عن عاطفة علوية في براءة علوية:

وليتها اذ فدت عمراً بخارجة	فدت علياً بما شاءت من البشر

ويقول بعده مشككاً فى اغتيـال الحسن بن علي بمـا هو ابلغ من اليقين :

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن اتـت بمعضلـة الالبـاب والفكـر
فبعضنـا قائـل مـا اغتـاله احد وبعضنا ساكت لم يوت من حصر

ومنهـا في ذكـر المتوكـل وولديه العبـاس والفضـل من بني الافطس :

ويح السماح وويب البأس لو سلما وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية تعزى سماحا اليهـم لا الى المـطر

الى ان يقول :

على الفضائل ـ الا الصبر ـ بعدهم سـلام مـرتـقـب للاجـر مـنتـظـر

وبالجملة فانه مهما قيل فى وصف هذه القصيدة وتقريظها فان القائلين لم يوفوها حقها ولم يكونوا مبالغيـن فيمـا قـالوه عنها . وأحسن شيء فيها هو ما سلكه ابن عبدون من البكـاء والاستبكاء على ضياع ملك سادته ، وإبادة الدهر لهم مـن غير ان يعرض بخصومهم المرابطين ولا ان يتناولهم بأدنى تجريح ، وتلك لعمري براعة نشهد له بحسن التصرف فى القول والتفنن فى الكلام . وكـان المتوكل بالمكان الذي وصفـه ابن عبدون واعظم نبوغـاً فى العلوم والاداب مع رسـوخ قـدم فى الجـود والشجاعة . ولـم يكن فى ملـوك الطوائف افضـل منه ولا من المعتمد بن عباد، فانهما كانا فرسى رهان فى جميع الفضائل

وخاصة العلم والادب . وكان المعتمد اشعر والمتوكل اكتب[1] .

واذا ذكرنا المعتمد فلا بد ان نعطي صورة مصغرة عنه وعن ادبه . فقد كان هذا الملك الشاعر فذاً في الملوك ، فذاً في الشعراء . حتى لقد بلغ من شأنه انه لا يمكن ان يذكر ملوك الطوائف بل ملوك الاندلس على العموم ولا يذكر المعتمد ، وانه لا يمكن ان يذكر شعراء الاندلس او الشعر العربي على العموم ولا يذكر المعتمد ، وكان مما انطوى عليه من الفضائل واحتواه من المكارم بحيث لو لم يثبت وجوده تاريخيا لقلنا انه شخصية خيالية اضفى عليها الشعر والقصص حللا وبرودا من الاجلال والتقديس . ففى حالة الشدة والبأس نجده مكافحا عبقريا لاثبات ملكه وتوسيع نفوذه ، ومجاهدا متفانيا فى صد موجة الاكتساح الاسبانى الذي اراد ان يستصفي الاندلس في اواسط القرن الخامس . وفي حالة الرخاء والنعيم نجده ذلك المترف المرفه الذي أسرف فى المتاع وأسرف فى الاستهتار حتى كان له يوم الطين الذي لم يكن لملك غيره[2] وفى الشعر والادب نجده ذلك العلم المفرد بين الملوك والرؤساء. قد انقطع لمطارحة شعراء وقته من وزراء وكتاب بالقصائد البليغة والابيات النادرة

1) نفح الطيب ج 2 ص 583

2 انظر النفح ج 2 ص 486

حتى يحسبه الانسان انه لا شغل له الا قول الشعر والاجتهاد في إجادته واحسانه . وكيف لا وقد نشأ في بيت الشعر والادب والرياسة والملك ، فقد كان أبوه المعتضد وجده ابو القاسم شاعرين . وكان لابيه دار مخصوصة بالشعراء وديوان تقيد فيه أسماؤهم، وقد جعل لهم يوما يفرغ لهم فيه فلا يدخل على الملك فيه غيرهم[1] .

واجتمع بحضرة المعتمد منهم ما لم يجتمع بحضرة غيره فكان عنده ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة ، وكل واحد من هؤلاء فيه كفاية .

على أن شخصية المعتمد زادت بروزا بهذه النكبة التي حاقت به وتركت الاكباد تتقطع حسرة على ما أصابه من أسى وفضيحة بعد سابق العز والسلطان ، وزاد شعر المعتمد في هذه المدة إثارة للبلابل في الصدور وتحريكا للشجو في النفوس، فكان والحق يقال أشجى شعر قيل في نكبة حقت بعظيم . ومن شعره هذا :

لما تماسكت الدموع	وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو	ع على فمى السم النقيع

1 ـ النفح ج 2 ص 468

ان تستلب عني الدنا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم استلب شرف الطبا ع ، أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ـص عن الحشاشة دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ ـل اذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط الى القتا ل وكان من أملي الرجوع
شيم الالى أنا منهم والاصل تتبعه الفروع

ومنه في يوم عيد وهو بالسجن :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين ، والاقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت اساءته فكان فطرك في الاعياد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالاحلام مغرورا

واذا ذكر المعتمد ذكر معه بالطبع ابن عمار وزيره ورفيقه ونظيره في الشعر وهو ممن كان يذهب مذهب المتنبي ويأخذ أخذه في طلب المعالي والتهمم بالسلطان . وشعره مرآة لنفسه القوية وطبعه الجموح . على انه كسائر

شعراء الاندلس رقيق الغزل لطيف المحاولات لفنون الشعر المختلفة . وكان قد لحق بخدمة المعتضد بن عباد واختص بولده المعتمد ولزمه ملازمة شديدة حتى صار لا يرى الا معه ولما ولي المعتمد على مدينة شلب من قبل والده استوزره وسلم اليه جميع اموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة وساءت السمعة عنهما ففرق بينهما المعتضد وأبعد ابن عمار عن ايالته فلم يزل مبعدا حتى توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب ، ثم وقع بينهما ما أوجب سجنه وقتله وقد تشفع له ابن عمار واستعطفه ببليغ الاشعار فلم يؤثر ذلك فيه شيئا والملك كما يقولون ، عقيم لا يرعى على ولي أو حميم . ومن شعره يستعطفه :

سجاياك ان عافيت اندى واسمح ... وعذرك ان عاقبت اجلى واوضح
وان كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلى الادنى من الله تجنح
وماذا عسى الاعداء ان يتزيدوا ... سوى ان ذنبي ثابت ومصحح
وإن رجائي ان عندك غير ما ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
اقلني لما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم ... فكل إناء بالذي فيه يرشح
وقالوا سيجزيه فلان بذنبه ... فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
الا ان بطشا للمؤيد يرتمي ... ولكن حلما للمؤيد يرجح

ومن شعره قصيدته التي صارت أشرد من مثل[1] في مدح

1 ـ الشقندي

المعتضد ، وكانت سبب تقريبه له . وأولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

ومن أبياتها بيت قال فيه المراكشي صاحب «المعجب» انه لم يسمع لمتقدم ولا لمتأخر مثله[1] وهو قوله :

السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا

وله حين فرق المعتضد بينه وبين المعتمد ، وهو مما تظهر عليه نزعة المتنبي .

علي، والا ما بكاء الغمائم وفي . والا ما نياح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهز البرق صفحة صارم
ومالبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآتم

واذا كان عصر ملوك الطوائف قد انتهى مع هؤلاء الشعراء فانه قد امتد مع غيرهم كابن اللبانة وابن خفاجة وسواهما الى عصر المرابطين . . فأما ابن اللبانة فهو أبوبكر محمد بن عيسى اللخمي من أهل دانية وقد اشتهر بوفائه للمعتمد ورثائه له بعد موته ، وهو شاعر من أهل الاجادة والاحسان ، وفد على المعتمد فى أواخر أيامه ومدحه . ثم بعد زوال ملكه لحق بجزيرة ميورقة وبها مبشر العامري فحظي عنده، وله فيه أمداح

1) المعجب صفحة 117

ومنها قصيدة غريبة المنزع جعلها من أولها الى آخرها . صدر البيت غزل وعجزه مدح ، وهى :

وضحت وقد فضحت ضيا النير فكأنما التحفت ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته ما قلدته محامدي من جوهر
وتكلمت فكأن طيب حديثها متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسي كما هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فجرت على عاداته فى المذنب المستغفر

وأما ابن خفاجة فهو شاعر الطبيعة المبدع في وصف آثارها ومظاهرها، من الرياض والرياحين والماء والغمام والشمس والظل والجبال والاشجار وما إلى ذلك . لم يلتفت الى منصب ولا الى جاه . ملأ جمال الدنيا عينيه فمال بكليته اليه ، يغني ويشرب ، ويشعر ويطرب ، إلى أن توفي بمسقط رأسه من جزيرة شقر . ومن شعره يصف نهرا :

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه ، مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدرا متلويا كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الاصيل على لجين الماء

وله في بلاد الاندلس :

يا أهل أندلس لله دركم	ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم	ولو تخيرت هذي كنت أختار
لا تخشووا بعدها ان تدخلوا سقرا	فليس تدخل بعد الجنة النار

وبعد ملوك الطوائف والمرابطين أظل الاندلس ملك الموحدين ، وقد بلغت الى أقصى غايات المجد العلمي والرقي الفكري . ففي عهدهم نبغ الفلاسفة العظام مثل أبناء زهر وابن طفيل وابن رشد ، وزادت النهضة الادبية اتساعا حتى أصبح الشعراء يعدون بالعشرات . ولقدجاس لهم المنصور الموحدي يوما وجاءوا يهنئونه بانتصاره في موقعة حربية ، فكانوا من كثرتهم إنما يلقون البيت الاول من قصائدهم ويضعون الورقة التي كتبت فيها القصيدة أمامه ، فما انتهى عددهم حتى كانت الاوراق تحول بينه وبينالناس من كثرتها[1] . ولانستطيع أننعد جميع الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر ، وإنما نقتصر على ذكر ثلاثة أفراد منهم نعتقد أنهم يمثلون عصرهم أحسن تمثيل وهؤلاء هم الرصافي وابن مجبر وصفوان ابن ادريس .

فالرصافي هو محمد بن غالب البلنسي ، نسب الى رصافة بلنسية ، وكان شاعرا مجيدا نزيها عفيفا ، وله في عبد المؤمن

---

1) النفح ج 2 ص 490

ابن علي القصيدة المشهورة التي أولها:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور

قبست ما شئت من علم ومن نور

وفيها يصف جبل طارق - وكان عبد المؤمن يسميه جبل الفتح - وصفا بليغا ويذكر مجمع البحرين وأسطول الموحدين الحربي ويمدح المهدي بن تومرت وعبد المؤمن مشبها لهما بموسى ويوشع عليهما السلام، وهاك قوله في وصف الجبل

لله ما جبل الفتحين من جبل	معظم القدر في الاجيال مذكور
من شامخ الانف في سحنائه طلس	له من الغيم جيب غير مزرور
معبرا بذراه عن ذرى ملك	مستمطر الكف والاكناف ممطور
تمسي النجوم على اكليل مفرقه	في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها	بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد من ثناياه بما أخذت	منه مقاحم أعواد الدهارير
محنك حلب الايام أشطرها	وساقها سوق حادي العير للعير

وابن مجبر هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهري من أهل بليش؛ قرية قرب مالقة، كان من أشعر اهل زمانه وكان مختصا بالمنصور الموحدي ملازما له، وكان المنصور يعظمه ويقدمه على غيره من شعراء وقته وله فيه امداح كثيرة، وهو القائل في وصف المقصورة

«الاوتوماتيكية» التي أنشأها المنصور بجامعه بمدينة مراكش بعد ما عجز الشعراء عن وصفها :

طوراً تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الاسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالامير يزورها ... في قومه قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفي بعده ... كتكون الهالات للاقمار

وأما صفوان بن إدريس فهو أبو بحر التجيبي من أهل مرسية ، كان شاعرا وكاتبا وله كتاب «زاد المسافر» الذي هو أحد المجموعات التي تؤلف خزانة الادب الاندلسي ، ومن شعره الهمزية المشهورة بين أدباء المغرب وأولها .

جاد الربى من بانة الجرعاء ... نوآن من دمعي وغيم سماء
فالدمع يقضي عندها حق الهوى ... والغيم حق البانة الغناء
خلت الصدور من القلوب كما خلت ... تلك المقاصر من مها وظباء
ولقد أقول لصاحبي وإنما ... ذخر الصديق لآكد الاشياء
يا صاحبي ولا أقل ـ اذا أنا ... ناديت من أن تصغيا لندائي
عوجا نجار الغيث في سقي الحمى ... حتى يرى كيف انسكاب الماء
ونسن في سقي المنازل سنة ... نمضي بها حكما على الظرفاء

ويأتي بعد هذا العهد عهد غرناطة وملوك بني الاحمر ،

وحسبنا أن نذكر غرناطة فنذكر الشعر والشعراء والحياة الادبية الراقية التي قضتها هذه المدينة في عهد ملوكها الرافلين في حلل النعيم في قصور الحمراء الزاهية وبين ظلال جنات العريف الوارفة . ولا حاجة بنا إلى ذكر شعراء هذا العهد ، فإن واحدا منهم يكفي للتنويه بنهضة الشعر فيه وهو لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا شعرا وأدبا ، وعفى ذكره على السابقين واللاحقين من أدباء الاندلس ، فما من مجال إلا وله فيها ذيل سحب ، وما من موضوع إلا وقد تناوله بذراع رحب ، وبقدر ما له في الشعر من الآيات البينات ، فإن له في النثر الفني والكتابة العلمية والتاريخية الاثار الخالدات . وبالجملة فقد كان معجزة قطره ومفخرة عصره ، ولم يبالغ من قال فيه انه شاعر الدنيا [1] وأديب الاندلس ، اذا كان يقصد دنيا العروبة فى هذا العهد . ولانستطيع أن نقدم نماذج من شعره تمثل نفسيته وطابعه الادبى ، فان شعره كثير ومناحيه الفنية متعددة ، فلنقتصر على قطعة أو قطعتين منه «وعن البحر اجتزاء بالوشل» قال يتشوق :

سقى الله نجدا مانضحت بذكرها	على كبدي الا وجدت لها بردا
وآنس قلبي فهو للعهد حافظ	وقل على الايام من يحفظ العهدا
صبور وإن لم يبق الا ذبالة	اذااستقبلت مسرى الصبا اشتعلت وقدا
وقد كنت جلدا قبل ان يذهب النوى	ذمائي وان يستأصل العظم والجلدا

1) إبن الاحمر في نثير الجمان

وقال مخاطبا السلطان أبا عنان المريني وكان وفد عليه من قبل سلطانه الغني بالله في جملة من أعيان مملكة غرناطة مستنجدا به ، فحين مثل بين يديه أنشده وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر	علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته	ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى	لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس	لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن بها مذ وصلت حبلهم	ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الامر أنه وطن	في غير علياك ما له وطر
وقد أهمتهم نفوسهم	فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الابيات وأذن له في الجلوس وقال له ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم، قال القاضي أبو القاسم الشريف شارح مقصورة حازم وهو من مشائخ لسان الدين وكان معه في هذه الوفادة : « ما سمعنا بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان الا هذا» . ولا شك أن ذلك من براعة لسان الدين الرائعة وبلاغته الفائقة

***

وهذا الاستعراض على سرعته لا يتم اذا لم نتعرض لنوابغ النساء الاندلسيات في الشعر ، وما كان لمشاركتهن من بليغ

الاثر في الحياة الشعرية بالاندلس . وقد بدأ نبوغهن مبكرا في أول عهد الدولة الاموية ؛ لما قلنا من أن الشعر الاندلسي نشأ حضريا من أول يوم. ونبوغ النساء في العلوم والفنون هو وليد الحضارة والحياة العقلية المترفة .

وقد كانت لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر من الاديبات الشاعرات المتفوقات، وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت أبي الحسين الشاعر ، والشاعرة الغسانية ، وحفصة بنت حمدون . واشتهرت بعد هؤلاء عائشة القرطبية التي لم يكن في زمنها من حرائر النساء من يعدلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة ، تمدح الملوك وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة . وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وماتت عذراء سنة 400[1] ثم اشتهرت فى القرن الخامس مريم بنت أبى يعقوب الانصاري الشاعرة الاديبة التي كانت تعلم النساء الادب ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ومولاة ابى المطرف بن غلبون العروضية وولادة بنت المستكفى الشهيرة ، ومهجة القرطبية ، ونزهون الغرناطية ، وحمدونة بنت زياد المؤدب . والعبادية والدة المعتمد ، واعتماد محظيته وبثينة بنته وأم الكرم بنت المعتصم بن صمادح وغاية المنى جاريته . ثم اشتهرت فى أوائل القرن السادس الاديبة الشلبية، وأسماء العامرية وحفصة الركونية وغيرهن ممن استوعب

---

1) النفح ج 2 ص 492 .

المقري ذكرهن وأتى على كثير من أشعـارهن ولطائفهن .

ونحن نكتفي بذكر اثنتين من هذا العدد الكثير وهما ولادة وحمدونة :

فأما ولادة فهي بنـت الخليفـة المستكفى بالله : كانت واحدة زمانها في الادب والشعر، حسنة المحاضرة لطيفة المعاشرة مع الصيانة والعفاف . وكـان ابن زيدون يتعـشقها وله فيهـا القصائد الطنانة والمقطعات البديعة ، وكانت أولا تطارحه شعرا بشعر وتبادله حبا بحب ، ثـم قلبـت له ظهر المـجن وصارت تهجوه . وكـان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظـرفاؤها فيمر فيه من النوادر وانشاد الشعرشيء كـثير. ومن بديع شعرها مـا كتبت به الى ابن زيدون :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فانى رأيت الليل أكتم للسر

ولى منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسـر

وأما حمدونة بنت زياد المؤدب فهى التى يقال لها خنساء المغرب لقوة شعرها وسمو إبداعها ، ولها المقطوعتان العجيبتان المشهورتان بالمشـرق والمغرب واللتـان مـا زال أهـل البلاغـة يجعلونهما مثـلا أعلى للنسج على منواله والحذو حـذوه وهما : هـذه :

ولما أبى الواشون إلا فراقنـا وما لهم عندى وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاري

غروتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسيف والسول والنار

وهذه :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

***

ولعلنا وقد انتهينا من هذا الاستعراض، قد ظهرنا منه بالرغم من قصره على تلك الظاهرة التي أسلفنا الكلام عليها، وهي أن هذا الشعر الاندلسي حضري مترف لا جاهلية له ولا بداوة ، وأنه منذ نشأ كان كذلك ، لم يحمل من معاني الشعر الجاهلى وألفاظه ما حمله غيره من الشعر العربى فى الاقطار الاخرى غير الاندلس، ولم يمثل غير نفوس أصحابه ومجتمعهم ومحيطهم على أنه لما ضاق به مجال التعبير ، واحتاج الى التحرر من القيود اللفظية لم يخرج عن مواضعات القوم إلا بمقدار ماتسمح به طبيعة اللغة العربية المحافظة على إرث الاجداد : فاخترع هذا التوشيح الذي هو فن أندلسي محض ، أدخل على الشعر العربي تحسينا في الصناعة كما جعله ألين مراسا وأسلس قيادا مما كان عليه قبل ، إذ كانت القافية تتحكم فى الشاعر فتركبه

المراكب الصعبة للبلوغ الى مقصده ، ويضطر بذلك الى استعمال الالفاظ المألوفة وغيرها ، ودع عنك سآمة النفس ونبو الطبع عن سماع نغمة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير منذ بدء القصيدة الى نهايتها . وربما تكون طويلة جدا ، ولا كذلك هذا النظام البديع الذي يقوم عليه التوشيح من الاسماط والاغصان : فانه أوقع في النفس وأخف على السمع . وبه ظهرت براعة أهل الاندلس فانهم جددوا وحافظوا في آن واحد: جددوا في أسلوب الشعر ونظمه، وحافظوا على اوزان العروض والقافية فلم يقعوا فيما وقع فيه بعض أدباء العصر من الدعوة الى نبذ القافية جانبا والتحلل من الاوزان والبحور الشعرية المعروفة . فلما تناقض عملهم مع طريقة الشعر المعروفة دعوا ذلك بالشعر المنثور؟

وأشار ابن خلدون الى قريب مما ذكرناه: من ان اختراع التوشيح كان نتيجة لكثرة الشعر وحب التفنن فيه فقال : «أما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطا وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة[1] .

1) المقدمة ص 689

وكان المخترع لهذا الفن هو مقدم بن معافى شاعر الامير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخـذه عنه ابن عبد ربه صاحب كتاب «العقد» . ولكن الذي أحكم صناعته ونهج طريقتـه هو عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية . . قال أبوبكر بن زهر : «كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم، شمس ضحى ، غصن نقي، مسك شم
مـا أتم ، ما أوضحـا ، مـا أورقـا ، ما أنم
لا جـرم ، مـن لمحا ، قد عشقا ، قد حـرم

وكـان بعد عبادة ، ابن رافع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، ثم الاعمى التطيـلي ويحيى بـن بقى وأبوبكر بن باجة الفيلسوف الموسيقار المشهور، ثم محمد بن أبي الفضل بن شرف وابوبكر بن زهر الحكيم المشهور وسهل بن مالك وغيرهم كـثير . واشتهر على الخصوص بين ادباء المغرب موشح ابن سهل الاسرائلي شاعر اشبيلية واوله :

هل درى ظبي الحمى ان قدحمى ... قلب صب حله عن مكـنس
فهو في حر وخفـق مـثلما ... لعبت ريح الصبـا بالـقبس

وقد نسج على منواله لسان الدين بن الخطيب فقال :

جادك الغيث اذا الغيث همى ... يا زمـان الوصل بـالاندلس
لم يكن وصـلك الا حـلمـا ... في الكرى او خلسة المختلس

وكان ابن الخطيب من المبرزين في صنعة التوشيح شأنه في كل فن من فنون الادب .

ولا يمتاز الشعر الاندلسي من ناحية الصناعة اللفظية فحسب، بل إن له مميزات من الناحية الموضوعية لا تكاد تخفى على احد ممن تعمق في دراسة الادب العربي على العموم وقارن بين الشعر الاندلسي وغيره من شعر الاقطار العربية الاخرى وقد تقدمت الاشارة الى هذه البراعة في الوصف التي تميز بها الاندلسيون خاصة في وصف مظاهر الطبيعة وآثارها البديعة من الرياض والازهار والرياح والامطار والمياه والانهار وما إلى ذلك حتى كان شاعرهم في هذا الباب وهو ابو اسحق بن خفاجة فذا في شعراء العربية كلهم لم ينافسه احد منهم في استحقاق لقب شاعر الطبيعة . . ومع ذلك فإن موضوعا آخر لم نر من نبه عليه ، ولم ينتبه إليه الشعراء العرب الا في هذا العصر الحديث حين وجدت بواعثه وأسبابه ، فصار عندهم من الموضوعات الشعرية الرئيسية ، الا وهو الشعر الوطني ، فالاندلسيون بما كانوا فيه من عراك دائم مع القوات الاسبانية التي تنتقض بلادهم من اطرافها يوما فيوما وتحاول ان ترمى بهم خارج حدود الجزيرة الايبيرية في كل وقت وحين . لم يزالوا كلما خرجوا من بلدة او قرية وفقدوا السلطة على مدينة او ناحية . يبكون سالف مجدهم وعزهم ويحنون الى معاهد

انسهم واهوهم ويتفجعون لما نزل بها من الذل والهوان ويستثيرون الهمم لانقاذها واسترجاعها من يد الكفر والطغيان وهكذا تكون موضوع جديد في الشعر العربي وهو الشعر الوطني الذي يضرب على وتر الوطنية ويستغل الحماسة الدينية للجهاد والقتال من أجل تحرير البلاد .

وهذه الوطنية لم تكن عند الانداسيين شعورا عابرا ولا فكرة عارضة . وإنما هي عقيدة ثابتة وإحساس متأصل في نفوسهم . يدلك ذلك على كثير من أقوالهم حتى في غير الشعر الذي نحن بصدده. فمثلا نجد الفتح بن خاقان عند ترجمته لابن حزم العالم المشهور يفتخر بأنه ام يرحل إلى المشرق وأن نبوغه فاق من رحل اليه[1] ونجد إسمعيل بن حبيب في مقدمة كتابه «البديع في وصف الربيع» يباهي بأنه لم يورد فيه شعرا الا لاهل بلده الاندلس . ويزري بأشعار المشارقة التي ابتذلت فلم تعد النفوس تميل الى سماعها، ثم يشير الى سبق الاندلسيين للمشارقة في أحسن المعاني مجتلى ، وأطيبها مجتنى ، وهو الباب الذي تضمنه هذا الكتاب (يعني وصف الربيع) فلهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه» .

ونرجع الى ماكنا بسبيله من الشعر الوطني الاندلسى

---

1) مطمح الانفس ص 63

فنورد منه بعض الامثلة . يقول أبو المطرف بن عميرة فى قطعة بليغة :

زدنا على النائين عن أوطانهم ... وان اشتركنا في الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استسقوا لها ... من بعد ما شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا ... مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناً طاعتها استقامت بعدنا ... لعدونا ؛ أفيستقيم لها الهوى ؟

ويقول ابو عبد الله الفازازى في قطعة اخرى :

الروم تضرب فى البلاد وتغنم ... والجور يأخذ ما بقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة ... والجند يسقط والرعية تسلم
وذوو التعين ليس فيهم واحد ... الا معين في الفساد مسلم
اسفي على تلك البلاد واهلها ... الله يلطف بالجميع ويرحم

فهاتان القطعتان من أشجى الشعر الوطني وأبلغه ، ولا تقصران عما ينظم منه الان في البلاد العربية التي يتلاعب بها الاستعمار[1] .

***

ودون هذا وذاك فان هناك فنونا أخرى من النظم برع فيها الاندلسيون وتفوقوا على غيرهم وان كانت لا تعد من الشعر فى حقيقة الامر ، وهذه مثل الانظام العلمية التى تضم أشتات العلوم وقواعدها وتتضمن أبوابها وفوائدها . ومن أول

---

1) أنظر فصلا خاصا بهذا الموضوع في كتابنا «التعاشيب» .

الموضوعات التى ضبطوها بالنظم وقيدوها الوزن التاريخ، فلابن عبد ربه أرجوزة ذكر فيها غزوات عبد الرحمن الناصر[1] بل قيل ان ليحيي الغزال الذي عاش قبل ذلك بكثير تاريخا للاندلس منظوما . وكذا لابن الخطيب تاريخ منظوم وهو المعروف «برقم الحلل فى تاريخ الدول» وفى غير التاريخ نرى منظومة لابن عبد ربه أيضا فى علم العروص وهى فى غاية السلاسة[2] كما نرى لابن مالك الجيانى « ألفية » النحو المشهورة ولابن عاصم الغرناطى «تحفة الحكام فى علم القضاء والاحكام» وغير هذه المنظومات كثير .

على ان البراعة الحقيقية التى امتاز بها الاندلسيون فى هذا الصدد هى الانظام العلمية الملغوزة. وتختلف طرق الالغاز فيها عندهم ، فبعضها لانكاد تشعر بأنه نظم علمى ، وانما تقول انه قصيدة شعرية فريدة فى حين أنه يتضمن اشارات ورموزا الى قواعد علمية معروفة . وبعضها يكون فيه الرمز واضحا لا خفاء معه وانما فائدته أنه يتضمن المعانى الكثيرة فى الالفاظ القليلة بحيث تشتمل القصيدة ذات الابيات المعدودة على قواعد علم كامل بجميع مسائله وأغراضه . فالاول كما في قصيدة

1) انظرها في ج 2 من العقد

2) انظرها في الجزء 3 من العقد

«غرامى صحيح» لابن فرح الاشبيلى التى ضمنها اصول علم الحديث ولم يصرح بشئ من غرضه فجاءت كأنها قصيدة غزلية بحيث لو عرضت على عربي خالص لما فهم منها إلا ما يفهم من قصائد الشوق والوجد وهذا اولها :

غرامي صحيح والرجا فيك معضل ودمعي ووجدي مرسل ومسلسل

والثاني كما في قصيدة الشاطبي في علم القراءات، وهي مشهورة بين علماء هذا الفن ، وتعد من امهات الكتب فيه ، وقد بناها على اشارات الحروف الابجدية ، وبذلك توصل الى اختصار هذا العلم الواسع وتضمينه في نظم مهما كثر فانه قليل بالنسبة الى سعة موضوعه[1]

... وقد ظهر بهذا العرض السريع وهذه الالمامة العجلى ان الشعر الاندلسى لم يتأثر بشئ خارجى عنه ، حتى الادب المشرقى كان تأثره به فى دائرة عامة ، وأما السمات الخاصة به فانما كانت من وحى البيئة والمحيط . وهذه العناصر الجديدة التى وجدت فيه مع الايام سواء فى اللفظ او المعنى انما كانت ذاتية وتلقائية ، فلا صحة لما يقال من ان الادب الاندلسي تأثر بالادب الاسبانى واخذ عنه ، كما اثر هو عن حق في هذا الادب وكما اخذ هذا الادب من غير شك عنه، فليت شعري اين هو هذا

1) توسعنا في الكلام على هذا الموضوع في فصل ضمناه كتاب «واحة الفكر» .

الاثر ؟ وما هذا الذي اخذه الادباء الاندلسيون عن الادباء الاسبان واي فن جديد هذا الذي اضافه الادب الانـدلسي الى فنـون الادب العربي باستثناء الموضوع الذي لمحنا اليه وهو الشعر الوطني الذي كان وليد الظروف السياسية الداخلية للبلاد ؟ وما باله لم يطل على دنيا القصص والتمثيل . إن كان حقا تأثر بالادب الاسباني ، وليس في هذا الاخير ما يؤخذ افضل من هذين الفنين ، لو كانا موجودين فيه إذ ذاك ؟

اما القول بأن مرثية ابن عبدون للملوك بني الافطس هي من قبيل الشعر القصصي ، وانها تدل على اقتباس هذا الفن من الاسبان ، فإنما هو قول من يلقي الكلام على عواهنه ولا يعني بتحقيق ما يقول .

ولهذه المناسبة نشير قبل أن نختم هذه الكلمة، الى أن هناك قصيدة أخرى شبيهة بمرثية ابن عبدون ، ولكن قل من يتنبه لها مع أنها في غرض الرثاء مثلها وتضمنت من عبر الدهر ما يجعلها مأساة تاريخية كقصيدة ابن عبدون، وهذه هي قصيدة الاعمى التطيلي في رثاء أحد فتيان اشبيلية الاجواد وكان يتعهده ويحسن اليه، فأصبح قتيلا ذات يوم . وأولها :

خذا حدثاني عن فل وفلان لعلي أرى باق على الحدثان[1]

1) انظر قلائد العقيان ص 286 ـ 289

عاميتنا والمعجمية

هذا بحث طالما منيت نفسي بالكتابة فيه والشواغل تصرفني عنه ، وهو بحث يلزم له كثير من الاناة لتنقيح مناطه وزمن غير قليل لجمع شتاته. وأنا الان اقتحم لجه أقل ما كنت استعدادا له ، فكتبي ليست معي، وحالي حال المسافر الذي وإن طالت اقامته في بلد ما لا يكون مطمئنا اطمئنانه وهو مقيم في بلده بين أهله وولده . ولذلك فهو ليس البحث الذي كنت أمني به نفسي من حيث العمق والشمول، وان ألم بأطراف الموضوع ورسم خطوطه الاولى . وكذلك ما لايمكن كله لا يترك بعضه.

وقبل الدخول في صميم الموضوع ارى انه لابد من تعريف اللفظين المعنون بهما لان عليهما مدار هذا البحث. فالعامية هي اللغة التي يتكلم بها الجمهور في أي بلد عربي. ويقال لها أيضا الدارجة لان القوم درجوا على التفاهم بها . وبما انه لكل قطر عربي لغة من هذا القبيل فاضافتها في العنوان إلى ضمير المتكلم ومعه غيره ، مشعرة بأن المراد بها هنا العامية المغربية . وأما المعجمية فالمراد بها كون الكلمة فصيحة من مفردات المعاجم اللغوية اعني قاموسية بمجاراة الاصطلاح الذي درج على استعمال كلمة قاموس بمعنى معجم ، وهو خطأ منشأه التوسع في اطلاق

اسم معجم الفيروزابادي الذي هـوا لقاموس المحيـط على كل معجم آخر، وما هو الا اسم علم، خاص بالكتاب الذي سمي به، لا يتجاوزه الى غيره . وعلى كل حال فالمعجمية منسوبة الى المعجم وهو الكتاب المؤلف في مواد اللغة. وأولى ان تكون في عنواننا مصدرا صناعيا مثل الحرية والوطنية لتكون أتم دلالة على المراد من مقابلة العامية بها وتصحيحها عليها .

ومما لا خفاء به ان اللغة العربية قد طرأ عليها انحـراف كبير عن وضعها الاصلي افرادا وتركيبا ، سواء في ذلك لغة التخاطب ولغة الكتابة. فمنذ بارح الشعب العربي وطنه الاصلي مضطرا الى الاختلاط بالشعوب العجمية الكثيرة التي اعتنقت الاسلام . واللغة العربية في تصادم كبير مع اللغات واللهجات العديدة التي لاقتها فى مختلف المواطن الاسلامية الجديـدة . وهى وان لم تنهزم قط فى هذا الصراع الطويل ، فقد خلف بها ندوبا اتسعت كثيرا فى لغة التخاطب حتى نشأت عنهـا هذه اللغات أواللهجات العامية على الصحيح المستعملة فى كل قطر من الاقطار العربية بما بينها من تقارب اوتباعد. وأما لغة الكتابة فقد قيض لها في كل زمان ومكان من يرد خطأهـا الى الصـواب ويقوم انحرافها حتى تعود الى وضعها الاصلي ، وبذلك بقيت محتفظة بعناصرها الاولى التي تجعلها دائما اللغة الرسمية لشعوب الاسلام كافة بل ابناء العروبة في مختلف أقطارهم .

ولعل سلسلة المؤلفات الموضوعة في هذا الغرض من درة الغواص في أوهام الخواص للحريري الى لغة الجرائد لليازجي وغيرهما ؛ مما لا يخفى امره على القارئ الكريم . غير أن هذه المؤلفات ان كانت ترد خطأ الاستعمال في المفردات والتراكيب إلى صوابه وتنبه على وجه الانحراف الذي وقع في ذلك ، فإن غرضنا من هذا البحث هو على العكس محاوله رد بعض المفردات وربما التراكيب أيضا التي فشا استعمالها في العامية المغربية وقد يظن أنها خطأ - الى اصلها من الصواب والتنبيه على وجه ذلك كما يتبين فيما بعد

وبعبارة أوضح تسجيل ما في العامية المغربية من كلمات صحيحة الاستعمال وبعضها مما لا شك في فصاحته لانه ثابت في كتب اللغة الا أنه من الغريب الذي لم يعد مستعملا في لغة الكتابة والبعض الاخر مما تميزت به العامية المغربية ، ولا نبعد اذا قلنا انها وضعته مطابقا لقواعد الفصحى من الاشتقاق والنحت وغير ذلك سادة به احدى الحاجات اللغوية الضرورية فهو لذلك مما لاتتضمنه كتب اللغة وان كان أحرى ان يسلك فيها مع التنبيه على أصله .

وإذا كان في التعرف إلى النوع الاول من هذه الكلمات بيان شدة القرب بين العامية المغربية والعربية الفصحى - وذلك مما يجعلنا نعتقد ان الشعب المغربي في وقت ما ، كان يتكلم

بلغة سليمة ان لم نقل فصيحة ـ وهو حرى ان يعود سيرته الاولى عند انتشار الثقافة وتعميم التعليم كذى قبل ـ فان في عرض النوع الثاني منها وتوجيهه عربية، ما يشعر باصالة السليقة العربية عند المغاربة وتمكنهم من قواعد اللغة التمكن التام الذى يظهر فيما يجرى على السنتهم من الكلم مطابقا للقوانين النحوية والمقاييس الصرفية .

وليس هذا القول من المبالغة في شيء : فان هناك من المغاربة من كان لايتكلم الابكلام معرب حتى فى الاحوال العادية كالوزير عبد المهمين الحضرمى (676 ـ 749) وكان ابو علي اليوسي (ـ 1102) يقول لو شئت ان لا اتكلم الابالشعر لفعلت. وهذه غاية ادناها ان يتكلم الناس بلغة سليمة من العجمة. وقد الف العلامة ابن هانيء السبتي (ـ 733) كتابه انشاد الضوال وارشاد السؤال فى لحن العامة ، ومقتضاه ان الخاصة لم تكن تلحن . ولا يعزب عن البال ان العالم العربي لبث زمنا طويلا وهو يدرس قواعد اللغة العربية في كتب مؤلفين مغاربة ، واشهر هذه الكتب مقدمة ابن اجروم (672 ـ 723) التي لا تزال مستعملة في كثير من معاهده الي الان . فلا جرم ان يكون المغاربة تكلموا العربية على الوجه الصحيح فى العهود السابقة،

***

وندخل في صميم الموضوع فنشرع فى ذكر بعض الكلمات

من النوع الاول ، ثم نتبعها بكلمات من النـوع الثـانى غير قاصدين الى الاستيعـاب ولا متبعيـن قاعـدة فى الترتيـب لان المراد هو رسم خطة العمل فى هذا البحث والالمام به ولو من جوانبه .

البخنـق

قـال في مختـار الصحاح في مادة بخق: والبخنق خرقة تقنع بها الجارية وتشد طرفيها تحت حنكها لتوقي الخمار من الدهن او الدهن من الغبـار هـ. وهذا هو البخنـق في كلامنا ايضـا الا ان التوقي به اكثر ما يكون من الريـح ويستعمل منه فعـل بخنق ، وعندنا البخينقة بصيغـة التصغير للقـلادة من الجوهر تشد على العنق شدا بحيث لا تقـع على اللبـة الا انهم يكسرون الخاء ويسكنون النون تخفيفا ويقولون لهده القلادة ايضا الخناق وتفسيره قريب من البخينقة لانه يأخذ بخناق المرأة. وهاتان الكلمتان احرى ان تعدا من النوع الثاني .

الـبـابـة

بابة الشيء حقه وما يصلـح له يقـال كان من بابتك ان تفعـل كـذا اي من حقك ، وليس ذلك من بابتك اي لا يصلـح لك ، وهو بمعناه هذا مستعمل في كـلامنا . ومن امثال العـامة : (اللي كمل طريحـة وبـدأ طريحة ، بابته الذبيحة) والطريحة

في كلام الصناع ما يصنع من جلد ونحوه لانه اذا فرغ منه طرح ارضا فالمثل يعنى ان الصانع الذي يكمل صنع شيء ثم يبدأ بصنع شيء آخر دون ان يستريح قليلا حقه الذبح وهم يستعملون الذبيحة بمعنى المصدر او ان اصلها تصغير ذبحة ثم كسرت الباء. ويضرب هذا المثل في الامور المعنوية فيقال مثلا للرجل الذي يتزوج ثانيا بعد ان كان تزوج اولا وولد له وبلغ المراد من الزواج. والشاهد في قولهم بابته .

البنيقة

تطلق البنيقة في اللغة على ما يشبه الطوق يقال بنق القميص جعل له بنيقة وهي القطعة من الثوب تزاد في نحره لتوسيعه وكأنها ما يسمى اليوم بالعنق، وتستعمل هذه الكلمة عندنا في بنيقة الحمام التى تلف بها المرأة شعرها بعد الاغتسال وتكون من ثوب ابيض مطرز بالحرير، وهى تستكمل تنشيف الشعر، وتقى ما يغطى به الرأس من البلل. ولا ادري هل لدلالتها هذه اصل فى اللغة ام هو توسع فى معناها فقط.

بنين

هذه الكلمة فى اللغة معناها سمين وتطلق عندنا بمعنى لذيذ وجميل ولا شك ان هذا استعمال لها فى معناها المجازي لان السمين من الحيوان المأكول يستلذ طعمه، وغبر الناس

زمنا على اعتبار السمن من مقومات الجمال فاستعمال بنين فى المعنيين صحيح اذن بل هـو من حسن التصرف في معناه. ثم انهم استعملوا منها البنة ولكن بالمعنى الاول فقط فيقولون مثلا لهذه الفاكهة بنة يعنون مذاقا خاصا .

التـبـان

قال في المختار: والتبان بالضم والتشديد سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة وقـد يكـون للملاحين هـ . اي والدباغين وهو مستعمل بهذا المعنى عندنا وفي احدى الحكايات الشعبية التى تروى للاطفـال عن البرغوث تقـول امـه وهـي تخاطب جارتهـا : « يا جـارتي ! يا جارتي ! اعيريني المغـرفة ، اجبذ بها البريغيث سيد الرجـال ، طـاح في القديرة ، ما بـان ، طاح فى الدشيش، ما يعيش، مولي الطاقة والعلم، مولى (التبان) مـا عليه كلام » والبريغيث تصغير برغوث وهـو هنـا للتحبب والتعطف والقديرة تصغير قدر ، وطـاح تاه وهلك وما بان مـا ظهـر والدشيش طعـام يتخذ من جريش البـر ومـولى بمعنى صاحب ولا ندري ما ارادت ام البرغوث بالطـاقة : الثـوب او القـوة ؟ وامـا العلم فلعلها تريد به الشهرة والشاهد في التبان الذي كنا نعـرفه ونحن اطفـال صغـار ونعجب من امـر هـذا البريغث المسرول والمستور العورة وهو من صغر الحجم بحيث لا يكاد يبين .

التبطين

بطانة الثوب ضد طهارته . . وبطن الثوب تبطينا جعل له بطانة قاله في المختار، وهكذا تستعمل هذه المادة عندنا فعلا ومصدرا . ومن العجيب ان يتكلم العامة بالفصيح في حين أن بعض المتعلمين يقولون «الفورو» او «الدوبلير» .

تبنك

تبنك بالمكان اقام فيه وتبنك في العلياء تمكن ، وكذلك نقول تبنك فلان في المنصب والجاه اذا ثبت واستقر . والعبارة تورد مورد الاستنكار .

الترياق

دواء السموم معروف . ونقول للدواء والسمن الحار وما أشبه ذلك : هو مثل الترياق أي كريه المذاق .

تقلق

لمطاوعة قلقه وللنسبة الى القلق مطلقا . يقع في كلامهم كثيرا . وهو تصرف قياسي لاغبار عليه . ولم نر من نص عليه من أصحاب المعاجم اشارة الى سبق استعماله ولكنا وجدناه في رسائل بديع الزمان .

التكفيف

قال في المختار : «وكف الثوب خاط حاشيته ، وهي الخياطة الثانية بعد الشل» والشل عنده الخياطة الخفيفة ، وهذا اللفظ مستعمل عندنا أصلا بمعنى خياطة الحاشية لانه كف اها عن النسول ، ويقولون جعل للثوب كفافة اذا كان طويلا فثني من حاشيته ، واما بمعنى الشل فيستعمل قليلا ، على أن الشل نفسه مستعمل عندنا بالمعنى الذي ذكره ولكن بوزن التفعيل كما استعملنا التكفيف ولم نستعمل الكف .

الجرى

جاء في المختار : والجرى الوكيل والرسول وقد جرى جريا واستجرى ايضا اي وكل وكيلا وارسل رسولا . وفي الحديث قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان . قلت قال الازهري قدم على النبى عليه الصلاة والسلام رهط بني عامر فقالوا انت والدنا وانت سيدنا وانت الجفنة الغراء فقال قولوا بقولكم الحديث ، اي تكلموا بما يحضركم ولا تتنطعوا ولا تتنطقوا كأنما تنطقون عن لسان الشيطان والعربي يدعو السيد المطعام جفنة لملابسته اها والغراء التي فيها وضح السنام . وسمي الوكيل جريا لانه يجري مجرى موكله ه. وهو مستعمل بهذا المعنى عندنا ولكن ربما خص بالوكيل على قبض الاكرية

وعلى الفلاحة وما اشبه ذلك وخص الوكيل بأمر الدعوى والتجارة وما اليها من القضايا المهمة وبعض العوام يفهم أنه من الجري فينطقه ويكتبه الجاري بصيغة اسم الفاعل. على أنه بهذه الصيغة قد يكون من معنى الجرى بالتشديد .

الجونة

قال فى المختار : والجونة بالضم جونة العطار وربما همز قلت : قال الازهري : الجونة سليلة مستديرة مغشاة أدما تكون مع العطارين ه. ونحن نطلقها على ما عرفها به الازهري ويستعملونها في البيوت لحفظ الخبز . ومن كلام السيدات في مناغاة الاطفال: «هب الفار في الجونة ، اكل لي خبزة وزيتونة» واستعمال هب هنا بمعنى نشط وأسرع هو أيضا مما نحن فيه لانه من معانى هذا الفعل .

الدرد

الدردي في اللغة بياء مشددة آخره هو ما يبقى من الزيت وغيره راسبا في قعر الاناء. ويقال فى المثل «اول الدن دردي» والدن اناء الخمر يضرب لمن يفتتح عمله بالشر، ونحن نقوله فى معناه ولكن بحذف الياء تخفيفا . وربما جاء كذلك فى كتب اللغة. وقرأت للدكتور احمد زكي وكيل كلية العلوم بالقاهرة

ان اسم حامض الطرطريك Tartaric المعروف في علم الكيميا مأخوذ عن العربية واصله حامض الدردي وهو مما يتكون من رواسب المائعات .

الـزربـيـة

معروفة ، وقدذكرت في القرآن قال تعالى (وزرابي مبثوثة) ولا اسم لها عندنا الا ذالك ، وفي المشرق يقولون السجاد لان بعض الزرابي الصغيرة تتخذ للصلاة فيسجد عليها. ومن الغريب ان بعض المـتفصحين عندنا صاروا يقولون الآن السجاد مثـل المشارقة ويعدلون عن اللفظ الفصـيح المذكور في القـرآن، وما دروا ان العرب لم تقـل السجاد الا بالتـاء اعنـي السجادة فاطلاق لفظ السجاد على الزربية عموما فيه مجاز مع خطأ حذف التـاء . ونحن نستعمل لفظ السجـادة بالتاء فيمـا استعملته فيـه العرب، واليك شرحه عن مختار الصحاح قال: «والسجادة الخمرة قلـت الخمرة سجـادة صغيرة تعمـل من سعف النخل فتـرمل بالخيوط» وهذه هي السجادة عندنا تماما .

الزريبة

حظيرة المواشي في الفصحى وفي العـامية المغربية ومن امثـالهم «جئت للزريبة تبيـع اللبن» وهو كقول العـرب في جالب التمر الى هجر .

السبنية

في القاموس ان السبنية ثياب منسوبة الي محلة ببغداد يقال لها سبن وفى شرحه قول بانها منسوبة الى موضع بناحية المغرب ثم اضطرب قولهم فيها فقيل انها ازر سود للنساء وقيل انها ثياب من كتان بيض وقيل انها الثياب القسية وهى ثياب من كتان مخلوط بحرير كانت تجلب من القس او انها منسوبة الى القس وهو الصقيع لنصوع بياضه . وعلى كل حال فالسبنية عندنا خمر من الحرير ملونة ومطرزة تشدها النساء في رؤوسهن ، وهى عندنا ايضا هده المناديل الصغيرة من الكتان الساذج والمخلوط بالحرير التى نضعها فى الجيوب للعطاس ونحوه فلم تخرج عن المدلولين اللذين افادهما كلام اللغويين ولعل الموضع الذي تنسب اليه كان ينتج النوعين معا، فلذلك اختلفا نوعا واتحدا نسبة. ثم ان المنديل لا يستعمل عندنا الا لما يسمح به الوجه والاطراف عند غسلها كالفوطه، بخلافه فى الشرق فانه يطلق هناك على السبنية التى يظهر انهم لا يستعملون لفظها .

السقطرى

قال فى شرح القاموس فى مادة ايذع: «وصمغ المر يجلب من سقصري جزيرة الصبر، ومر سقطري مما يجري فى كلامهم

على طريقة التشبيه البليغ المحذوف الاداة .

السهوة

مثل الرف من الخشب يجعل فى البيت لوضع الاشياء عليه وقد يكون كبيرا بحيث يجلس فيه وينام فيما اذا كان سقف البيت مرتفعا واريد استغلال فراغه. وكثيرا ما يجعل ذلك فى الدكاكين الصغيرة وبيوت المدارس والمقاهي - حتى الاوربية - فيوجد من الضيق سعة . . هذا ما يراد بالسهوة عندنا وهو معناها في لسان العرب مع توسع قليل .

شنق

شنق الدابة جذب بشكيمتها حتى يرتفع رأسها ، ونحن نقوله فى هذا المعنى لكن بصورة المضعف أي بتشديد النون ونعديه باللام فنقول فى حالة الامر مثلا: شنق لها، وكأنه هروب من ارادة الشنق بالمعنى الشائع فيكون التضعيف حينئذ مستعملا في ضد ما هو له من التقوية على خلاف ما اصطلحوا عليه من ان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولعلهم لما استشعروا ضعفه عدوه باللام .

ومما يتعلق بهذه المادة قولهم للطويل الدقيق (الشناق) وهو كذلك في العربية الفصحى ، ولا يصفون به الا اذا أرادوا

الذم ولعل العرب أيضا كانت تريد ذلك .

واما ما يتعلق بالدابة من الشكيمة والسرج والركاب والمهماز وما الى ذلك فاكثره على ما هو في العربية الفصحى ولم نذكره لانا لانذكر الا الغريب الذي لم يعد مستعملا عند الكتاب . وهذا ايضا انما نذكر منه امثلة معدودة .

الشطاط

حسن القامة واعتدالها ومن شعر عوف بن محلم الشيباني المشهور :

ان الثمانين – وبلغتها – قد احوجت سمعي الى ترجمان
وبدلتني بالشطاط انحنا وكنت كالصعدة أو كالسنان

وهو بهذا المعنى مستعمل عندنا . ومن البيوتات المغربية اولاد الشاط والشاط الموصوف بالشطاط ولا شك أن جدهم المدعو اولا بذلك كان حسن القوام معتدله . ومنهم ابن الشاط الاصولي المعروف وهم من الانصار ، ويقولون في امثالهم : «ابريل الشاط الطويل ، لا يترك لقمة في منديل ، ولا تينة في برميل» والفلاحون يستطيلون شهر أبريل لانه يأتي في أعقاب السنة الفلاحية قبل ادراك الغلل فلذلك عبروا عما يصيبهم من الخصاصة بهذا التعبير الشعبي البليغ والشاهد في قولهم الشاط يعنون به الاعتدال مع الطول .

الشياط

رائحة الاحتراق مطلقا يقال : شاطت القدر احترقت . فليس هو خاصا برائحة الصوف او القطن المحترق . وكذلك هو في كلامنا .

الطارمة

قال في المختار : الطارمة بيت من خشب فارسى معرب ه. وهو عندنا كذلك الا انه لا بد ان يكون فى داخل بيت مبنى بمعنى ان الانسان يقتطع من البيت جانبا بحاجزمن خشب يجعل فيه ادواته او يتخذه محلا للزينة فذلك هو الطارمة وهم يتفننون فى واجهته ويجعلونها تلائم أثاث البيت وفراشه ، اذا كان فى بيت النوم . واما اذا كان فى بيت الاكل مثلا فانه يتخذ مخزنا للعولة وتكون واجهته عادية .

وقد وقع ذكر الطارمة في كتاب معجم الادباء لياقوت ، اذ جاء في الجزء الثالث منه (ص 84) هذه العبارة (فخرجوا من باب الطارمة) فكتب عليها ناشره ومصححه الدكتور فريد رفاعي قائلا: «لعله باب خاص لاهل المنزل كما يقال باب الحريم» ولا يخفى ما فيه من القصور فضلا عن كون الكلمة مما يجري على لسان العامة في المغرب .

العتلة

حديدة يحتفر بها واكثر ما تستعمل بهـذا الاسم عـند الفلاحين وهم يستعملون أيضا فعلها فيقولون عتل ويعتل وعتل بالتشديد .

العضة

الكذب والسحر ، وهم يقـولونه للرجـل الشرير الذي لا يطاق .

العيـالات

كـأنه جمع عيال وهم يطلقونه على النساء خاصة وقد جاء في كـلام عمر رضى الله عنه كـذلك ،

الغـرارة

قال في المختار : «والغرارة بالـكسر واحدة غـرائر التبن واظنه معربا» يعني العدل من الخيش والشعر ونحوهما . وهي فى كلامهم ايضا بمعناها هذا ومن أمثالهم «كسبت الفارة غرارة» يقولونه لمن يباهي بالشيء التافه الذي لا قيمة له .

الغـضـار

صحن الاكل يكون من الخزف وغيره وصانعه هوالغضار يقع ذكره كـثيرا في الـكـتب، وجرى اصطلاح الـكـتاب اليوم

على استعمال الطبق في موضعه فيقولون اطباق الطعام . ونحن نستعمله ولكن بإبدال ضاده طاء ، وفي العامية المغربية كثير من أمثلة هذا الابدال ومنها البيضة فإنهم يقولونها في الناحية الجبلية بالطاء .

ففقف

أرعد من شدة البرد حتى أنه ليسمع له صوت وهو كذلك في كلامنا ، وينشد عليه قول عمر بن أبي ربيعة في امرأة :

ما اكتحلت مقلة برؤيتها فمسها الدهر بعدها رمد
نعم شعار الفتى اذا برد الليل سحيرا وقفقف الصرد

الكباب

قال في القاموس : « والكباب بالفتح اللحم المشرح ، والتكبيب عمله» وفي الاساس: «وكبب اللحم من الكباب وهو اللحم يكب على الجمر يلقى عليه» والكباب عندنا هو اللحم الفتي يقطع قطعا مع قليل من الشحم ويضاف اليه بعض المصلحات ثم يسلك في قضبان الحديد الدقيقة ويشوى على النار وهو من معنى ما قالوا فيه ان لم يكن تفسيرا له ، وفعله لا يستعمل عندنا وانما يستعمل معه فعل سلك لان قطع اللحم والشحم تنتظم في القضيب انتظام الجواهر فى السلك . نعم يستعمل عندنا فعل كبب فى الخيط يلف على المغزل ونحوه، ويظهر من

قول الزمخشري يكب على الجمر وتفسيره له بيلقى عليه أنهم لم يكونوا يشوونه في قضيب بل يلقونه في النار إلقاء . وعلى كل حال فالكباب اسما ومعنى من المعروف جدا لدى المغاربة وهو من أشهى الاكل عندهم . وكذلك هو عند الادباء احد كافات الشتاء السبعة المعروفة ويذكره الاديب الزموري في منظومته الطريفة فى الشاي فيقول :

وشربه على الشوا والكباب يفتح للصحة منه ألف باب

الموق

مجرى الدمع من العين ، وهو كذلك فى كلامنا . الا أنهم ينطقونه بدون واو وبعضهم يبدل قافه كافا .

الميدة

بفتح الميم وسكون اليا لغة فى المائدة ، وهي كذلك فى كلامنا لايكاد احد يستعمل غيرها . وأنشد الجرمى فى هذه اللغة :

وميدة كثيرة الالوان تصنع للاخوان والجيران

المضربة

من الفراش ثوب يحشى بالصوف أو الليف أو التبن فيجلس عليه وينام وقد ورد ذكرها فى كتاب الكنايات للثعالبى وفى غيره ولكن استعمالها فى قلم الكتاب قليل .

وهى شائعة عندنا على الالسنة وفى عقود الموثقين ، ويجمعونها على مضربات ومضارب . وربما ابدلوا ضادها طاء على المعهود فى لهجات بعض النواحي .

وهناك نوع من المضربات يدعونه مثلثة ولافرق بينه وبين المضربة الا انه مما لايكون على السرير كالمضربة لان شكله لايكون الا مستطيلا. فالمثلثات توضع على الارض فقط والمضربات توضع على الارض وعلى السرير معا لانها تكون مستطيلة وعريضة وهذه لابد ان يقال فيها مضربة سرير . ولعل لفظ مثلثة أحرى ان يعد فى النوع الثانى من هذه الكلمات . وان كنا لاندري لماذا دعوها مثلثة مع العلم بأنها ليست بحجم المثلث من الاشكال الهندسية قطعا . ولعلهم اعتبروا فى هذه التسمية عرضها الذى يكون فى الغالب ثلاثة أشبار او طولها الذى يكون فى الغالب أيضا ثلاثة أذرع . . اما الاعتبار الاول فلمقابلتها بمضربة السرير التى تكون عريضة وأما الاعتبار الثانى فلمقابلتها ايضا بمضربة صدر البيت التى تكون طويلة بقدر طول البيت ويجوز ان تكون سميت بذلك لانها بوضعها بجنب مضربة الصدر تكون معها مثلثا . فهى اذا مثلثه بكسر اللام ومن هنا يعلم ان المثلثات لا تكون الا فى جوانب البيت ولذلك يقولون في مضربة الصدر صدارية نسبة الى الصدارة كما يقولون فيها ايضا الصدارى والصدر الا انهم ينطقون صادها سينا، والتغييرات

التي تطرأ على الالفاظ بعد تداولها بالالسن المختلفة النطق كثيرة .

نقز

نقز الظبي وثب ، ونقزت الصبي أمه بالتشديد رقصته . ونحن نستعمل المشدد في التعدي واللزوم كليهما . نعم بما أننا في النطق ننحو بالنون نحو السكون فقد يكون اللازم في لفظنا مأخوذا من مادة قز وانقز بمعنى وثب ايضا. قال الشاعر:

كان أصوات القطا المنقص ... بالليل أصوات الحصى المنقز

والشعر من شواهد الاكفاء في العروض ، وإذا صح هذا التقدير فإن هذا اللفظ يكون من أغرب الغريب الواقع في كلامنا .

ناض

هذا الفعل كثير الدوران على السنتهم بتصاريفه الثلاثة ناض وينوض ونض ، يستعملونه بمعنى قام وتحرك من غير استغناء به عن فعل القيام وهو من الغريب الذي لا يستعمل في الكتابة حتى كنت اظنه مختزلا في لفظهم من نهض ولكنه منصوص في كتب اللغة وبالمعنى الذي يستعملونه فيه.



ولعل فيما ذكرناه من كلمات النوع الاول كفاية فلنذكر

بعض الكلمات ايضا من النوع الثانى .

الافريد

هـو اسم اخذوه من الفردية واطلقوه على الشخص الذي يكون تام المعرفة بأحوال الزمان وأساليب الحياة ، حولا قلبا ، ينال من الناس ولا ينالون منه ، فهو شبيه بشخصـية ابي زيد السروجي الذى اخترعه الحريري وجعله بطل مقاماته . الا ان الافريد يخالفه في الشحاذة واتخـاذها حرفة لـه كما كان ذلـك شأن أبي زيد فهي نقص في حقه وربما كانت لاتجامع افريديته عند طبقة خاصة من الناس ، وعلى كل حـال فإن هـذا اللفظ يدور كثيرا على السنة الادباء في المغرب وعلى ألسنة العـلية من رجال الدولة يوصفون به ويصفون . واذا وصفوا به شخصا فان ذلك دليل على استكمـاله لادوات النجـاح فى معـركة الحياة . ولا ندرى من استعمـله أولا ولا مـتى شاع استعمالـه وان كان بعضهم ألف فيه تأليفا على طريقة الكتب التعليمية المعروفة وعرف الافريد وذكر قوانين الافريدية مما جعل ذلك الكتاب طرفة فنية يتهاداها ادباء المغرب ، ولعلنا نفرده بكلمة خاصة ان شاء الله .

البوجادي

هو ضد الافريد في المعنى تماما ، لانه لفظ منسوب فيما

يظهر الى ابجد الذي هو أول الكلمات الجامعة لحروف الهجاء والتي تستعمل في حساب الجمل . وزيادة الواو فيه لتوهم انه مركب من أبي وجاد ، وكذلك استعمله الامام الشاطبي رحمه الله في قصيدته المشهورة في علم القراءات حيث قال :

جعلت أباجاد على كل قارىء دليلا على المنظوم أول أولا

وعلى كل حال فالمراد بالبوجادي الشخص القليل الفهم والتعليم كأنه لا يزال في مرحلة تعلم الحروف الهجائية ولذلك فهم لا يريدون به الزراية على الشخص بل ربما قصدوا الى الاعتذار به عن قصوره وعدم فهمه .

البراكة

بيت من خشب يتخذ في الفضاء فهو يخالف الطارمة في كونها لاتكون الا داخل البيوت المبنية . والبراكة تكون كبيرة وصغيرة ، وتتخذ لخزن ادوات البناء وغيرها في الارض البراح التي يراد احداث بناية فيها ، وتتخذ دكانا لبيع الجرائد والدخان ونحو ذلك في محطات القطر ، وعلى قارعة الطريق مما يسمى عند الشرقيين بالكشك وتتخذ ايضا بشاطىء البحر لتبديل اللباس عند ارادة السباحة وهكذا . كل ذلك تستعمل فيه لفظة البراكة . ولا ندرى مم هى مأخوذة ولعلهم أخذوها من البروك بمعنى الجلوس والاقامة ورأيت استاذا في معهد ما

ما صحح انشاء لبعض التلاميذ وقد كتب التلميذ : وعليكم السلام والرحمة والبراكة بالالف بعد الراء فكان فى تصحيح الاستاذ لو شددت الراء لكانت تحية مباركة ! والبراكة مذكورة بهذا المعنى فى نفح الطيب للمقري، وجاءت فى مقال لاحد الكتاب اللبنانيين بمجلة الاداب ، والاسبان يستعملونها ايضا بالمعنى المذكور فهل هى مما نقلوه عن العربية ؟

التصبين

اشتقوه من الصابون ، وقالوا أيضا صبن ثيابه ، ويطلقونه على نفس الثياب المصبنة بالصابون، فيقولون نشرت التصبين فى الشمس لتجفيفه ، وأعطيت التصبين للصبان او الصبانة وهكذا . ومن الاسماء المستعملة اخيرا : مصبنة كذا يسمون به محل التصبين الالى .

وفى الشرق يستعملون الغسل ، والغسيل عندهم الثياب المغسولة ولا شك ان الغسل لايلزم ان يكون بالصابون فلفظتنا ادق . ونحن لا نكاد نستعمل الغسل الا فى البدن والاشياء الاخرى التى تغسل بالماء فقط ، فان استحم الانسان واستعمل الصابون فإنه يقول غسلت بالصابون .

تمنجل

فعل يظهر لى أنهم اشتقوه من المنجل للتعبير عن حالة

خاصة من التقلب والاضطراب وهي ما إذا كان الانسان يتكلم بكلام بين الجد والهزل في أمور الجد فيقال له انت تتمنجل اي تتلوى كتلوي المنجل .

التنبيل

هو خياطة الثوب أولا خياطة موقتة ريثما يوخذ قياسه ويتم تصميم خياطته النهائية بحيث تكون تلك الخياطة سهلة النقض والنكث اذا لم يوافق القياس المطلوب ، ويستعملون منه فعل نبل ايضا ولعل اصل هذا الاستعمال انهم يستخدمون في تلك الخياطة الاولية ابرا كبيرة شبيهة بالنبال حتى يكون ما بين الغرزة والغرزة واسعا والخيط ممتدا فلا يصعب سله بعد.

الجنوي

يطلقونها على نوع من السكاكين لا شك انه كان يستورد من جنوة، وقد كانت بينها وبين المغرب علاقات تجارية في أوقات مختلفة، ولاسيما في أيام الدولة السعدية، فهو شبيه بالمكناسية التي هي شفرة أيضا منسوبة إلى مكناس المدينة أو مكناسة القبيلة . وعلى كل حال فالمقصود بذكر هذا اللفظ هو التنبيه على أن بعض الالفاظ يحمل تاريخه أو مصدره في اسمه وذلك معروف في العربية الفصحى ففيها الهندي والمشرفي لنوعين من السيوف وغيرهما .

المخدة

وساده صغيرة نسبت الى الخد لوضعه عليه حين النوم ويقولون أيضا المخدة وهذه منصوصة ولا شك ان الاسبان نقلوها عن هذا اللفظ الاخير لانهم يقولون : Almohada .

الخلالة

لما يسمى عند الشرقيين بالدبوس، وهو شبر الابرة الا أنه مدبب الرأس . وهم شبهوه بالدبوس الذي يضرب به ، ونحن اخذناه من ماده التخليل ، لانه تخلل به الثياب والاوراق وغير ذلك . ويذكرون أن أعرابية سرقت ازارا كان منشورا بسطح بيت جيرانها ولبسته ، فافتقده اصحابها فوجدوها لابسة له ، فأنكرت ان تكون سرقته وجعلت تقول : من خلله علي يامولاي عبد القادر ؟ والاعراب يعتقدون كثيرا في الشيخ عبد القادر الجيلاني فهي باستغاثتها هذه توهم انها البسته في عالم الغيب ؛ والشاهد في التخليل .

السلهام

هو البرنس ويكون من خشن الثياب الصوفية ومن رقيقها مختلف الالوان والاشكال . ولا أدري اشتقاقه من أي مادة ، والغالب أنه بربري كالبرنس نفسه . ويقولون

ثلاثة من إختراع المغاربة ولو رآها ارسطو لحكم بعبقريتهم : البرنس ، والكسكس ، وموسى الحلاقة . ومن الشعر المقول في السلهام لابن سوسن المغربي :

وبدر لاح من تحت السلاهم   يقول لكل قلب قد سلاهم
لئن خشنت ملابسه عليه   لقد خشنت على البدر الكمائم

ولئن دل هذا الشعر على خشونة هذه السلاهم التي كان هذا البدر لابسا لها، فلقد دل على رقة طبع هذا الشاعر، وشعره هذا مما يعرف انه لشاعر مغربي بسبب هذا اللفظ الموجود فيه وعلى كل حال فالسلهام من اللباس المغربي الجميل ولا سيما ابيضه المتخذ من الثياب النفيسة وقد صارت بعض السيدات الفرنسيات المتأذقات تلبسنه في محل السترة اعجابا به .

المردية

لفظ يستعملونه بمعنى التخنث والعبث في حق الرجال منسوب الى المرد جمع أمرد وهو الغلام الذى لم يلتح بعد وهو يوردونه مورد الذم ولذلك يصح ان يعمل منه سجعة في الموضوع فيقال (المردية مردية) فاللفظ الاول هو ما نحن فيه والثاني اسم فاعل من الردى بمعنى الهلاك .

المشور

اسم للبلاط الملكي ولمقر الحكومة مأخوذ من المشورة لان

الناس ينتظرون فيه صدور الاذن لهم بالمقابلة بعد المشاورة ولذلك يقول الشخص للمكلف: شاور في شأني، فهو اسم مكان على القياس المعروف . ويقع كثيرا في كلام الكتاب المغاربة من الادباء والمؤرخين ، وجاء فى قطعة لابن بطوطة نقلها من رحلته مؤلفو كتاب المطالعة المختارة (ج 4 ص 172) فكتبوا عليه تعليقا هذه الجملة : « كلمة لم نعثر عليها فى كتب اللغة ويظهر ان معناها الحجرة الكبيرة او الايوان» وهؤلاء اربعة من كبار رجال العلم في مصر وفيهم واحد كان عضوا فى المجمع اللغوي هو المرحوم الاستاذ علي الجارم توقفوا فى هذه اللفظة وذلك مما يؤكد ضرورة الحاقها ونظائرها بالمعاجم الجديدة مع التنبيه على أصلها بالطبع .

الكسكاس

آلة تبخير الكسكس ، وهي صحن مثقب من أسفله يجعل على الطنجرة التي يطبخ فيها اللحم والخضرة مما يهيأ به الكسكس ويوضع فيها الكسكس بعد ذلك فينضج بالبخار ، ولذلك يعبر عن نضجه بالتبخر. وقد يبخر فيها اللحم فيسمى شواء وهو غير المشوى على السفود وفي الفرن.. وعلى كل حال فان هذه القطعة من ماعون البيت جد ضرورية، وكما ان الكسكس هو طعام مغربى اسما وعينا فان آلته هذه كذلك ،

الـكـومـيـة

لنوع من الخناجر ذات الاغماد الفضيـة المنقوشة الجميلة يتقلد بها رجال الحكومة . ولعـل نسبتها لكومية. القبيلـة التى منها عبد المومن بن علي مؤسس دولة الموحدين، فهـي تحمـل تاريخها فى اسمها . ولـكن جريـان الالسنة على نطقهـا بالكاف العـادية دون الكاف المعقودة كمـا هى في اسـم تلك القبيلة يجعلنا نفترض انهـا ربما كانت منسوبة الى الكم فهى كمية لا كومية . ودليل ذلك انهم يجعلونها تحت كمهم منحرفين بها قليلا الى الصدر. وعليه فمن ينطقها كومية يكون ابدل سكون الشدة بواو نتيجة لاشباع الضمة .

الـوقـيـد

اسم لما يسمونه بالثقاب واعواد الكبريت ونظن ان هـذا الاسم اولى من غيره لانه فعيـل بمعنى مفعول، فهو من حيـث الاشتقاق لا غبار عليه . ويقولون للواحدة منه وقيدة .

* * *

ونكتفى من هـذا النـوع بما ذكرناه، ولو تتبعنـا جميـع الالفاظ التى من هذا القبيل والنوع الذي قبله لطال بنا الكلام، ونحن انما قصدنـا ان نمهد سبيـل هذا البحـث لمن يـريد ان يتوسع فيه بنفس اطول ونظر اعمق وكـل من يفعل ذلك لا بد

ان يخرج منه بالنتيجة التى قدمناها ، وهى اشتمال العامية المغربية على ثروة لفظية هائلة من فصيح الكلام المسموع والموضوع. ولا يخفى ما فى ذلك من اثبات قرب نسبها من العربية الفصحى مادة وشكلا وانه باستطاعة هذا الشعب المغربى ان يعمل على احلال الفصحى محل العامية فيجعلها لغة تخاطب كما هى لغة كتابة وذلك ما تطمح اليه جميع الشعوب العربية التى ليس هو منها ببدع في شيء.

هذا ولا بد من القول ان بعض هذه الكلمات سواء من النوع الاول او الثاني انما يستعمل في بعض النواحي من المغرب او المدن دون بعض، وفي لسان بعض السكان كالاعراب دون الجبليين والعكس ، فاذا لم يعرف القاريء المغربي احد هذه الالفاظ فلانه مما لا يستعمل في جهته ، كما اننا لا نعرف ما يستعمل منها في البلاد العربية الاخرى - غير المغرب - وما لا على التحقيق ، الا ما جزمنا به من الوقوف على كلامهم فيه، والباقي على الظن القوي ووجوده فيها لايزيد رابطة العروبة بين أقطارها وبنيها الا متانة وقوة .

من تاريخ الفدائية في الاسلام*

كثر الكلام في هذه الايام عن الفدائيين واعمالهم وحركة الفدائية وموقف الاسلام منها ؛ وما نريد ان نرضى فضول الفضوليين فنفيض في الحديث عن هذه الحركة من حيث يريدون ، او نتشبه بالقعدة : فنقعد بمنجى من الخطر ، نملي آراءنا في قوم باعوا أنفسهم بيع السماح، في سبيل مبدإ شريف آمنوا به ولم يصدهم عنه وعد ولا وعيد. وانما نريد ان نستعرض من التاريخ الاسلامي بعض مواقف القوم، الشبيهة بمواقف اليوم مستوحين منها العبرة فى انتصار الحق وان قل انصاره ، وانهزام قوات الشر التي تناصر الباطل ، وان بلغت ما بلغت من العدة والعدد .

ولعل اول فدائى في الاسلام هو علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، فكلنا يعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم خلفه لينام في فراشه ليلة الهجرة ، تضليلا للمشركين الذين اجمعوا امرهم على قتل النبي فكانوا ينظرون من خصاص البيت

* نشر هذا المقال بمجلة الانوار ، مطلع سنة 1954 وكانت اعمال الفداء حينئذ على أشدها .

فيرونه مسجى على الفراش، فيطمئنون على وجوده هناك. حتى نهض في الصباح ورأوا انه علي فسقط في ايديهم. وسألوه: اين ذهب؟ فقال: لا ادري؛ ومما لا شك فيه انه رضي الله عنه عرض نفسه في تلك الليلة لخطر محقق، فداء للنبي صلى الله عليه وسلم، اذ كان من الجائز ان يكبسوا البيت ويقتالوا النائم على الفراش، بل كان ذلك متوقعا في كل لحظة، ولكن الله عز وجل حماه وهو نائم تحت مضارب سيوفهم كما حمى نبيه وهو بمرأى منهم ومسمع في الغار.

ومن اعمال الفدائية التي وقعت على عهده صلى الله عليه وسلم قتل كعب بن الاشرف اليهودي وكان يؤذي النبى والمسلمين بهجائه لهم وبتحريض قريش عليهم فقال النبي (ص): من لكعب بن الاشرف فانه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد ابن مسلمة الانصاري فقال: يا رسول الله اتحب ان اقتله؟ قال: نعم! قال: فاذن لي ان اقول شيئاً (يعنى مما يتقرب به الى كعب وان كان بحسب الظاهر طعنا في الاسلام) قال النبي: قل ما بدا لك، فاتاه محمد بن مسلمة هو ونفر من الانصار فيهم ابو نائلة اخو كعب من الرضاع فقال: يا كعب ان هذا الرجل (يعني النبي ص) قد سألنا صدقة وانه قد عنانا. واني قدأتيتك استسلفك. قال كعب وايضا والله لتملنه؛ قال محمد بن مسلمة انا قد اتبعناه فلا نحب ان ندعه حتى ننظر الى اي شيء يصير

شأنه . وقد أردنا ان تسلفنا وسقا أو وسقين من تمر . قال كعب : نعم ارهنونني ! فقالوا أي شيء تريد ؟ قال: ارهنوني نساءكم ! قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنوني أبناءكم ! قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال : رهن بوسق او وسقين ، هذا عار علينا . نرهنك السلاح. فقبل ! وواعده محمد بن مسلمة فجاءه ليلا هو وأصحابه فدعوه وهو في حصنه فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال : انما هو محمد بن مسلمة وأخى أبو نائلة . وقال ابن مسلمة لاصحابه: اذا ما جاء فإني آخذ بشعره اشمه، فإذا رأيتموني استمكنت منه فدونكم فاضربوه فنزل اليهم وهو ينفح منه ريح الطيب فقال ابن مسلمة ، ما رأيت كاليوم ريحا اطيب! قال كعب عندي أعطر نساء العرب . قال : اتأذن لى أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه ثم أشم أصحابه وذهب يفعل ثانية فأخذ برأسه ، وقال : دونكم فضربوه بأسيافهم فقتلوه !

وأغرب من هذه الواقعة وأشد تمثيلا لاعمال الفدائية. قصة قتل رافع بن أبى الحقيق اليهودي أيضا وكان صاحب حصن بأرض الحجاز وكان يؤذي الرسول (ص) ويعين عليه ، فبعث اليه النبي رجالا من الانصار وجعل عليهم عبد الله بن عتيك . فانطلقوا حتى دنوا من الحصن ، فقال لهم عبد الله امكثوا

انتم حتى انطلق انا فانظر . قال ، فتلطفت ان ادخل الحصن ففقدوا حمارا لهم ، فخرجوا بقبس يطلبونه ، قال ، فخشيت أن اعرف ، فغطيت رأسى ورجلى كأنى أقضي حاجة ، ثم نادى صاحب الباب ، من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت ثم اختبأت فى مربط حمار عند باب الحصن ، فتعشوا عند أبى رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل ثم رجعوا الى بيوتهم ، فلما هدأت الاصوات ولا أسمع حركة خرجت ، قال ؛ ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن فى كوة فاخذته ففتحت به باب الحصن، قلت ان نذر بى القوم انطلقت على مهل ، ثم عمدت الى ابواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهر ثم صعدت الى ابى رافع فى سلم فاذا البيت مظلم قد طفىء سراجه ، فلم أدر اين الرجل ، فقلت يا أبا رافع ! قال من هذا؟ قال فعمدت نحو الصوت فاضربه بالسيف، وصاح فلم تغن الضربة شيئا . قال : ثم جئت كأنى أغيثه فقلت مالك يا أبا رافع ؟ وغيرت صوتى . فقال : الا اعجبك ؟ لأمك الويل ، دخل على رجل فضربنى بالسيف ، قال ، فعمدت له ايضا فاضربه اخرى فلم تغن شيئا فصاح وقام اهله فجعلت ارفع السيف عليها ثم اذكر نهى النبى (ص) عن قتل النساء فاكف عنها ، قال . ثم ضربته فقتلته وخرجت دهشا حتى اتيت السلم اريد ان انزل فأسقط منه ، فانخلعت رجلي فعصبتها، ثم اتيت اصحابي احجل

فقلت انطلقوا فبشروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني لا ابرح حتى اسمع الناعية ، فلما كان في وجه الصبح ، صعد الناعية فقال : انعي ابارافع تاجر اهل الحجاز قال، فقمت امشي ما بي علة ، فأدركت اصحابي قبل ان ياتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشرته .

***

فهذا فدائي صميم ، دبر خطة ونفذها من غير ان يحتاج الى معونة من أصحابه ، وكان ثبت الجنان حاضر البديهة ، بحيث لاتعييه الحيل ولايثنيه الدهش عن إنفاذ ما مضى له ، وبه وبأمثاله انتصرت الدعوة الاسلامية على مناوئيها مع كثرتهم وقوتهم ، وقلة أنصارها وضعفهم ،

ويكفي ما ذكرناه من الوقائع لنعلم أن للفدائية أصلا في الاسلام وانها قديمة الصلة به ، ظهرت بظهوره واقترن تاريخها بتاريخه ثم نذكر قصة من أغرب ما يسمع في بطولة الفدائيين وتضحيتهم وهي مما وقع في هذا المغرب العربى خلال القرن السادس ، وقت ان اشتدت وطأة الصليبيين على بلاد الاسلام فى المغرب والمشرق، وبدأت موجة الاكتساح الاوربي ترتمي على الشواطيء المشرقية والمغربية ، وكان ممن انبسط سلطانه في تلك الاثناء هؤلاءالملوك النورمانديون الذين

انتزعوا جزيرة صقلية من يد المسلمين وامتدت سلطتهم الى بعض بلاد ايطاليا وافريقية ولا سيما فى مدة عميدهم وداهيتهم «رجار الثانى» الذي كان يوصف بالدهاء السياسي والتسامح الديني ولما توفى خلفه في ملكه ابنه غليوم (كيوم) وكان سيء السيرة فاسد التدبير فخرج عليه عدة حصون ومدن من صقلية وافريقية وغيرهما وكان اول من أظهر الخلاف عليه عمر بن الحسين الفريانى صاحب مدينة صفاقس بالشاطىء التونسى ؛ وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها اباه ابا الحسن ، وكان - فيما يحدثنا ابن الاثير - من العلماء الصالحين، فأظهر العجز والضعف وقال : استعمل ولدي فاستعمله ، وأخذ أباه رهينة الى صقلية . قال ابن الاثير : فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر اني كبير السن وقد قاربت أجلى ، فمتى امكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولاتراقبهم ولاتنظر في أنني أقتل وأحسب انني قد مت فلما وجد ابنه الفرصة ، دعا أهل المدينة الى الخلاف وقال تطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج ويقتلونهم ، فقالوا له : ان سيدنا الشيخ والدك يخاف عليه ، فقال : هو أمرني بهذا، واذا قتل بالشيخ ألوف من الاعداء فما مات ، فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك أول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

ولم يسمع بقية الولاة بحركة عمر الفرياني حتى اتبعوه فثار ابو يحيى بن مطروح بطرابلس ثم محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن بن علي - وكان اول ما بدأ امره بأفريقية - الى بونة فملكها وخرج جميع افريقية عن ملك الفرنج ما عدا المهدية وسوسة ، وارسل عمر المذكور الى أهل زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدية ميلان يحرضهم على الوثوب بمن عندهم من الفرنج ففعلوا وحاصروا المهدية ، وقطعوا عنها الميرة فاتصل الخبر بغليوم فأحضر أبا الحسن وعرفه ما عمل ابنه عمر وأمره أن يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويامره بالعود الى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال ابو الحسن من أقدم علي، هذا لا يرجع بكتاب ! فارسل غليوم الي عمر رسولا يتهدده ويأمره بترك ماارتكب،فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك ، ولما كان من الغد خرج اهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا . فارسل عمر الى الرسول يقول له، هذا ابى قد دفنته. وقد جلست للعزاء فاصنعوا به ما اردتم . فعاد الرسول الى غليوم فأخبره بما صنع عمر فاخذ أباه وصلبه ، فلم يزل يذكر الله حتى مات .

هذه قصة من أغرب مايسمع كما قلنا في بطولة الفدائيين وتضحيتهم من أجل تحريرالوطن والانتقام منالدخلاء المسيطرين

وغرابتهـا انما جـاءت من كون الفدائى فيهـا وكبش التضحية أميرا والد أمير، وفي سن متقدمة من عمره ، فلا الامارة اغوته ولا الســن ثبطته، واذا كـان لـكل قـاعدة شذوذ ، فـلا شك ان حال هـذا الامـير الشهيد هو الشذوذ الذي يرد على قاعدة؛ اذا شاب ابن آدم شبت فيه خصلتان ، الحرص وطول الامل .

فلله در المغرب . هذه الارض المنجاب المخصاب ، ما أغناه بالبطولة واثراه بالرجولة . .

حول وقعة وادي المخازن*

I

أظن أنه ليس هناك ناحية من نواحي العمل الادبي والخدمة الاجتماعية والاقتصاد والفن لم نولها حظا كبيرا من الاهمال لا نظير له في أمة من الامم قديمة كانت او حديثة وقد نسج العنكبوت خيوطه عندنا على كل باب من أبواب النشاط الفردي والجماعي للامة ، فلا ترى الا غبارا متراكما على كل مرفق من مرافق الحياة لشعب يريد أن يجاري الشعوب الراقية في جميع الشؤون .

وباستثناء العمل السياسي الذي يضطلع به نفر من المجاهدين الابرار داخل البلاد وخارجها، فإننا أصبحنا نمثل مدينة الاموات بحيث تركنا الميدان فارغا لكل صادر ووارد فلا تسمع لنا نأمة ولانتظاهر بمظهر يدل على أن رمقا يجري في عروقنا فتؤمل لنا الحياة من جديد .

ولقد كنت ارى اننا في الميدان الثقافي نكاد نكون عالة على التاريخ . اي اننا نعيش فى الماضى اكثر من الحاضر؛ فكتابنا وشعراؤنا ومؤلفونا لا يزيدون على ان يجتروا ماقرأوه

---

* نشر هذا المقال في غشت 1952 بمجلة الانوار .

ولم يهضموه من نصوص ادبية وابحاث علمية وتاريخية ، وكنت أقول أنه لابد في مستهل نهضة الامة من النقل والحكاية والاقتباس حتى إذا تفلتحت العقول وتلقحت الافكار سالت الاقلام وجادت القرائح بالطريف والجديد، ولكنني صرت أعتقد الآن أننا لسنا بسبيل من التاريخ ولا من الواقع ، واننا نمر بآيات مجدنا ونحن عنها معرضون . وننغض رؤوسنا لكل داعية يدعونا إلى ما فيه نجاحنا كأننا بالبعث مكذبون .

ولا أذهب بعيدا بالقارئ الكريم ، فهذه وقعة وادي المخازن الشهيرة التي كانت من الوقائع الفاصلة في تاريخنا القومي والتي قضت على سياسة التدخل الاجنبي قضاء مبرما ، فلم ترفع رأسا بعدها مدى قرون ، هذه الوقعة لانرى اهتماما بها في حياتنا الاجتماعية ولا نسمع لها صدى في انتاجنا الادبي كأنها حادث عادي يتكرر وقوعه كل يوم ولا يلفت نظر أحد من الناس ، مع أن الحوادث العادية قد تكون موضع اهتمام وتعليق من ذوي النظر الصائب والفكر الخالق! فكيف بحادث هام لم يشتمل التاريخ المغربي المجيد على عدد أصابع اليد الواحدة من نظائره .

وبينما نحن ازاءها على هذه الحال، نرى وفود البرتغاليين كل عام تحج الى موقعها بالعشرات بل المآت . ما بين شيب وشباب . ومدنيين وعسكريين ؛ ورجال دين يقيمون الصلوات

ويرفعون الانصاب . ويخطون ويصورون ، ويضعون الدراسات ويستخلصون العبر ، شأن الامم الحية التى تعنى بماضيها كما تعنى بحاضرها وتستفيد من نكباتها وعثراتها كما تستفيد من فتوحاتها وانتصاراتها .

وكأنى بمتمشدق يقول انهم اذا اهتموا بها هذا الاهتمام وحجوا لموقعها كل عام فقد كانت وبالا عليهم وسببا لادبار دولتهم. اما نحن فقد انتصرنا فيها انتصارا عظيما وطهرنا بلادنا من رجسهم ولا يستوي شعورنا نحوها بشعورهم، وهذا الجواب على ما يقتضيه من اهمال لمواطن الفخار فى تاريخنا القومى يلزمنا بالرجوع مثلهم الى تذكر أيامنا السود ومعاركنا المخسورة كوقعة «إيسلي» التى كانت فضيحة للجيش المغربي فنعكف على دراستها . واستخراج المثلات من حوادثها ولكنا لانفعل شيئا من ذلك ولا نتذكر ربحا ولا خسارة. وانما نقول لم فاتنا هؤلاء ، ولم تأخرنا وتقدم أولئك ؟ ونكتفي بهذا التساؤل ولا نهتم حتى بالجواب عنه !

على أننا نهمل هذه الواجبات وهي على طرف الثمام منا في بلادنا ويأتي البرتغاليون للطواف بحرم وادي المخازن من بلادهم في العدوة الاخرى ، فلا نكون مساوين لهم . ولو قمنا بهذه الواجبات حتى نرحل بدورنا أيضا الى الاندلس ونقف على مواقع الزلاقة والارك والعقاب ونتقصى عن هذه الوقعات

تقصيهم ، ونتقفي آثارها تقفيهم وهيهات هيهات !

راجعت الآثار الادبية فلم ار فيها ذكرا لهذه الواقعة الا ما كان من قبيل الاشارة الخفيفة في شعر عبد العزيز الفشتالي وهو شاعر المنصور الذهبى الذي جلس على عرش المغرب فى نفس يوم النصر وذلك حين يقول في مدح سلطانه :

عمادي الذي اوطا السما كين اخمصي
وأوفى على السبع الطباق فأدناني
متوج أملاك الزمان وإن سطا
أحل سيوفا فى معاقد تيجان
وقاري اسود الغاب بالصيد مثلها
إذا اضطرب الخطى من فوق جدران
هزير إذا زار البلاد زئيره
تضاءل فى آجامها أسد خفان
وإن أطلعت غيم القتام جيوشه
وأرزم في مركومه رعد نيران
صببن على أرض العداة صواعقا
أسلن عليهم بحر خسف ورجفان
كتائب لو يعلون رضوى لصدعت
صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان

عديد الحصا من كل أروع معلم

وكل كمي بالرديني طعان

اذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا

هدتهم الى أوداجها شهب خرصان

من اللاء جرعن العدا غصص الردى

وعفرن في وجه الثرى وجه (بستان)

وفتحن اقطار البلاد فأصبحت

تؤدي الخراج الجزل املاك سودان

وهو يعنى ببستان «سبستيان» ملك البرتغال . فهذه هي الاشارة الوحيدة التى وقعت فى الشعر المغربى قديمه ومحدثه فيما نعرف الى هذه الوقعة المعلمة ، واللحن الموسيقي الذي ما أن بدأ ينسكب في آذاننا فنصغى له حتى انقطع فجأة وانقطع معه ذكر الوقعة بتاتا فى الآثار الادبية الفنية التى ما زالت من قبيل المحاولات عندنا .

ولا شك أن كل ما منيت به هنا من اهمال قد عوض فى الضفة الاخرى عند البرتغال ، وان كانوا هم المهزومين ، بما يجب من ترديد لذكرها فى شعرهم ونثرهم وبحث طويل عريض فى اسبابها ونتائجها وتخطيط لموقعها وتصوير لوقائعها مما به يظهر الفرق بين الامم التى تريد ان تحيا والتى تتمنى الحياة.

وعلي ذكر سبستيان فإني لاحظت في تواريخنا المتداولة انها اهملت حادثا مهما مما يتعلق به . وهو نقل رفاته بإذن من المنصور لدفنه ببلاده مع آبائه وأجداده وكان ذلك بعد قدوم وفد من البرتغال على المنصور وتقديم طلب بهذا الصدد اليه وكان هذا الوفد اول الوفود المتلاحقة بعد ذلك، التي تقدم الى بلادنا لغرض يتعلق بمعركة وادي المخازن ، وها هي لاتزال تتلاحق لهذا الغرض الى الآن .

والذي ذكر هذا الوفد هو الفشتالي في تاريخه « مناهل الصفا» والعجب من اليفرني الذي لم يذكره ، وهو لا يرد في الغالب الا من المناهل وأما صاحب الاستقصا فأكثر اعتماده على اليفرني . فلذلك لم يذكره هو بدوره . ولكن أحد نقوله عن (منويل) تضمن الخبر المتعلق بذلك فلعله اكتفى به .

وهاك ما قاله الفشتالي في مناهله من مخطوطتنا الخاصة:

«وخرج (المنصور) في غرة شعبان من عام ستة وثمانين وتسعمائة لظهر الزاوية من ساحة فاس حتى استكمل اهبة السفر وفرغ مما عن له ، فوفد عليه بمعسكره رسل سلطان النصارى يرغبونه في الامتنان عليهم بشلو طاغية بستيان المواري بالقصر فتطارحوا عليه يرغبونه متضرعين ولعز الاسلام خاضعين فرأى أيده الله ما في اسلام الشلو لهم والذهاب به الى بلادهم

من مزيد الفخر للاسلام ، وتجدد الاحزان لعبدة الاصنام ، بمشاهدته ونغيظهم برؤيته ونكايتهم بالوقوف على فريسته ، فامتن لذلك به عليهم وبغير عوض اسلمه اليهم ، بعد ان كانوا لبذل الاموال العظيمة فيه مذعنين . فجعلوه في تابوت وحملوه وساروا به فرحين ، وبما من عليهم من اسلامه مغتبطين» .

ونص ما حكاه الناصري في الاستقصا عن منويل وهو مما يزيد اهتمام القوم الذي تحدثنا عنه بالواقعة وضوحا قال :

«وزعم (منويل) ان سبستيان هلك تحته في ذلك اليوم اربعة أفراس ، وكان شابا حدثا ، وقال لاصحابه ان تروني امامكم وان لم تروني فأنا في وسط العدو أقاتل عنكم ، قال وابدأ واعاد في ذلك اليوم الى ان خر قتيلا . وبقى مذكورا عند البرتغاليون يسمرون باخباره . وذكره شعراء الاوربا فى اشعارهم ولا زالوا يذكرونه الى الآن . وخلفه فى ملكه الطاغية انريكى البرتغالى فهو الذي ولي بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها الى سبتة فبقيت هنالك الى ان هلك الطاغية انريكي وتولى على البرتغال طاغية الاسبنيول فليب الثاني فصار ملك الدولتين معا . وهو خال سبستيان اخو امه فنقل جنازته من سبتة الى لشبونة» .

ففي هذا النقل مزيد تفصيل عن الحادثـة ـ على عـادة الاجانب في الاهتمام بالشاذة والفاذة . الا انه لا ذكر فيه للوفد وفيه مع ذلك درك على (منويل) لزعمه أن تسليم الرفات كان بالفداء اي بتعويض والذي ذكره الفشتالي انه كان بغير عوض امتنانا من المنصور عليهم مع استعدادهم لبذل الاموال العظيمة في ذلك ، والفشتالي أثبت في هذا الامر لمباشرته ومشاهدته وهمة المنصور وأصول الدبلوماسية تؤيد ذلك .

ويلاحظ أنه لم يكن بين وصول الوفد البرتغالي وتاريخ المعركة الا شهران فقط ، فإنها كانت منسلخ جمادى الاولى سنة 986 والوفد وصل غرة شعبان الموالي . وهذا مما يدل على مزيد الاهتمام أيضا وشدة العناية ، رزقنا الله شيئا منهما .

II

في يوم 4 غشت 1875 م وقعت معركة وادي المخازن الشهيرة بين الجيش البرتغالي والجيش المغربي الذي انتصر على عدوه انتصارا عظيما .

ويقال لها أيضا معركة الملوك الاربعة وهم ملك البرتغال وملك المغرب الذي استنصر به ، وقد سقطا في الميدان ، والملك عبد الملك المعتصم الذي دبر المعركة ومات أثناءها مريضا والملك أحمد المنصور الذي أعلن نتيجة المعركة وتولى يومها عند وفاة أخيه عبد الملك المعتصم ،

ومن الغريب أننا ـ كما قلنا في مقال سابق نشر بمجلة الانوار ـ لم نجد في الادب المغربي صدى لهذه الموقعة باستثناء ما أتى عرضا في قصيدة لعبد العزيز الفشتالي على حين أن الادب البرتغالي يزخر بترداد ذكرها وقد خرج أهلها منهزمين فكيف لو كانوا منتصرين .

وفى هذه الايام وقفنا على هذه القصيدة البليغة التى نظمها في الموضوع صديقنا الشيخ محمد الامام بن الشيخ ماء العينين فناسب ان نثبتها في هذا العدد من لسان الدين* الذي يسجل مرحلة حاسمة من مراحل الكفاح المغربي وهو ايضا عدد غشت الشهر الذي وقعت فيه تلك المعركة الحاسمة .

* هو العدد الصادر في غشت 1955

وها هي هذه :

خليلي مرا بي بوادي المخازن
نجدد شكرا بون تلك المواطن

مواطن كانت للجهاد مشاهدا
بهن مياه العز غير أواسن

به وقعة مازال يسري نسيمها
على بعد عصر وابتعاد الاماكن

بأيدي رجال شيدوا الدين وارتدوا
رداء من العلياء ضافي المحاسن

فلم تثنهم عن راحة العز راحة
ولا حسو كأس بين شاد وشادن

رجال من أبناء المغاربة الالى
هم الناس ان عدت كرام المعادن

فنشمخ آنفا ثم نطرق بعدها
حياء لفوت بيننا وتباين

اولاك حموا اقصى البلاد وانتم
مساكين محميون وسط المساكن

وما ذاك الا من نتيجة سعيكم
ونبذ لدين المصطفى والتهاون

الم يان للنوام ان يتيقظوا
وان يالموا من حر خدش البراثن

تظنون سورا من حديد امامكم
وما هو الا من ركام الدواخن

الاعرق للمجد المؤثل نابض
فينهض منا قاطن إثر ظاعن

نجدد رسم الدين بعد اندثاره
ونسمك من بنيانه المتطامن

فنرعى رياض العز من كل قارة
ونترك للبيقور مرعى الدواجن

فان انتم راجعتم نهج دينكم
اثرتم دفين العز من كل كامن

وأحرزتم من إرثكم كل غابر
وحركتم من مجدكم كل ساكن

وان انتم استحليتم الذل مرتعا
وآلفتم شرب المياه الاواجن

وقلتم مقال العجز في اليأس راحة
فتصليم آذان وجذع موارن

III

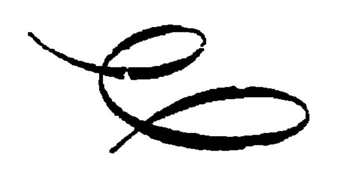
بعد كتابة ما تقدم ونشره بنحو سنة، وقفت عند الاخ الاستاذ محمد المختار السوسي على قصيدة في موضوع معركة وادي المخازن للشيخ داود بن عبد المنعم الدغوعي ، ممن عاش اواخر القرن العاشر وتوفي اول الحادي عشر . اي أنه عاصر الوقعة ، وربما كان ممن حضرها . وهذا ما تؤكده القصيدة التي وصف فيها المعركة وصف شاهد عيان . والغريب ان هذه القصيدة من وزن قصيدة الشيخ محمد الامام وقافيتها ، فمن الجائزان صديقنا أطلع على قصيدة الدغوعي ونسج على منوالها . والمهم هو أننا وجدنا صدى للموقعة الكبرى في الادب المغربي ، بخلاف ما كنا نظن من خلوه من ذكرها تماما ، وان كانت هذه الصبابة القليلة لاتروى غايلا، ولاتشفي عليلا ، وربما كان فى بطون الدفاتر وخبايا الخزائن ، آثار أخرى لم نطلع عليها ، وربما ضاع من ذلك أكثر مما بقى : وربما ... وربما ...

وعلى كل حال فهذه هى القصيدة الاولى التى عرفناها فى هذا الموضوع :

جنى النصر مابين الظبا والكنائن	على سابقات المذكيات الصوافن
فبين المعالي والمآثير في الوغى	يجول الذي يبغي اقتحام المدائن

هي السور من يجتزه حل بساحها | فحل له منها امتلاك الخزائن
ومن لم يخض بحرالحروب فلايرى | لحوزته دون العدا خير صائن
ومن لم يخضها بالثبات فرأيه | يفيل ويمسي حظه جد خائن
وماذا يفيد الجيش ان كان ربه | كسيبستيان عند وادي المخازن
يقود لها ما يحجب الشمس نقعه | مياسره لا تلتقي بميامن
أتى سادرا يختال في غلوائه | وفي صدره للدين غلي الضغائن
يسرب نحو المغربين جنوده | كمثل الدبا عن ماخرات السفائن
وما قصاه الا انتهاك حريمه | ودك صياصيه وبعث الدفائن
وقود أسارى المسلمين لارضه | يقدمهم للصلب مثل القرائن
ولهو بأبكار الخدور بناتنا | فيصبحن من خدامه والسوادن
فذا مكره ، والله يمكر مكره | به ، اذ حداه نحو تلك الاماكن
فخيم في تلك الجهات وعينه | لمراكش الحمراء لا لتطاون
ولكنه مع حفله بمدافع | وبيض وسمر وامتلاء الكنائن
تخلف ربط الجأش عنه فرده | على خزيه صفرا ولو من فراسن
تجمع جند الله من كل وجهة | وقد غض من مدينه كل دائن
من الملك المقدام فالعلماء فا | لشيوخ اولى التقوى وأهل البواطن
وتلوهم الاجناد والناس كلهم | تضل بهم أبصار كل معاين
فشبت لظى الهيجاء ليس وقودها | سوى انفس الشجعان وسط الميادن
اذا ارعدت تلك المدافع أبرقت | صقيلات بيض الهند فوق اليمائن
فلولا البروق الخاطفات من الظبا | لما ابصرت عين خلال المداخن
قد انقضت الفرسان منا عليهم | انقضاض صقور الجو فوق الوراشن
وصابر كل قرنه فمجندل الثــــــرى وجريح ساحب للمصارن
وهامهم مثل الكرين وقد غدت | سنابك خيل الله مثل المحاجن
وسيبستيان كفنته مياهه | هزيما ، وماء النهر افظع كافن

فحين قضى البتار في الكفرماقضى ... وأشلاؤه تترى بغير مدافن
رأيت الوفا من رؤوس تجمعت ... وباليتها ايضا جدار المآذن
هنالك نصر المومنين مؤزرا ... على كل ذي كفر، تهجم، ضاغن
فذاك يوم مثل بدر وصنوه ... حنين بأيدي المومنين الميامن
لقد ذاق فيه البردقيز بنا الردى ... جزاء مناحيس خزايا ملاعن
بغوا فجنوا جنى البغاة فأصبحوا ... سماد الفيافي لاسماد الفدادن
فللشكل ما كان الهزيم لارضه ... وللصقر من ذاقوا الردى والشواهن
فنحمد رب العرش اذا كان ديننا ... لاهل الوغى والبأس خير المعادن



الكتب المنسوبة لغير مؤلفيها

هناك لائحة كبيرة بالكتب التي تنسب لغير مؤلفيها قصدا او عن غير قصد لسبب من الاسباب. ولعل هذا الموضوع الطريف يحفز بعض الباحثين المطلعين فيخصه بدراسة واسعة يخرج منها بكثير من الفوائد التاريخية والادبية التي تظهرنا على دخائل النفوس واسرار المجتمع.. فإن من المحقق ان كثيرا من الادعياء في العلم؛ انتحلوا كتبا ليست لهم، وكثيرا من الحسدة طمسوا اسماء مؤلفين من محسوديهم فضلا عن الجهل الفاضح الذي يجعل بعض القاصرين ينسب كتبا لغير من هي له؛ وربما ألفت بعد وفاة المنسوب اليه او قبل ولادته بكثير من السنين.

على أن هناك باعثا آخر، وهو التستر يجعل بعض المؤلفين يذيع كتبا له في الناس بأسماء مستعارة اما لتسير فيهم وتنتشر أكثر مما لو كانت منسوبة إليه وحاملة لاسمه. وإما لانها تحتوي على أفكار وآراء ومذاهب في الدين والاجتماع والسياسة يخاف ان يمسه أذى بسببها فيروجها في الناس

باسم غيره ويحصل على ما أراد مع الامن من الضرر .

والجهل باسم المؤلف كان من أهم الاسباب في نسبة الكتاب لغير صاحبه ، لان بعض الناس يهمه أن يعرف مؤلف الكتاب فيجعل يفكر ويقدر حتى يفرض أنه ربما كان من صنيع فلان ، ويأتي بعد من لا يعرف ان هذا انما كان فرضا وتقديرا فينسبه لذلك (الفلان) على سبيل القطع والجزم ، بل ربما نسي صاحب الفرض نفسه اوتناسى فرضه فجزم وقطع وتلقى الناس عنه ذلك بدون ان يرتابوا فيه .

وقد قيل انه في اول ظهور المطبعة بمصر واشتغال بعض التجار بصناعة طبع الكتب كانوا اذا وجدوا كتابا غيرمنسوب وهم يريدون طبعه نحلوه للسيوطي لكثرة ما ألف هذا العالم في فنون العلم المختلفة من الكتب وربما فعل ذلك أيضا بعض العلماء الذين لا ممارسة لهم ولاخبرة بفن التأليف حتى اختلط الحابل بالنابل ونسبت لهذا العالم كتب كثيرة ليست له ولا تحمل روحه ولاتنسج على منواله .

ومن ذلك كتاب (الكنز المدفون والفلك المشحون) ليونسي المالكي كما بكشف الظنون وكما يعلم من قصيدة فيه نفسه لمؤلفه ابتدأ كل بيت منها بحرف من حروف اسمه وهي في صفحة 158 . وقد طبع منسوباً للسيوطي .

ومنه كتاب (برد الاكباد عند فقد الاولاد) لابن ناصر الدين الحموي كما بمعجم المطبوعات فانظره ص 1626 ج وقد طبع منسوبا للسيوطي ، نعم ، قد وقفت فى سيرة الحلبي ج 3 ص 229 على نقل منسوب لكتاب تبريد الاكباد للسيوطي وهذا النقل موجود في الكتاب المطبوع باسم برد الاكباد ، فلعلهما كتابان اثنان اتحدا في الموضوع وتقاربا في الاسم .

ومنه كتاب (الرحمة في الطب والحكمة) المشهور وهو للشيخ مهدي بن علي بن ابراهيم الصبري[1] اليمني المهجي المقري المتوفى سنة 814 كما بكشف الظنون وقد طبع مرارا منسوبا للسيوطي .

والذي أرى أنه ليس لواحد منهما :

أولا ـ لكثرة النقل فيه عن المتأخرين عن الاول والمعاصرين للسيوطي كالسنوسي وزروق .

ثانيا ـ لانه كاد يكون كتابا عاميا بأسلوبه ولغته . وقد يسف في بعض الاحيان حتى يقول مثلا : علاج لكذا مجرب صحيح، ولعنة الله على من كذب ! . . في أمثال لهذه الكلمات. ولا يبعد أن يكون مؤلفه مغربيا لكثرة اسماء المغاربة

1) وانظر مقال المخطوطات العربية بتطوان في هذه المجموعة .

فيه ولتسميته للامراض والعقاقير بأسماء مغربية مما لانجد له مثيلا في غيره من كتب هذا الفن .

نعم ، قد يكون ذلك كله مما أدخل عليه ادخالا وألحق به من الطرر والهوامش فيكون الاصل لصاحبه والباقي للعوام المفتونين بهذا الكتاب .

ومن الكتب المهمة المنسوبة لغير مؤلفيها كتابا (منهاج العابدين) (والنفخ والتسوية) لابي الحسن علي المسفر السبتي وقد نسبا قديما لابي حامد الغزالي وطبعا كذلك منسوبين اليه . قال العلامة الشيخ محيي الدين بن العربي الحاتمي فى كتابه محاضرات الابرار ص 90 خ ل : «كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر حكيما عارفا غامضا فى الناس محمود الذكر ، رأيته بسبتة . له تصانيف منها منهاج العابدين الذي يعزى لابي حامد الغزالي وليس له وانما هو من مصنفات هذا الشيخ قال وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى الى ابي حامد ايضا وتسميه الناس المضنون الصغير» .

ومنها كتاب (المحاسن والاضداد) المنسوب للجاحظ والمطبوع بهذه النسبة ، حقق الاستاذ حسن السندوبي انه ليس له ويوخذ ذلك من محتويات الكتاب أنظر أدب الجاحظ للسندوبي ص 155 ـ 158 وصاحبه ممن زعم أنه نحل كتبا

كثيرة لغيره بغية ترويجها وسلامته من الطعن كما بمقدمته .

ومنها (شرح ديوان المتنبي) المنسوب لابي البقاء العكبرى مطبوعا كذلك . فانه ليس له كما حققه الاستاذ مصطفى جواد في مقال له نشر بمجلة «الثقافة» المصرية (عدد 17) واستدل على ذلك بدلائل منها ان العكبري كان أعمى من صغره والشارح ليس كذلك كما في الشرح ، من مثل قوله ص 332 في امالي ابن الشجري : «نقلته بخطي» ورجح انه قد يكون لابى عبد الله الحسين بن ابراهيم الكورانى الاربلى المتوفى سنة 656 بدمشق .

ومنها كتاب (تحفة الاحباب) فى الخطط والمزارات لمحمد ابن احمد الحنفي السخاوي، وقد طبع منسوبا للعلامة السخاوي فيوهم انه الحافظ السخاوي المشهور وليس به . وقد نسب اليه وهما فى فهرس دار الكتب المصرية نبه عليه بعض فضلاء الباحثين في مجلة «الرسالة» (عدد 140) .

ومنها كتاب (المقصد الاحمد) للعلامة سيدي عبد السلام القادري المتوفى سنة 1110 الفه في مناقب شيخه سيدي احمد ابن عبد الله معن . دفين المخفية من مدينة فاس . فقد أغار عليه السيد حرازم برادة (من أهل القرن) 13 وسماه جواهر المعاني من فيض الشيخ سيدي أحمد التجاني وطبع كذلك

وسار في الناس كل سيرورة ثم نشر المقصد الاحمد اخيرا فافتضح ذلك السر وعجب الناس من هذه الجرأة .

والاغارات على الكتب بنقل فوائدها والتصرف في عباراتها ثم نسبتها الى النفس كثيرة ؛ وقد قيل في كتاب لبعضهم لو ان مسائله رجعت الى أصولها لما بقي منه شيء ، وهذا الباب واسع جدا فلنكتف منه بهذه اللمحة الخاطفة الان ، وعسى الله أن يوفقنا للرجوع اليه فنستوعبه كما ينبغي له .

المعزى بفتح الميم

كنا جماعة من أعضاء المجلس الاعلى للتعليم وبيننا مديرو المعاهد وبعض المدرسين . وقد جلسنا بقاعة الاجتماعات الكبرى بالصدارة العظمى في انتظار انعقاد المجلس ، حين سأل أحدنا كيف تقولون في اسم كتاب المعزى في مناقب ابى يعزى هل هو بفتح الميم أو ضمها ؟

وقد أجاب غير واحد بالجواب المعهود وهو أن فتح الميم لا يصح لان اسم المفعول من الثلاثي لا يكون على مفعل بل على مفعول فحقه ان يقال فيه معزو ، ولذلك فان الضم هو الواجب باعتبار انه اسم مفعول من الرباعي .

ولوحظ أنه إنما يصار الى الرباعي اذا كان الثلاثي غير متعد ، فلا يصح أيضا أن يقال معزى بالضم ، ثم تطرق الكلام الى الفعل يكون ثلاثيه متعديا ورباعيه لازما وإن كان هذا ليس منه كما وقعت الاشارة الى تاريخ المسألة، وان الناس منذ الف الشيخ ابوالعباس الصومعي التادلي كتابه هذا وهم مختلفون في ضبطه وما كان من الحادثة المؤسفة التى وقعت له بسبب ذلك مع الامير زيدان بن المنصور الذهبي ، ثم أقفل الموضوع وبقيت المشكلة كما كانت .

ولزيادة البيان نورد تاريخ هـذه المسـألة كما ورد في «الصفوة للافرانى» والاستقصا للناصري . فقـد قـال الاول فى ترجمة هذا الشيخ بعد أن نوه بعلمه وصلاحه كثيرا .

«وذكر صاحب الفوائد ان السلطان نقله لمراكش بسبب بغضة بينه وبين امير تادلا زيدان بن احمد ، فلم يزل بمراكش حتى مات هـ ولعل سبب البغضة المذكورة ما يحكى انه لمـا الف كتابه المعـزى فى أخبار ابى يعزى عارضه زيدان ابـن السلطان المذكور ، بأنه لا يجـوز ان يـقال المعـزى لانـه مـن الرباعي وإنما قالت العرب عزا فقياسه المعزو . فصـمم صـاحب الترجمة على الانكار الى أن لطمـه زيـدان بنعـله على وجهـه فشكى به الى ابيه المنصور فقال له المـنصور لو لطمك وهـو المخطىء لعاقبته اما حيث كان عـلى الصـواب فى قـوله فانـت جدير بلطم نعله ولما رأى المنصور ما وقع بيـن الشيخ وولـده نقله لمراكـش فكان يحضر مجالس المنصور فى البخاري وغيره» وقال فى الاستقصا في ترجمة زيدان :

« قال اليفرنى كان كثير المراء والجدال كما وقع له مع ابى العباس الصومعى قلت: الذي وقع له مع الصومعى هو أنه لما ألف كـتابه الموضوع فى مناقب الشيخ أبي يعزى رضى الله عنه وسماه المعزى بضم الميم وفتح الزاي بصيغة اسم المفعول مـن الربـاعى

عارضه زيدان وهو يومئذ بتادلا واليا عليها من قبل ابيه بأنه لم يسمع الرباعى من هذه المادة وانما قالت العرب عزاه يعزوه ثلاثيا فأصر أبو العباس رحمه الله على رأيه الى أن لطمه زيدان على وجهه بالنعل فشكاه الى المنصور فقال له لو لطمك وهو المخطيء لعاقبته. اما اذ كان الصواب معه فلا.قلت كان زيدان يومئذ فى عنفوان الشباب فصدر منه ما صدر :

فان يك عامر قد قال جهلا   فإن مظنة الجهل الشباب

ومع ذلك فما كان من حقه ان يفعل، وأظن ان انتكاس رايته سائر أيامه انما هو أثر من آثار تلك اللطمة ، فإن لله تعالى غيرة على المنتسبين الى جانبه العظيم وإن كانوا مقصرين».

فهذه المسألة قد شغلت العلماء من لدن عهد المؤلف الى وقتنا هذا ونراهم كلهم يعطون فيها الحق لزيدان ويعتبرون الشيخ الصومعي مخطئا في هذه التسمية ، ولعل قول الناصري وسماه المعزى بضم الميم من الرباعي انما هو شرح وبيان لما فهمه من انكار زيدان على الصومعي بحسب ما رواه اليفرني، فنحن إلى الآن لانعرف ما دافع به لصومعي وما أراد بهذه الصيغة هل اسم المفعول أو غيره ؟

وأقول اني بعد انفضاض المجلس المشار اليه في أول المقال رجعت الى الفندق الذي كنت نازلا فيه وبينما كنت متمددا على السرير أجول بفكري هذه الجولات الطويلة القصيرة

التي يسافر فيها الفكر الى أقاصي الدنيا وأغوار الماضي البعيد في أقل من لمحة ، عاد الى ذهني موضوع اسم كتاب المعزي مصحوبا بخاطر ان الشيخ الصومعي ربما لم يكن يقصد الى اسم المفعول حين سمى كتابه هذه التسمية بل قصد المصدر الميمي وهو على مفعل بفتح الميم من الثلاثي المعتل اللام مطلقا كمرمى ومسعى ومغزى قال ابن مالك في لاميته :

من ذي الثلاثة لايفعل له ائت بمفعل لمصدر او ما فيه قد عملا

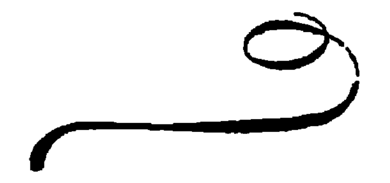
كذاك معتل لام مطلقا . .

وعليه فالمعزى بفتح الميم لاغير ومعناه العز و في مناقب ابي يعزى وهوأنسب من إسم المفعول فإذا كان الشيخ الصومعي اراد هذا فالصواب معه . ولحد الان لبس بيدنا ما يؤكد خلافه والا فلا يجوز في هذا الاسم الا ما ذكرنا .

ومن العجيب اني لما فكرت في كتابة هذه الكلمة انصافا للشيخ الذي تحومل عليه بغير حق وردا للاعتبار الذي تجرأ زيدان على نزعه منه راجعت في الصباح نص الافراني والاستقصا . وفى المساء وجدت على المكتب فى معهد مولاي الحسن كتاب المعزى للشيخ الصومعي وقد جيء به من خزانة الشريف الهمام السيد اليزيد بن صالح باشا مدينة شفشاون ولم أكن رأيته قبل . فدهشت واعتبرت ذلك تجاوبا روحيا

بيني وبين الشيخ رحمه الله ثم تصفحته فلم أجد فيه أثرا للاسم المذكور ، فهل هي إشارة الى أن الشيخ لم يقصـد شيئا ممـا نسبوا اليه ؟

وقد ذكر في آخره انه فرغ من تأليفه ضحـوة يوم الاحد تاسع شوال عام عشرة مائة . والنسخة جيدة كتبها أحد أسلاف الباشا في أوائل القرن المنصرم .



المخطوطات العربية في تطوان*

ليس في تطوان مخطوطات عربيـة كثيرة ، من هذه المخطوطات التي لها أهمية علمية أو تاريخية أو فنيـة ، وإن كانت فيما مضى تحتوي على ثروة عظيمة من هذا النـوع من التراث العربي الثمين . شأن غيرها مـن مـدن المغـرب التي كانت تعتبر مركـزا ثقافيا كبيرا او صغيرا . وليس دليلي على ذلك هو التنظير فحسب بينها وبين مثيلاتها من المدن المغربية التي مازالت تحتفظ بكمية نسبية مـن المخطوطات ، ولكـن لي دليلا آخر هو أقوى من كل دليل على ما كان يوجد بتطوان من مخطوطات عربية كثيرة أودت بها يد الحدثان او نـقلتها الى مكان آخر حيث لم يعد يستفيد منها أبناء تطوان وان اتيحت الاستفادة منها لغيرهم من النـاس . ذلك أنني في زيـاراتى المختلفة لمدريد عاصمة الدولة الاسبـانية ، كنت اتـردد على المكتبة الاهلية واتصفح كثيرا من مخطوطاتها العربيـة المهمة

* كتب هذا المقال لمجلة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربيـة ونشر بها في العدد الثاني من السنة الاولى .

فأجد أن أكثريتها من أصل تطوانى ؛ مما نسخ بتطوان اوكان مالكه من أهل تطوان . وإذا علمنا ان تطوان كانت قداحتلت عسكريا من طرف الاسبان وفر منها أهلها ناجين بأنفسهم تاركين املاكهم وأمتعتهم ليد الخراب والنهب وذلك فى حرب (1272 هـ ـ 1860م) بين اسبانيا والمغرب لم نستغرب أن تنقل نفائس الكتب فيما نقل حينئذ الي مدريد والى غيرها من الجهات . على أن ما وقع بعد اعلان الحماية سنة 1912 فى المغرب كله من الهزات العنيفة كان سببا أيضا فى تشتت كثير من المكتبات العامة والخاصة وانتقال محتوياتها الى الايدي الاجنبية بطريق الشراء وغيره، ولابد ان تطوان اصابها من ذلك شيء ليس بالقليل .

وهذه الملاحظة تظهرنا على شيء آخر : وهو أن غالب ما تشتمل عليه دور الكتب باسبانيا من المخطوطات العربية اصله من المغرب، فهذه المكتبة الاهلية قد علمنا امرها. وكذلك مكتبة الاسكوريال التى تضم بين جدرانها عددا ضخما من المخطوطات العربية المهمة . فانها انما حصلت على هذه الثروة الفكرية الطائلة من المغرب السيء الحظ ، حيث ان مركبا بحريا كان يحمل ذخائر للسلطان زيدان بن المنصور الذهبى ومن جملتها 3000 مجلد من كتب التاريخ والادب والفلسفة ،

استولى عليه القراصنة الاسبان في نهاية القرن السادس عشر وأضيفت تلك الكتب الى خزانة الاسكوريال فكونت قسم المخطوطات العربية الذي تزهى به تلك الخزانة ويمكن لزائر الاسكوريال ان يتحقق من هذا الامر ، بقراءته لاسم السلطان زيدان او إسم والده المنصور الذهبي مكتوبا على الصفحة الاولى في كثير من المخطوطات الموجودة هناك فليس الاصل اذن فيما يوجد باسبانيا من مخطوطات عربية . ان الاندلس كانت مهد الحضارة العربية مدة ثمانية قرون وإن اسبانيا احتفظت بما استولت عليه من ذلك التراث عند طرد العرب - كما يظن الكثير من الناس - وإنما الاصل هو ما ذكرنا اما في تلك الايام السود فان الملوك الكاثوليكيين المتعصبين كانوا يحرقون الكتب العربية ويتلفونها استجابة لنصائح القسوس والرهبان زعما منهم انها لاتحتوي على خير ، وأنها مادة سامة لافساد عقائد المومنين .

ولم يتفطن القوم الى ما ضيعوه من ذلك الكنز الثمين الا بعد فوات الفوت. وحينئذ صاروا يتخطفونه حتى من عرض البحار !

ثم إن مما لاشك فيه أن تطوان كانت تحتوي على مكتبات خاصة عديدة . وان المخطوطات التي اشرنا اليها هي التي كانت تكون هذه المكتبات ، ولا نعرف انه كان فيها مكتبات عامة ، كما

يذكر عن جارتها سبتة[1] في إبان مجدها ، اللهم الا مكتبة المسجد الاعظم وما شابهها مما كان في بعض المساجد وهذه على ما يظهر كانت غنية بالكتب القمية بدليل ما تبقى منها وسلم من اليد العادية .

ومكتبة المسجد الاعظم توجد في جميع مدن المغرب المهمة ولا سيما عواصم الاقاليم ، كان السلاطين يعنون بانشائها ويحرصون دائما على امدادها بنفائس الكتب تمكينا للشعب من وسيلة التثقيف العظمى ومادة التغذية العقلية التي هي الكتاب ، ولاندري كيف نجت مكتبة المسجد الاعظم في تطوان من النهب مع وقوع المدينة تحت الاحتلال العسكري الاسباني مدة عامين ـ الا أنه يمكن القول بأن السلطات أمرت باحترام المسجد الاعظم خاصة . وأن ما نهب من اماكن السكنى وبيوت العبادة الاخرى كان فيه غنية .

وعلى كل حال فإن مكتبة المسجد الاعظم في تطوان هي اقدم مكتبة تحتوي على مخطوطات في هذه المدينة . وان كانت هذه المخطوطات ليست ذات أهمية نوعية ولا عددية بالنسبة الى قدم المكتبة وما كان يشترى لها من مال الوقف او يوقفه عليها أصلا الملوك والرؤساء وغيرهم من أهل الفضل

1) انظر كتاب اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سنى الآثار للحضرمي .

ومحبي النفع . ونظن أن ما طرأ عليها من التنقلات وما اعتورها من اختلاف ايدي المتصرفين فيها كان له تاثير كبير في فقد اكبر عدد مما كانت تحتوي عليه من الكتب القيمة فقد انتقلت اولا من خزانة المسجد الاعظم الى مدرسة لوقش وذلك عند انشاء المجلس العلمي وتنظيم الدراسة الدينية ثم نقلت اخيرا الى مقر المعهد الدينى العالى وأضيف إليها جملة من كتب الدراسة المطبوعة التى اجتلبت من مصر ولا يعلم احد ماذا يكون مصيرها بعد: خصوصا وهى ما زالت لم تنظم تنظيما عصريا ولم تسجل وتفهرس كما يجب .

وتعداد هذه المخطوطات الآن فى المعهد الدينى العالى يبلغ المائة زيادة على ما هناك من الخروم اي الاوراق المتخرقة التى تتطلب دليلا خريتا ليهتدي الى معرفة ما يوجد بينها من آثار مفيدة ، ولم يلفت نظرنا من هذه المائة مخطوط الا ثمانية رأينا أنها ذات اهمية نسبية . والباقى كله من كتب الدراسة الفقهية او النحوية المتداولة واكثره مطبوع عدة مرات اما هذه الثمانية فهى :

1) البيان والتحصيل لابن رشد الفقيه ، نسخة في عشرة مجلدات ينقصها الاول والثانى، وبقية المجلدات الثمانية فى حجم كبير وخطها مغربى واضح ، تاريخها كما بآخر الجزء العاشر

منها : شوال 1198 . وهذا الكتاب من أمهات كتب الفقه المالكي ومؤلفه ابن رشد يعرف بحافظ المذهب، وما زال لحد الآن لم يطبع .

2) مختصر ابن عرفة الفقهي المشهور كشهرة مؤلفه عند اتباع المذهب المالكي . ولكن الموجود منه مجلدان اثنان فقط ، الاول والثاني، وهما بخط مغربي عادي، وعليها توقيفات وطرر يساير بهما كاتبهما مختصر الشيخ خليل بن إسحق المالكي . وليس له تاريخ الا ان عليهما شهادة وقف على جامع الشيخ علي بركة بتطوان مؤرخة بسنة 1271 وهذه الشهادة مما يدل على أنه كان هناك مكتبات أخرى غير مكتبة المسجد الاعظم .

3) فتح المتعال في مدح النعال للحافظ المقري، والكتاب مطبوع بالهند الا أن النسخة يمكن أن يستعان بها في تحقيقه اذا أعيد طبعه . وهي مغربية وخطها جميل ، وتوجد بها أمثلة النعل النبوية بأشكال مذهبة ملونة، وهي من تحبيس السلطان على الجامع الاعظم بتطوان عام 1084

4) شرح ابي علي بن رحال على مختصر الشيخ خليل . يوجد منه ستة عشرة مجلدا ضخما بخط مغربي واضح ، انتسخ للسلطان سيدي محمد بن عبد الله ، وهو الذي حبسه على

مكتبة المسجد الاعظم بتطوان فى تاريخ 14 ربيع الثانى 1198 وشهادة التحبيس تذكر ان الكتاب فى 18 مجلـدا ، إلا أن النسخة ينتصها المجلدان الاول والثانى ومع ذلك فـالشرح غير تام اذا انتهى فيه الى فصل المكاتب وأهمية هذا الشرح لاتخفى على المطلعين لان أبا علي بن رحال من حفاظ المذهب المالكى ومحققيه .

5) كتاب النوادر لابن أبى زيد القيرواني فى الفقـه المالكى، يوجد منه جزآن وهما فى مجلدين ضخمين ويتضمنان احكام البيوع ، وهو من تحبيس السلطان السابق الذكر على المسجد الاعظم بتطوان .

6) كتاب التوشيح في مشكلات الجامع الصحيح يعنى صحيح البخاري لجلال الدين السيوطي ، نسخة مغربية صحيحـة بخط العربى بن على بن عمر بن على التطواني كتبها فى العـشرة الرابعة بعد المائة والالف . وهى من تحبيس السلطان ايضا على المسجد .

7) كتاب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع للامام ابي محمد القاسم ين محمد بن عبد العزيز الانصاري، فى مجلد بخط مغربى جميل كاتبه إبراهيم بـن محمد الغسـانى الشهير بالوزير،ومؤلفه من أهل القرن الثامن فرغ منه فى 21 صفر 704

وهو كـتاب قيم فى موضوع التجنيس والبديع والبيان والبلاغة على العموم ، ونفسه عال وتقسيمه مبتكر ، وشواهده من شعر الاقدمين وبلغا" المولدين . وبالجملة فانه حلـقة مهمة تنقـص الدارسين للبلاغة العربية وتاريخها ، وما احراه بالنشر .

8) شرح العلامة الكرمانى على صحيح البخاري فى ثلاثة مجلدات ضخام بخط مشرقى دقيق، وتاريخه 20 شوال 851 وهو أيضا من الكتب الموقوفة على مسجد تطوان من طرف السلطان، وقد طبع هذا الشرح الا أن أهمية هذه النسخة تتمثل فى التصحيح والمقابلة عند ارادة طبع الـكتاب مرة ثانية طبعا علميا متقنا .

هذه هى الكتب الثمانية من مخطوطات المسجد الاعظم التي لفتت نظرنا لاهميتها في الجملة. وننتقل الى المكـتبة العامة التى هى ثاني مكـتبة عمومية في تطـوان تحتوي على مخطـوطات عربية فنجد ان هذه المكـتبة وقد انشئت من امد قريب ' بهـا زهاء 900 مخطوط مما اشتري لها بالجملة والتفصيـل . وفي الحقيقـة انهـا كـلفت الحـكومة مبالغ طائلـة لانهـا كثيـرا ما كانت تشترى المكـتبة التي تحتوي على قليل من المخطوطات وكـثير من المطبوعات ، يعرضها للبيع صاحبها او ورثتـه بعـد موته ، بثمن فاحش فلا تماكسه في ذلك الا قليلا ، وحينما تتم الصفقة تضم المخطوطات الى القسم الخاص بهـا على حين ان

المطبوعات التي توجد لها نظائر في المكتبة تاخذ طريقها الى مكتبات المعاهد الدراسية وبعض المكتبات العمومية في غير تطوان من مدن المنطقة ولكن مهما قيل في ارتفاع ثمن هذه الكتب فان الحكومة تكون هي الرابحة في المعنى ، واذا استمرت على تغذية المكتبة العامة بهذه الطريقة فانه لا يمر وقت قريب حتى تصير من اكبر المكتبات التي يفاخر بها المغرب ويقصدها الباحثون من كل الجهات .

والى القاريء ما استرعى انتباهنا من مخطوطات هذه المكتبة ، التي ما زالت هي ايضا لم تسجل وتفهرس كما يجب:

1) كتاب قصص الانبياء للشيخ الامام الزاهد ابي الحسن محمد بن عبد الله الكسائي مجلد في 156 ورقة بخط مشرقي واضح تاريخه عام 882 ولا يخفى انه غير كتاب قصص الانبياء المطبوع المعروف بالعرائس للثعلبي .

2) كتاب التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للحسن بن محمد بن الحسن الصنعاني في ستة مجلدات ، بخط مشرقي واضح انتهى ناسخه وهو عبد اللطيف محمد من جزئه الاول في شعبان 1288 ومن جزئه الآخر في رجب 1290 وبآخره ان مؤلفه فرغ منه يوم الجمعة وقت فتح باب بيت الله الحرام 10 صفر 635 وهو كتاب قيم في الذيل

على صحاح الجوهري مرتب على الحروف ترتيب الصحاح والنسخة جيدة وصحيحة .

3) حاشية العلامة الاديب الشيخ عبد القادر البغدادي على شرح ابن هشام لقصيدة كعب بن زهير «بانت سعاد» وهي حاشية حافلة بالفوائد اللغوية والنحوية والادبية في ثلاثة مجلدات وشهرة صاحبها كافية في التعريف بها . والنسخة حديثة فرغ منها ناسخها في 21 ربيع الاول 1345 وخطها واضح ولكنه لا يخلو من تصحيف .

4) الجمع بين كتابي نزهة الناظر وبهجة الغصن الناضر ، وشوارق الانوار وطوالع الاسرار ؛ كلاهما للشيخ احمد بن عبد القادر التاستاوتي، ضمنهما عدة أدعية وأذكارا وأسئلة وأجوبة لاشياخه ومعاصريه من العلماء كاليوسي والتجموعتي والمجاصي، والاول خاص بالاذكار . والثاني ـ ويستغرق جل الكتاب ـ هو الذي يتضمن هذه الموضوعات المختلفة مع ما جمعه من منظومات التاستاوتي الشعرية والملحونة ورسائله الادبية وغير ذلك . ولم يذكر فيه اسم الجامع بين الكتابين ، وإن كان من تلامذة المؤلف، والكتاب يقع في مجلدين وخطه مغربي عادي الا انه واضح وصحيح وتاريخه 1149. وناسخه أحمد بن محمد العياشي ملاح . نسخه للشيخ احمد بن عاشر بن عبد الرحمن الحافي

كما بكتابة بآخره . بخط هذا الشيخ وعليه توقيفات كثيرة بخطه أيضا .

5) مجموع أوله تأليف في بيع الصفقة للشيخ ميارة ثم تقاييد في التوحيد فشرح الخروبي على المشيشية في ورقات ثم نبذة في الاوليات من تآليف الفقيه ابي عبد الله محمد بن علي بن ابي بكر الرباطي المعروف بالخراط. فتاليف لابن الخطيب اسمه استنزال اللطف الموجود في أسر الوجود في ورقات ، ثم تقييد في شكل مقامة غريب ، فتقاييد مختلفة. فقصيدة لامية طويلة في الحكم والآداب . ثم كتاب عمل من طب لمن حب للامام ابي عبد الله محمد المقري الجد وهو نفيس ، فتقييد فى الحدود والتعاريف لابي الوليد الباجي ، ثم مختصر نوازل ابن سهل يحتوي على 536 مسألة متتابعة مرقمة . ثم كتيب للحكيم الترمذي فى أصول الطريق والسلوك - ثم كتاب ازهار الخمائل فى اختصار السير والشمائل لطيف مفيد، فشرح لعبد الملك بن محمد بن عبد الجبار السجلماسى على رائية بن ناصر فى العبادات فى ورقات ، فرسالة فى العقائد والعبادات لمحمد بن سعيد بن عبد المنعم ثم تأليف مهم للشيخ ابى علي محمد بن خليل السكونى فى الالفاظ الموهمة التى لا يجوز اطلاقها على الله تعالى مما يقتضى الحلول والاتحاد ونحو ذلك فى ورقات

ثم كتاب مكنون الجواهر وتحصن المقيم والمسافر فى الادعية والاذكار لطيف مفيد ، فأجوبة ومسائل .

6) رسالة فى بيان الناسخ والمنسوخ الواقع في القرآن لهبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي البصري من أهل القرن الخامس ألفها سنة 453 وهي بخط محمد بن محمد العزيزي الشافعى وتاريخها 14 محرم 1222 جزء صغير .

7) كتاب الابرار فى بري القلم وعمل الاحبار جزء صغير غير معروف المؤلف بخط مشرقي جميل لا يخلو من تصحيف وعبارات عامية ويحتوي على عشرة أبواب فى هذه الصناعة تاريخه 9 محرم 987 .

8) كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك للسلطان ابى حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ابن زيان ، من ملوك بنى عبد الواد اصحاب تلمسان ، الفه لولى عهده. ويشتمل على اربعة ابواب، الباب الاول فى الوصايا والاداب ، الثانى فى قواعد الملك واركانه .الثالث فى الاوصاف التى هى نظام الملك ، الرابع فى الفراسة.وفى كل باب فصول ويشتمل على شعر كثير لهذا السلطان وكلام مسجوع له ، والنسخة مغربية الخط جميلته . بل انها باستثناء الصفحة الاولى منها . بخط والد كاتب هذا المقال وإن لم يذكر اسمه فيها

ولا ادري كيف صارت لهذه المكتبة فانها بذلك يلزم ان تكون من كتب الخزانة الكنونية ولكنى لا اعرفها عندنا وقدتعجبت من أمرها كثيرا ، لانى كنت اطلب هذا الكتاب زمانا طويلا ولم اظفر به برغم انه مطبوع فى تونس، فلما وقفت عليه وجدته بخط والدي! وبآخر النسخة قصيدتان فى السياسة وتدبير الملك بخط آخر جميل أيضا .

9) كتاب المبتدأ لمقاتل بن حيان، جزء وسط بخط اندلسى جميل، وفيه أخبار وروايات عن بدء الخليقة وعجائب الكون ، ومع هذا الكتاب بنفس الخط أجزاء صغيرة تحوم حول الموضوع وجملة في كرامات الشيخ ابي العباس السبتي الخ والكتاب ليست له قيمة من الناحية التاريخية وانما قيمته فيمن نسب اليه ان صحت هذه النسبة .

10) كتاب في الفلاحة لحمدون الاشبيلي اسمه البستان ونزهة الاذهان في سفر يحتوي على 285 صفحة بخط مغربي عادي الا انه واضح وهو على خلاف الكتب المعهودة في هذا الفن . مفتتح بخطبة تحتوي على الحمد والصلاة على النبى (ص) ومقدمة في الموضوع تشتمل على الآداب الاسلامية المتعلقة به، مما جاء فى الايات القرآنية والاحاديث النبوية اتستغرق نحو 16 صفحة ثم يدخل الى المقصود بالذات فيبدأ بالكلام على

الفصول الاربعة والشهور وقسمتها الى البروج الى آخره ومادته خصبة وابحاثه متنوعة يدل على ما وصلت اليه الفلاحة العربية من تقدم وازدهار .

11) كتاب نعت الاحجار لارسطاطاليس نقله من اليونانية الى اللسان العربى محمد بن عبد الملك . في جزء صغير بخط مشرقى واضح وليس له اول ولا تاريخ له في ءاخره . ومعه كتاب ءاخر فى الموضوع نسب في الفهرس الذى وضعه بائع هذا الكتاب وجملة كتب اخرى معه الى المكتبة، لابي الريحان البيرونى ، وهو مفتتح بالبسملة والحمد والصلاة ولم يذكر فيه اسم مؤلفه لا اولا ولا آخرا وزاد فى الفهرس المذكور انه من مخطوطات القرن السابع ولكنا لا نستطيع تاكيد ذلك .

12) كتاب الابيات المقصورة على الابيات المقصورة ، وهو شرح على مقصورة ابن دريد للشيخ عبد القادر بن محمد بن يحيى بن مكرم الحسينى الطبري الشافعى المتوفي سنة 1033 صاحب كتاب عيون المسائل من اعيان الرسائل كتبه لشريف مكة الحسن بن نمي بركات، وشحنه بالفوائد اللغوية والادبية وبذخيرة قيمة من اشعار الجاهلين والاسلاميين من متقدمين ومتأخرين وهو يقع في مجلد وخطه مشرقي عادى وتاريخه

حديث جدا (4 ربيع الاول 1345 ـ 11 اكتوبر 1926) ناسخة عبد العزيز عطيه خطاب حمودة الطالب بالازهر الشريف . ونسب هذا الكتاب في الفهرس المشار اليه الى عبد القادر البغدادي

13) الفهرست لابن النديم، نسخة حديثة بخط مشرقي جيد ويظهر ان كاتبها وهو مصطفى بن علي كان على جانب من الضبط والاتقان ، فانه ينبه على اماكن البياض التي لم يذكر فيها الاسم المطلوب او التاريخ او المكان مثلا ، فيقول بالهامش لم يذكر الاسم بالاصل الخ ومن الجدير بالملاحظة ان هذه الاماكن هي بنفسها اماكن البياض الموجود في النسخة المطبوعة ولاتفترق هذه المخطوطة عن المطبوعة في شيء الا في بعض العبارات التي لاحظناها في ترتيب مصحف ابن مسعود . فهي فيها على الوجه الصواب وفي المطبوعة مصححة على المقروء الآن . والى القاريء بيانها كما في المخطوطة . . لايلاف قريش انا انزلناه ، والعصر ، لقد خلقنا الانسان لخسر . وانه فيه الى آخر الدهر ، الا الذين آمنوا وتواصوا بالتقوى وتواصوا بالصبر اذا جاء نصر الله . انا اعطيناك . قل للذين كفروا لا اعبد ما تعبدون ، تبت يدا ابي لهب وقد تب ما اغنى عنه ماله وما كسب ، وامراته حمالة الحطب . . وقد وضع الناسخ بهامش هذه المخالفات الثلاث عبارة تامل ثلاث مرات ايضا مما يدل

على تحريره .

وفي ترتيب مصحف ابي بن كعب، وقع ما يلي . . الفتح محمد (ص) الحديد، الطهار . . فكتب الناسخ بالهامش لعله الظهار وهي الطلاق . هذا مع العلم بأن اسم هذه السورة في النسخة المطبوعة وقع مغلوطا هكذا (الطهارة) ولم تثبت في هذه النسخة صور الاقلام والخطوط القديمة التي أثبتت في المطبوعة بل بقيت اماكنها بيضاء ونبه الناسخ في الهامش على انها غير ثابتة في الاصل ، كما أن تلك الزيادة التي عثر عليها بعض المستشرقين الالمان ولم تكن في الطبعة الاولى للفهرست توجد في هذه النسخة .

والحاصل أن هذه المخطوطة يمكن أن يستعان بها في تصحيح كتاب الفهرست عند إرادة طبعه طبعة علمية محققة وان كانت على ما يلوح تتوافق هي والنسخة المطبوعة حتى قد يظن أنها منقولة عنها . الا ان هذه الملاحظات الصغيرة التي بدت لنا عند تصفحها السريع ، تجعلنا نجزم انها نقلت من أصل آخر فضلا عن تقدم تاريخها وهو عام 1327 على تاريخ المطبوعة الذي هو عام 1348 ونحن اذ نتكلم على النسخة المطبوعة فإنما نعني طبعة مصر . . اما طبعة اوربا فإنا لم نقف عليها وقد كان طبعها على كل حال قبل تاريخ هذه المخطوطة .

14) مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع لصفي الدين الحسيني الحلبي مفتي الحنابلة بالبشرية ، اختصر فيه كتاب معجم البلدان لياقوت نسخة تامة بخط مشرقي جيد ، يرجع تاريخها الى القرن الحادي عشر . وقد طبع الكتاب في أوربا وبلاد العجم منسوبا لياقوت نفسه، ولذلك فإن هذه النسخة يمكن الانتفاع بها في تصحيحه عند إعادة طبعه .

15) الانيس النفيس المغني عن الجليس لابي القاسم الزياني الوزير المغربي المعروف؛ كتاب في جزء وسط بخط مغربي جميل لا يخلو من تصحيف ويشتمل على عشرين بابا في الادبيات والاخلاق ، وخاتمة في الهزليات ، وهو ككتب الزياني مفيد للتعرف على شخصيته ولما تضمنه من بعض الانباء التاريخية .

16) مطالع الدقائق في تحرير الجوامع والفوارق ، وهو كتاب الفروق للعلامة الزركشي . ذكر في أوله كتبا في الموضوع لعلماء الشافعية منها كتاب الجمع والفرق لابي محمد الجويني وكتاب الوسائل في فروق المسائل لابي الخير بن جماعة المقدسي وكتاب المؤرخات لابن ابي عبد الله القطان وكتاب المسكت للامام أبي عبد الله الزبيري وكتاب المعاياة لابي العباس الجرجاني واثنى عليها ثم ذكر أنه جمع هذا الكتاب وضمنه مهمات المسائل من هذا القبيل وهو في جزء وسط ونسخته حديثة وهي بخط مشرقي

جميل وصحيح . ولا نعرف كتابا مطبوعا في هذا الموضوع الا كتاب الفروق للقرافي المشهور .

17) كتاب تعبير الرؤيا للشيخ أبي طاهر بن ابراهيم بن يحيى بن غنام الحنبلي ، رتبه على حروف المعجم ومهد له بأربع عشرة مقالة ، وهو في مجلد وسط بخط مشرقي واضح والنسخة تلوح عليها امارات القدم وان خلت من التاريخ وعندنا منه نسخة مغربية الا ان اسم جد المؤلف فيها غانم لا غنام وفيها ايضا تسمية الكتاب بالمعلم في تعبير الرؤيا على حروف المعجم .

18) مجموع به مناسك الشيخ خليل بن اسحاق المالكي في جزء متوسط جعله على سبعة ابواب الباب السابع منها في زيارة بيت المقدس والخليل نسخة عادية بخط مغربي لا بأس به من حيث الصحة تاريخها 1246 ثم وردة الجيوب في الصلاة على الحبيب (المحبوب) للشيخ محمد بن عبد العزيز الجزولي الرسموكي على نهج دلائل الخيرات ولكنه فصله بحسب فضائل الصلوات المذكورة فيه ، نسخة عادية بنفس الخط قبله، ثم كتاب الرصاع في الموضوع وهو معروف ، ثم كتاب قرة العين في أوصاف الحرمين في جزء متوسط بنفس الخط المذكور قبل وقد أرخ في آخره بعام 1255 ثم منسك الشيخ

التاجوري وتقاييد في الموضوع .

19) مجموع به شرح بحرق على لامية العجم ، صغير ، ونظم فصيح ،ثعلب لابن المرحل ،معروف ، وكتاب الوافي في نظم القوافي للشيخ الجليل الفقيه القاضي ابى الطيب بن الشيخ الاجل الفقيه ابى الحسن بن الشريف الرندي ، وهو كتاب يحتوي على مختارات ادبية وموضوعات من علم صناعة الشعر وقرضه ويتضمن اشعارا لادباء الاندلس وللمؤلف نفسه ، ويخرج في جزء وسط ، وخطه مغربى واضح ولا تاريخ له ، ويختم المجموع بشرح ابن هشام لبانت سعاد .

20) مجموع به كتاب فى الطب اسمه المنافع البينة وما يصلح بالاربعة الازمنة لابى عبد الله محمد بن علي بن عبدالرحمن الصنهاجى ، رتبه على ثمانية ابواب ، اولها فى الازمنة الاربعة وما يصلح فيها لحفظ الصحة وبقيتها فى علاج الامراض التى تعتري اعضاء الجسد من الرأس الى القدمين جزء صغير بخط مغربى جميل تاريخه عام 1004 ثم شرح زروق على الاسماء الدمياطية بنفس الخط . ثم كتاب التيسير فى صنعة التسفير (يعنى تجليد الكتب) للشيخ الفقيه بكر بن ابراهيم الاشبيلي. الفه برسم المنصور الموحدي على ما يظهر وهو يثني عليه وعلى أهل بيته ويقول أنه لما رأى استحسانهم لشغله وحسن موقعه من

انفسهم لموافقته لمنازعهم الشريفة ومذاهبهم المنيفة اراد ان يعرفهم بعلمه بهذه الصنعة بعد معرفتهم بعمله وأن يدل غيرهم على ما وضع في هذا الطريق واخرجه من حال العدم الى الوجود والتحقيق الخ . وأهمية هذا الكتاب (اولا) في طرافة موضوعه فانه يدل على ان العرب ما تركوا بابا من ابواب المعرفة والصنائع والفنون الا طرقوه (وثانيا) في الكلمات الفنية والعبارات الاصطلاحية التى تستعمل فى هذه الصناعة المشحون بها الكتاب ثم كتاب في الصحبة وأدابها للقاضي ابي العباس احمد بن الحسن ابن عرضون بنفس الخط المنسوخ به الكتاب الاول والثاني في هذا المجموع . وتاريخه 1009 ثم شرح الاسماء الحسنى لزروق فالنصيحة له فالحزب الكبير للشادلي فشرح السنوسى لحديث المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء فتفسير الفاتحة له وهذه الكتب كلها معروفة فتقاييد في موضوعات مختلفة .

21) ديوان المتنبى ، نسخة مرتبة على حرف المعجم بمقدمة للاديب ابى جمعة المراكشي الشهير بالماغوسي ، في بيان أهمية شعر المتنبى وما له من الاعتبار عند ملوك السعديين الذين كان الماغوسي من كتابهم الملحوظين ، ولذلك

قام على خدمته بهذا الترنيب وباضافة ما اهمله غيره اليه . وفى الواقع ان النسخة قيمة جدا وبها زيادات مهمة من شعر المتنبى لا توجد بغيرها ، فضلا عما بهوامشها من التعاليق التي تعتمد تفسير بعض الالفاظ اللغوية او الدلالة على المعنى المراد او الاشارة الى مأخذ المتنبي للمعنى الذي يتضمنه البيت الخ . . وهي في مجلد وخطها مغربي جميل .

22) كتاب الرحمة في الطب والحكمة للشيخ الفقيه امام الحكماء وشيخ الخطباء جمال الدين محمد المهدى الصنوبرى ، وهو غير كتاب الرحمة المطبوع منسوبا للسيوطي فان هذا صغير ومرتب على ابواب خمسة وخال من كثير من التحريف المملوء به ذلك الكتاب المطبوع ، وهو بخط مغربي واضح في 100 صفحة بدون تاريخ ، ومعه في سفره كتاب طب العجم مما سال عنه كسرى من كان في مملكته من الاطباء ، يخرج فى جزء صغير وهو بنفس الخط .

23) كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالاندلس من شعراءالمائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب ، نسخة مغربية على جانب من الصحة مع ندرة النسخ الصحيحة من هذا الكتاب وخطها دقيق ولاتاريخ لها وهى تنفع فى نشر الكتاب الذي طالما حاوله المعتنون فلم يتهيأ لهم .

هذا ما استطعنا وصفه مما استرعى انتباهنا من مخطوطات هذه المكتبة . وثم مخطوطات اخرى مذكورة فى الفهرست الموقت للمكتبة وهى مما له اهمية بالنسبة الى موضاعاتها وإلى مؤلفيها ولكنا طلبناها فلم تكن موجودة بالمكتبة ، وما بقى من غير هذه وتلك التى وصفناها كله مما هو معروف ولا أهمية له في الجملة فتركنا الاستكثار به .

وقد كان لنا أن نكتفي بمخطوطات هاتين المكتبتين لانهما الوحيدتان اللتان تستحقان الذكر في تطوان ، ولكن الظروف المواتية جعلتنا نتقابل مع مكتبة اخرى تحتوي على مخطوطات مهمة وهي توجد الآن بتطوان مع صاحبها، على انه اذا انتقل عنها فلابد ان تنتقل معه الى حيث انتقل او الى موطنها الاصلي وتلك هي مكتبة السيد اليزيد بن صالح حاكم تطوان اليوم .

والسيد اليزيد هو من ذرية الولي الصالح سيدي ابراهيم ابن صالح دفين قبيلة متيوة الريف ، واسلافه أهل علم وفضل وقد كونوا هذه المكتبة بطول المدة وتتابع العلماء فيهم ومركزها الاصلي بقرية ازغار من قبيلة بني رزين من ناحية غمارة . ويقول السيد اليزيد ان مخطوطاتها نحو الالف. وما يصحبه هنا في تطوان انما هو بعض نفائسها التي يخاف عليها من الضياع كما حصل له في كتاب الذخيرة لابن بسام الذي سرق منه

وبيع للمستشرق الفرنسي ليفى بروفنصال ، وهى النسخة التى حملها المستشرق المذكور الى مصر وكانت من النسـخ التى جرى عليها طبع الكتاب هناك .

وعلى هذا فنحن بإزاء مكتبة ثالثة فى تطوان ، اتاحتها لنا فرصة سعيدة وهى تولية السيد اليزيد بن صالح منصب الحاكم بهذه المدينة ، فلنصف ما وقع عليه اختيارنا من مخطوطاتهـا الموجودة هنا :

1) ديوان مصباح، وهو شاعر مغربى من أهل القرن الثانى عشر اسمه علي بن أحمد بن قاسم بن موسى مصباح وبآخره مجموعة من رسائله الادبية وهو بخط الشاعر نفسـه وتاريخه سنة 1136 ومعه فى سفره شرح مختصر للامية العـرب وشـرح ابن مالك على قصيدته فى المقصـور والممدود وتقييـد لابن هشام اللخمى على ابيـات ابن دريـد فى المقصـور والممـدود ونصيحة الهلالى ونظم ابن غازي لنظائر الرسالة .

2) ديوان الشعراء الستة ، فى مجلد بخط مغـربى واضـح وصحيح مع تعليقات مفيدة وزيادات مهمة بهوامشه، كاتبه يحيى ابن علي بن عبـد الرحمـن القيسى وتـاريخه 549 والمقصـود بالشعراء الستة امرؤ القيس، وعلقـمة، والنابغة، وزهير وعنترة وطرفة ولشعر زهير في الـديوان روايتـان : الاولى للاصمـعى

والثانية لابى عمرو والمفضل ومعلوم أن ديوان الستة كان له مقام ملحوظ فى الدراسة الادبية بالمغرب والاندلس، ولا شك ان هذه النسخة قد مرت فى أيدي كثير من العلماء المحققين فهى لذلك مما يعتمد فى تحقيق شعر هؤلاء الشعراء وضبطه .

3) الجزء السابع من كتاب النوادر لابن ابى زيد القيروانى وهو فى مجلد ضخم بخط مغربى واضح ومبدأه الدعوى فى الاموال بالخلطة ومنتهاه كتاب التفليس وقد سبق ذكر هذا الكتاب فى مخطوطات المسجد الاعظم .

4) شرح مقصورة ابن دريد لناظمها. نسخة عتيقة فى مجلد تاريخها عام 706 وبآخره نظم فصيح ثعلب لمالك بن المرحل، مطبوع معروف .

5) كتاب المقتضب من التميز فى بيان اعتزال الزمخشري فى الكتاب العزيز، مجلد بخط مشرقى كان فيملكالشيخ سليمان الحوات ثم صار للسيد الطيب ابن الطيب بن صالح أحد أسلاف صاحب المكتبة اليوم .

6) مجموع به رحلة البلوي بخط مغربى دقيق تاريخه 819 ثم ديوان الحماسة مرتبا على حروف المعجم كان فى ملك ابن الونان الشاعر المغربى صاحب قصيدة الشمقمقية ثم صار الى السيد الطيب المذكور ، ثم طرف من كتاب أنس السمير

في نوازل الفرزدق وجرير، ذكر في آخره انه مقدمة الكتاب ومؤلفه كما يعلم من سياقه والاشعار المنسوبة فيه الي نفسه هو مصباح الشاعر الذي تقدم ذكر ديوانه ثم حاشية صغيرة على ديوان المتنبى فى رد بعض الاعتراضات الموجهة الى شعره لم يذكر مؤلفها .

7) مجموع به شرح زروق على المباحث الاصلية في التصوف ثم المقصد الشريف فى ذكر صلحاء الريف ، كتاب في تراجم العلماء والصالحين بالناحية الريفية من المغرب الشمالى ، ثم كتاب المعزى فى مناقب ابي يعزى . وهو احد صلحاء المغرب المشهورين فكتاب فى الذكر وآدابه منزوع الورقة الاولى ، وكل هذه الكتب بخط السيد محمد بن الطيب بن صالح .

8) كتاب الروض الانف للامام السهيلي شرح به سيرة ابن هشام ؛ كتاب مهم معروف طبعه السلطان الاسبق مولاي عبد الحفيظ ، وهذه النسخة عتيقة بخط يوسف بن محمد الزرهوني وتاريخها 974 .

9) كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، نسخة أميرية ذكر السيد اليزيد انها تامة ، والذي رأيته منها عدة أجزاء وهي بخط مشرقي جميل وقد محي اسم الامير الذي نسخت له من الورقة الاولى من كل جزء وناسخها اسمه موسى بن هاني، المالكي بتاريخ 978 .

10) الجزء السابع من كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الذي سبق التنويه به ، عند ذكر الاجزاء الموجودة منه في مكتبة المسجد الاعظم وتاريخ هذا الجزء عام 1179 .

11) كتاب زهر الاكم فى الامثال والحكم لابى علي اليوسى نسخة مضبوطة فى غاية الصحة بخط علي مصباح الشاعر الذي تقدم ذكر ديوانه. نقلها مباشرة من نسخة بخط المؤلف، وأثبت ضبطه للكلمات بمداد أحمر ، وهذا الكتاب هو احدى حلقات السلسلة المؤلفة فى شرح الامثال العربية من مثل كتاب الضبى وكتاب الميدانى وغيرهما ويزيد بذكر الاشعار المناسبة لموضوع المثل والحكايات الادبية وغير ذلك من الفوائد مع النفس العالى الذي عرف به اليوسى . وما أحراه بالطبع . تاريخ النسخة 1122 .

12) مجموع به كتاب الكنايات والامثال للقاضى ابي العباس احمد بن محمد الجرجاني ، في مجلد بخط مغربى جيد ثم شرح الماغوسى ، الاديب المراكشى الذي تقدم ذكره ، على لامية العرب ، المسمى اتحاف ذوي الارب بمقاصد لامية العرب ثم منظومة من مجزو الرجز فى علم المنطق للقاضى الاديب محمد بن الطاهر الهواري الفاسى .

13) شرح ابن السيد البطليوسى على ديوان سقط الزند للمعري مرتبا على الحروف فى مجلد بخط اندلسى واضح

وصحيح تاريخه 569 مهم بالنسبة لمؤلفه ولكونه الفه لمن طلبه منه وذكر فى طلبه انه قرأ ضوء السقط فلم يجده موفيا بالغرض.

14) ديوان ابن الخياط الدمشقى فى مجلد وسط ، غير أنه ينقصه بعض الاوراق فى أوله ، والنسخة صحيحة خطها مشرقى واضح ، فى قالب صغير ولاتاريخ لها .

15) ديوان الشهاب التلعفري . فى قالب الرباعى بخط مشرقي جميل وصحيح ، وهو جزء صغير وبه بتر في آخره فلذلك لايعرف تاريخه وبأوله هذه العبارة «الحمد لله هذا الديوان المبارك ؛ وهبه لي احمد بن عمر عرف بكنون الدوناسي الحيدي غفر الله لنا وله وكثر خيره آمين» .

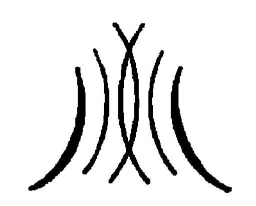
هذا اختيارنا مما أحضره لنا السيد اليزيد من مخطوطات مكتبته الصالحية. وبه ينتهى وصف الكتب المخطوطة المهمة الموجودة الآن بتطوان .

ولا يخفى انه توجد هناك فى مكتبات بعض الافراد بعض المخطوطات التى يمكن ان تكون لها قيمة ولكننا لا يمكن ان نتكهن بها .

ولا ان ننخل جميع مكتبات الخاصة لنعرف ما بها من لباب وقشر، وان كنا قد اعذرنا الا بسؤال بعض الافراد اصحاب المكتبات الخاصة ممن هم مظنة لان توجد عندهم بعض الاعلاق النفسية من هذا القبيل فنفوا أن يكون لديهم شئ مهم يستظهر

به فى هذا الصدد وهذا أقصى ما يمكننا عمله لمعـرفة ما فى الزوايا مـن الخبايا .

ونظن اننا بما قدمناه من وصف لمخطوطات المكتبـات الثلاث في تطوان قد حققنا رغبة معهد المخطوطات العربيـة او بعض هذه الرغبة في التعرف الى ما في هذا الركن الصغير من عالم العروبة، من بقايا ذلك التراث الذي يهتم به ويصونـه ليحيى به مجد العرب وتاريخهم العلمي .



النقد والقومية العربيـة

إذا كان لي من نظرة بعيدة أو قريبة القيها على هـذا الموضوع ، فإنها نظرة مستوحاة من مغـزى هذا الجمـع الذي ينفي جميع الفوارق الاصطناعية بين أبناء العروبة على اختلاف بلدانهم وتباعد أنحائهم ، كما ينبغي أن ننفي نحن جميع الفوارق الاعتبارية بين آداب أقطارهم العديدة في الماضي والحـاضر . ذلك أن الادب العربي وحدة لا تتجزأ في جميع بلاده، بالمغرب والمشرق ، وفي الاندلس وصقلية المفقودتين . فلا نعود نذكر الادب الاندلسي ولا الادب العراقي ولا أدب غيرهما من الاقطار العربية سواء التي طوتها أحداث التاريخ أو التي بعثتها النهضة الحديثة . فإنما هو أدب واحد تشارك في انتاجـه بلاد متصل بعضها ببعض كانت في وقت ما ، محكومة بحاكم واحد . ولم تزل بعد استقلال بعضها عن بعض تحكم بقانون واحـد ثم هي متشابهة في التكوين والخلق والمزاج . واللغة التي تعبر بها عن أفكارها وخواطرها وحاجاتها : واحدة . فـكيف لا يكون لها أدب واحد ؟ وليس هذا فقط فالمعاني والافـكار بل القوالب والاساليب هي نفسها التي يتداولها الجميع لان الرصيد الادبى

- القي هذا الخطاب في مؤتمر الادباء المنعقد بالقاهرة في دجنبر 1957

واللغوي معا تراث مشاع بين أبناء هذه الاقطار كلهم ما طرف منه أوتلد ، وما قدم أو حدث ، كله معهود لديهم . متعالم بينهم ، اليه يرجعون . ومنه ينفقون . فالتجاوب الفكري بين الادباء في عصرنا ، هو ما كان عليه الحال ، عصر الجاهلية فى الجزيرة العربية : يتوافد الشعراء والخطباء والمقاول من مختلف قبائل العرب ، الى عكاظ وغير عكاظ ، من الاسواق والمواسم الادبية يتساجلون ويتبارون بالكلم البليغ الفصيح تسير به الركبان وتحفظه الرواة، كما يقع اليوم تماما بالقصيدة من نظم شاعر مطبوع والمقالة من انشاء كاتب بليغ ، تنقلهما الصحف السيارة فإذا بهما على كل لسان وبين يدي كل مثقف من ابناء العروبة فى اقطارها المختلفة . وكما كان أيضا فيما بين عصر الجاهلية والعصر الحديث ينشد المتنبي أبيات ابن عبد ربه التي يقول فيها :

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

فيقول شاعر العربية الاكبر إيه يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا .

ويؤلف ابو الفرج الاصفهاني كتابه (الاغاني) فيحمل من حينه الى خليفة قرطبة ويجيزه عليه بألف دينار . فماذا يعنى هذا الا ان الامة أمة واحدة وأدبها الذي هو مستمد من واقع حياتها

وتاريخها المشترك ومثلها العليا أدب واحد ليس بينه من خلاف كالماء الذي يخرج من نبع واحد لايختلف الا فى ذوق المرضى والمنحرفين .

وهكذا رأينا أئمة الادب العربي فيما مضى يدرسون هذا الادب ويخضعونه للبحث على أنه وحدة شاملة لا تفرقة بينها ، فالجاحظ وابن قتيبه من المشرق وابن عبد ربه وابن رشيق من المغرب، كلهم على هذا الرأي .

ومن ميز أدباء الاقطار كالثعالبي في اليتيمة والعماد الاصبهاني في الذخيرة فانما فعل ذلك لتمييز شخصياتهم لالتمييز أدبهم. فلما أخذنا نحن بدعة الوطنية الضيقة ومعها تاريخ الادب حسب الاقطار والعصور، عن أوربا جعلنا نلتمس العلل والاسباب لتمييز أدب كل قطر عربى عن أخيه ، ونفرده وان تنادى هو بكل ما فيه أنه من بقية الآداب الاخرى في الصميم . وربما كانت تلك الاسباب والعلل أوهى من خيط العنكبوت وربما لم يتجه موجب الافراد للمفرد نفسه ، ولكن هكذا كتب تاريخ الادب الفرنسي أو الايطالي أو الاسباني فليكن تاريخ الادب العربي كذلك على رغم أنف أبي ذر !

وفى امكان الاديب الحصيف الذي يستقل بالرأي ولايكون امعة فى الحكم أن يرجع الى أقوال بعض المفرقين ، والكتاب

فى ميزات أدب بعض الاقطار العربية التى بها فيما يزعمون يختلف عن أدب غيرها ، فانه يجدها من التهافت والبطلان بحيث لا تثبت لحظة أمام النظر والتحقيق وأنه ليجد بين أديب وأديب من قطر واحد أكثر مما يجده بين أدب قطر وقطر آخر من تمايز ولانقول من خلاف .

وهناك قضية شكلية لها علاقة بالموضوع وهى هذا التقسيم الى العصورالذي ينبغي ان يعاد فيه النظركالتقسيم على الاقطار لانه كذلك تقليد محض لمنهاج البحث في الادب الاوربى ولعله تقليد له في العرض دون الجوهر . والا فليس بلازم ان يكون لعصر الجاهلية أدب ولعصر صدر الاسلام أدب' ولعصر الامويين أدب ، وهكذا حتى تنتهى العصور . وتكون النتيجة تعصب قوم لادب وآخرين لغيره مما لا يوحى به الا النزعات الاقليمية وهى الى مذهب الشعوبية اقرب منها الى القومية العربية .

فالسياسة لا تؤثر هذا التأثير البليغ في تكييف المذاهب الادبية وهى بالفعل لم تؤثر في أدب هذه العصور بما يجعله يتمايز حتى يستقل عصر عن عصر ، ولقد كان أئمتنا الاولون ادق نظرا وأقوم ميزانا حين جعلوا هذه العصور الثلاثة عصراً واحدا ، واعتبروا نتاجها الادبى نتاجا عربيا اصيلا ، لا هجنة فيه ولا اقراف . وذلك حين قرروا الاستشهاد به على قواعد

العربية وعلوم اللغة .

والامر وان كان يتعلق بالاحكام اللفظية والقوانين النحوية فانه يشمل المعانى والافكار ايضا لان العربى ، الذي بقي على سليقته ولم يؤثر الاختلاط في نفسه ، لا شك ان تصوره للاشياء والامور وطريقة أدائه لذلك التصور لم يختلف كثيرا في الاسلام عما كان عليه قبله ، اذا استثنينا ما يخص العقيدة الجديدة. ولذلك فنحن لا نجد فارقا كبيرا بين شعر الفرزدق من العصر الاموي وحسان بن ثابت من عصر صدر الاسلام وزهير بن ابى سلمى من عصر الجاهلية مثلا . أفلا يكون ذلك مما يرجح جعل هذه العصور الثلاثة في تاريخ الادب العربى عصراً واحداً يتميز بأنه العصر الذي بقيت فيه اللغة نقية لم تشب بما يكدر صفاءها من ناحية اللفظ ولا بما يكسف سناها من جهة المعنى .

وبعده يأتى العصر العباسى الاول فالثانى فعصر المماليك على ما اصطلح عليه مؤرخو الادب ونرى أن هذه العصور الثلاثة تكون أيضا عصرا واحدا هو عصر ازدهار الادب العربى بما أدخل عليه من معان وأفكار وأمثلة وصور وطرائق وأساليب لم يعرفها من قبل ، نظرا لاتساع دائرة المعارف العربية واستبحار العمران وانتشار الحضارة . ولقد سمى النقاد الاولون أدب هذا العصر بالادب المولد، وسموا أدباءه بالادباء

المولدين ، وهى تسمية لها حظ من النظر ، فإن توليد المعانى التى لم تكن معروفة عند العرب هو مما تميز به هذا العصر عن العصور التى قبله . والتسمية وإن كان يراد بها التنقيص عند أئمة اللغة الذين لا يحتجون بمولد أي غير عربى سليقة ، فهى عند نقدة الادباء مما يشعر بالمدح للمعنى الذي أشرنا إليه وعلى كل حال فالعصر الثانى فى تاريخ الادب العربى هو الذي يبدأ بقيام الدولة العباسية وينتهى بعصر النهضة الحديثة. وليس ثم موجب قوي لتقسيم هذا العصر الى ثلاثة أقسام لان ما طرأ على اللغة فيه أو على الادب من تجدد واتساع لم يختص به القسم الاول دون الثاني . وأما الثالث فقد كان عهد وقوف وهو ذيل لا يعدو أن يكون من تتمة العصر نفسه .

يبقى بعد هذين عصر النهضة الحديثة وهو لا شك عصر نشطت فيه اللغة العربية من عقالها بعد ذلك الجمود الذي لازمها ، مدى قرنين او ثلاثة من الزمان ، وتحررت الافكار وانتشرت المعارف والفنون ، واطلع أبناء العرب على آداب الامم الاخري مما لم يتح لهم من قبل، حتى في العصر العباسى ، فتعرفوا الى دنيا جديدة من سحر الشعراء وخيال الكتاب وفنون من القول لم يكن لهم بها المام كالقصة والمسرحية فلم يبق الامر محصورا في توليد معنى ولعب بلفظ ، ولكنه

صار تحليقاً في سماء الشعور وهيماناً في أودية الخيال . فتلقح الادب العربى بلقاح الآداب الحية واستوعب من الاحاسيس والخلجات النفسية والقلبية ومن الخواطر والالتماعات الفكرية والذهنية ما لم يسبق ان حام حوله أديب عربى . ولا عبر عنه معبر بلغة العرب .

ومن العجيب ان هذه اللغة الخالدة التى تتسع اليوم لكل الافكار الحديثة من فلسفية واجتماعية وعلمية وفنية وتؤديها بكل وضوح ، هى هى بنفسها لغة عصر السليقة ، ولغة عصر التوليد ، السابقين . فالاديب العربى فى هذا العصر يتغلغل فى وصف اسرار النفس البشرية ، ويحلل مشاعرها العميقة ، حتى يجسمها تجسيما يوشك أن يلمس باليد ، ويغوص الى اعماق القلوب يستخلص مكنوناتها الدفينة ، ويجلوها عواطف انسانية تكاد تنبض بالحياة . وهو فى ذلك كله لا يستعمل الا الكلمات المعهودة ، والمفردات المعروفة ، لكل ناطق بالضاد منذ أن فتق الله بها لسان يعرب بن قحطان . فما أشبه طاقة هذه اللغة بطاقة الذرة التى كانت مذخورة فيها حتى قيض الله لها من يكشف سرها فى هذا العصر . وقد اتسع المجال فى الادب العربى الحديث بفضل اتصاله بالآداب العالمية لاكثر مما ذكر فتكونت فيه مدارس ونشأت مذاهب وينتظر منه أن يؤدي

رسالة سامية للامة العربية وللانسانية جمعاء ولهذا فهو ما زال لم يستوف أغراضه في هذا العصر بل إن عصره هذا لم يزل في مباديه .

ورسالة الادب العربي ، رسالة مقدسة يجب ألا تقتصر على الاغراض اللفظية ، ولا على المتعة الذهنية . ولا على المعاني الذاتية التي لا يشعر بها الا الاديب المتكلم نفسه ، انها رسالة! ومفهوم هذا اللفظ مما ينبغي الا يعزب عن البال ، فهو مهمة تقتضي الهدم والبناء والعمل الجماعى المؤدي الى الغاية التي أدت اليها رسالة النبيئين من قبل . غاية فتح الآذان الصم ، والاعين العمي، والقلوب الغلف، على دعوة الحق التي تنقذ البشرية من ضلالها الحديث ، كما أنقذتها بالامس من ضلالها القديم . وانها مقدسة : وليس المراد بهذا الوصف معناه الخيالي الذي يبتذله به الحالمون . وإنما المراد به الاكبار من شأن هذه الرسالة ، ذات المسئولية العظمى ، التي لا يتحملها الا ابطال الكفاح من اجل القيم الانسانية العليا، فهم المجاهدون الذين يزرى مداد اقلامهم بدم الشهداء .

ان واقع العالم العربي بما يصطخب فيه من التيارات الاجتماعية المتدافعة. وما يتخونه من الاتجاهات السياسية المتأتية من مسايرته لتلك التيارات ، هو نفسه أول ما يجعلنا نعتقد أن

رسالة الادب لم تؤد كما يجب الى الجمهور العربي، حتى نجعله لايستجيب لدعوة غير متفاعلة مع قوميته العربية مهما كان مصدرها . وهذا يحتم علينا أن نأخذ الامر بجد ، ومن الجد أن نراجع النصوص الادبية في لغة الضاد لنتخير منها المادة الاساسية التي يمكن أن تدخل في بناء صرح الادب العربى وعلينا أن نعني باللب دون القشر، وأن يكون اهتمامنا بالمعانى والمقاصد لا بالالفاظ والقوالب، فإن مما درجنا عليه أن ندرس الادب للمتعة لا للتوجيه . وأن نعجب بالصيغ الكلامية ولانحفل بما تتضمنه من دلالات معنوية ، وقد آن لنا أن نسقط من الادب العربى كل نص لا يؤدي مهمة في تثقيف فكر أوتغذية عاطفة أو بعث روح في شبابنا الطموح ومن ذلك أدب المجون والاستجداء والحيل اللفظية المسماة بالمحسنات البديعية ، ثم نعوضها بالنصوص الهادفة التي أهملنا كثيرا منها حتى بقي أدبنا ضاويا يشكو فقر الدم . . وكما كان تقسيمنا الادب بحسب الاقاليم والعصور جناية على وحدته، كذلك كان اعتبارنا للادب صناعة لفظية وزخرفة كلامية ، جناية على رسالته. فأعظم النصوص الادبية في اللغة العربية وهو القرآن لا يعد في مادة الادب عند كثيرين . . والطريقة التي ندرس بها هذا النص هى كما تعرفون جميعا تبين الآثار التى تركها فى الادب من حيث التعبير والاسلوب فحسب. وأما دراسته هو دراسة موضوعية

على الاقل كما ندرس ديوان الحماسة أو رسائل البديع مثلا فهذا ما لايهتم به أحد . وإلا فأين هو هذا الكتاب في أدب العرب الذي يعرض ولو سورة واحدة من القرآن ، ولتكن سورة يوسف مثلا ، ولو على أنها قصة : في نماذجه الادبية ؟

ومثل هذا يقال في الحديث الشريف : هذا الكنز الثمين الذي لايكسبنا بلاغة وثروة كلامية فحسب ، وإنما يكسبنا ثقافه فكرية وخلقية ويزيدنا ايمانا بالقومية العربية التى أدت للانسانية رسالة اصلاحية عز لها النظير . وتأتي بعد ذلك كتب عديدة فى الفقه . والكلام ، والتصوف ، نبعدها عن حظيرة الادب وهى تحتوي على فصول من أقوى ما كتب فى الدفاع عن عقيدة، أوتقرير حكم ، أو تحليل خاطر نفسى، وان الفصل الواحد منها ليفيد فى اثارة العقل وتلقين الحجة أضعاف ما تفيده كثير من الرسائل المتكلفة والقصائد المزيفة . وتأتى كتب التاريخ والرحلات وفيها من العبر والدروس ما لايصح للفرد العربى أن يجهله ، لان جهله هو الذي يبقيه على هذه الحالة من الرضا والاستسلام .

والخلاصة أن أدبنا لم تكن له رسالة يعنى بها فى الدرجة الاولى الا رسالة اقامة ألالسنة وشحذ الاذهان فلذلك لم يعن

بهذه الاثار القيمة ولم يدرسها دراسة المتنخل لها المتعرف لدخائلها . فنحن اذا اردنا أن نجعل من أدبنا أدبا حيا ذا رسالة سامية فلابد لنا من اعادة النظر فى مواده وأصوله وترتيبها على حسب المقاصد والاغراض مجسمين منها كل ما له دلالة تطورية ودعوة تحررية وموضحين للاجيال الناشئة أهداف الرسالة الانسانية التي يقوم الادب العربي على حفظها ورعايتها وهداية البشر الى ما فيها من خير وسلام ، ومعرفة وإيمان ،

المغرب في حلى المغرب

لابن سعيد المغربي

حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف

I

هذا الكتاب هو من أمهات كتب الادب والتراجم التي خلفها الاندلسيون وقد تعاقب على تصنيفه في مدة مائة وخمس عشرة سنة ستة أعلام من أهل الاندلس: أبو محمد الحجاري وأبناء سعيد الخمسة : عبد الملك وولداه احمد ومحمد فموسى بن محمد ثم علي بن موسى الذي هو في الحقيقة جامع شتاته وناظم درره .

وأهمية هذا الكتاب في التعرف إلى أدب المغرب والاندلس لا تخفى على أحد ممن يعاني هذه المباحث بحيث يصح وضعه في مقابل المجموعة الكبيرة من الكتب المؤلفة في هذا الصدد والتي تشمل الحدائق لابن فرج الجياني والبديع لابي الوليد حبيب وقلائد العقيان ومطمح الانفس للفتح بن خاقان والذخيرة لابن بسام وزاد المسافر لصفوان بن ادريس وتحفة القادم لابن الابار وغيرها لان هذه المؤلفات انما تتناول أدباء العصور التي ألفت فيها على حين أن المغرب يتضمنها جميعا ويزيد عليها

بمن روى عنهم وعاصرهم إلى أواخر القرن السابع اعني الى وفاة علي بن موسى آخر المؤلفين للكتاب .

وكان المغرب من نفائس الاعلاق التي تدخرها دار الكتب المصرية وتنفرد بها فلم نكن نعرف له وجودا هنا في خزائن المغرب ولا في مكاتب اسبانيا وهي مظنة وجوده والبلاد التي الف في ادبها وتراجم ابنائها . وغايه ما كنا نعرفه منه هذه النقول التي تصادفنا في الكتب التي استمدت منه وخاصة نفح الطيب للمقري .

ولقد اطلعت على نسخة منه مأخوذة بالآلة الكاتبة عن نسخة دار الكتب المصرية منذ نحو سبع سنوات عند الاديب المصري الاستاذ عبد العزيز الاهواني وكنت لقيته بالاسكوريال من اسبانيا فتصفحتها ونقلت منها بعض الفوائد وهناك تمنيت ان لو قيض الله له اديبا معنا بهذه الاثار القيمة فعمل على نشره وتحقيقه وقلت للاستاذ الاهواني : ومن له غيرك ؟

وحقيقة فان هذا النص الادبى النفيس يجب ان يتوفر ناشره على ثقافة ادبية واسعة وان يكون مطلعا على ادبيات المغرب وتراجم رجاله فضلا عن الثقافة العامة التى يلزم ان يتحقق بها كل ناشر ،

ولحسن الحظ فقد اتيح له ناشر من الطبقة الرفيعة من

ادباء مصر هو الدكتور شوقي ضيف المعروف بأبحاثه الادبية القيمة وآثاره الطائلة في عالم التأليف والنشر ولقد سلك في تحقيقه والتعليق عليه الطريقة العلمية التي هو بها قمن ، فقام اولا بإعداد النص الكامل للكتاب وكان ينقص مخطوطته التي توجد بدار الكتب قطعة مهمة وقع العثور عليها مؤخرا بمكتبة في احدى القرى المصرية ، وذلك فضلا عن اضطراب اوراق المخطوطة وعدم تنظيمها كما يجب ، فعمل الناشر الفاضل على الحاق القطعة المذكوره بمكانها وترتيب اوراقها الترتيب اللازم . ثم اخذ في مقابلة النصوص الادبية والتاريخية بالمراجع والمظان العديدة التي ذكرها في مقدمته واستعان كثيرا في هذا الصدد بنفح الطيب الذي يعد المغرب من مصادره المهمة وقد صحح بهذه المقابلة كثيرا من الخطأ الذي كان يوجد في نص المخطوطة وكمل النقص ونسق الكتاب على الترتيب الذي وضعه عليه المؤلف مستدلا في الترتيب خاصة بالفهارس التي توجد بآخر المخطوطة .

وبعد ذلك جاء دور الضبط والتعليق فضبط الكتاب كله بالشكل التام ، وعلق عليه تعاليق مفيدة جدا ؛ منها ما هو من قبيل اختلاف النسخ بحسب الاصول التي اعتمدها في المقابلة والتصحيح ، ومنها ما هو شرح لبعض الكلمات اللغوية والمعاني

الخفية في الاشعار او الاسجاع التي يتضمنها الكتاب ، ومـنها تراجم للاشخاص المذكورين في الكتاب أو اشارة الى المراجع التي ترجمتهم ؛ تعين الراغب في التوسع واستكمال معلوماته في هذه الناحية ، وهو يذكرها بالجـزء والصـفحـة إن كان الكتاب المرجع مطبوعا وبالورقة إن كان مخطوطا مع ذكر مكان وجوده طبعا .

ولعل هذه الخطة هي أكمل خطة في نشر نص من قبيل كتاب المغرب له أهمية تاريخية وأدبية ، فالتعاليـق التاريخيـة لاكمال التعريف بالشخص أو الحادث الذي لم يستتم المؤلف الكلام عليه . والتعاليق الادبية اما لتصحيح الـنص أو تفسـير بعض الغموض الواقع فيه. من غير توغـل في ذلك ولا إكثار، بنقل ما قالته المعاجم اللغوية في اللفظ اوقررته كـتب القواعد في التركيب، لان ذلك يخرج عـن حد التعـليـق الى الشـرح المبسط الذي يكون قرا" هذه الكتب غالبا في غنى عنه .

ولقد صدر الناشر الكتاب بمقدمة ومدخـل يـقعـان في اكثر من 30 صفحة تحدث فيهما عن الـكتاب ومؤلفه وفـكرة نشره والطريقة التي اتبعها في تحقيقه ، وألم إلماما طيبا بتاريخ الشعر الاندلسي او قل المغربي والكـتب المصادر التي يرجع اليها فيه ، وهكـذا لم يقدم الـكتاب غفلا من التعريـف بـل لم

يترك شاذة ولا فاذة مما يتعلق بالموضوع الا احاط بها وأشار اليها

واني لا اكتم شعوري في اعجابي بعمله وتقديري لجهوده وقد كنت اعتقد ان هذه الكتب المغربية قلما يتمكن من خدمتها غير مغربى - والآن يقترب أبناء العروبة بعضهم من بعض ويعودون كما كانوا اسرة واحدة فلا يجهل المغربى أحوال اخيه المشرقى ولايخفى على المشرقى أمر من امور اخيه المغربى ولاسيما اذا كان الامر متعلقا بهذا التراث الادبى الضخم الذي يعد مفخرة للجميع والذي يجب ان تتضافر جهود الجميع على ابرازه من العدم الى الوجود وتجليته للناس على منصة الفخار .

وبرغم ان تحقيق الكتاب وضبطه قد بلغا الغاية الممكنة من التحري والاعتناء فان هناك هنوات لايسلم من مثلها كتاب وهفوات لا يخلو من نظيرها كاتب وإني لما انشده من التعاون على نفض الغبار عن آثار اسلافنا الكرام وعرض انتاجهم الخصب بالمظهر اللائق به من التحرير والاتقان أحب ان انبه عليها وأرجو ان تقع من حضرة الدكتور موضعها حتى اذا نشر (المغرب) في طبعة ثانية قريبا ان شاء الله اخذ بها او بما كان منها صوابا اذ ما ابرىء نفسي من الخطأ أيضا .

فمن ذلك أنه في أول الصفحة 20 من المقدمة وقع اسم ابن زاكور بالذال المعجمة بدل الزاي وهو خطأ مطبعي في

الغالب لان اسم هذا الاديب قد جاء في أثناء الكتاب[1] على الوجه الصحيح ولكن بما أن القاريء قد يشتبه عليه الامر ولا يدري أيهما الصواب وجب التنبيه عليه هنا .

وكذلك ابن الشمر ضبط في ص 47 بفتح الشين وكسر الميم على وزن كتف وفي ص 50 ترك بغير ضبط ولما جاءت ترجمته في ص 124 ـ 127 ضبط بسكون الميم وقد تكرر اسمه في الترجمة وضبطه كذلك واظن هذا هو الصواب فيه فكان الاولى ضبطه من اول وهلة بهذا الضبط .

وفي صفحة 58 يقول المؤلف وهو يترجم لبعض الزهاد : (وكان أكثر دهره مفكرا وجهه على ركبته ثم يرفع رأسه فيقول : أي وحله) وقد علق الناشر الفاضل على هذه الكلمة بقوله ـ هكذا في الاصل ـ وهي عبارة تقتضي التخطئة او التوقف وأرى أن العبارة منسجمة مع حال الرجل التي وصفها المؤلف فهو يفكر في الحياة والمصير ويطرق ويطيل التفكير وحين يرفع رأسه يقول : اي وحلة : بفتح الهمزة وتشديد الياء يعني اي ورطة هذه التى وقع فيها الانسان أو بكسر الهمزة وسكون الياء بمعنى نعم أي أجل ! هي ورطة ! والمعنى على القسم وان لم يذكر فى اللفظ . وعلى كل حال فوحلة اسم للمرة من وحل يحل اذا وقع فى الوحل وهو الطين .

1) صفحة 274

ويتوسع فى معناه فيستعار للوقوع فى الورطات التى لاتخلص منها .

وفى صفحة 76 وردت هذه الابيات فى مليح سرح من حبس :

صفح السرار عن القمر   وبدا وقد كان استتر
كتب السرور لناظري   لما رآه قد ظهر
هذا امان للجفو   ن من المدامع والسهر

وقد شكلت كلها على الوجه الصواب الا كلمة السرور فانها جاءت منصوبة وحقها الرفع لانها فاعل كتب ويحق وضع نقطتين بعد لفظ ظهر فى آخر البيت الثانى لان ما بعده هو المكتوب فيدل على ذلك بالنقطتين المذكورتين على ما اصطلح عليه اهل الاملاء الحديث .

وفى ص 81 ثلاثة ابيات اولها :

ولرب حان قد ادرت بديره   خمرالصبا مزجت بصفو خموره

وقد علق الناشر الفاضل على لفظة حان بما يلى :

«حان : خمار او الحانة نفسها . وفى الذحيرة : خان بالخاء ولا معنى لها» ويظهر لنا ان ما فى الدخيرة هو الصواب لان المراد بالخان النزل والفندق وهو قد يكون له دير فيه رهبان وفيه خمر فاوى اليه الشاعر على عاداتهم واما الحان فما عهد

ان يكون فيه دير وليس ذلك من شأنه :

وفى صفحة 84 وقع هذا البيت :

كأن هامته والريج يحمـلها   غراب بين على بان النقا نعقا

هكذا جاءت كلمة الريج بالراء والياء والجيم ولا معنى لها. وظاهر ان البيت فى وصف رأس مقطـوع محمـول على رمح والرمح يسمى الزج بضم الزاي وتشديد الجيم فصـواب البيت حينئذ ان يقال : كأن هامته والزج يحملها . .

وفى صفحة 89 فصل فى ذم مؤاخ . وقد جاء فيه : « بيض الانوق من رفده امكن» وضبط لفظ الانوق بفتح الهمزة وسكون النون وضم الواو وهو الانوق بضم النون وسكون الواو للعقاب الطائر المعروف ويضرب به المثل فى العزة فيقال هو اعز من بيض الانوق لان العقاب تضع بيضها فى شواهـق الجبـال فـلا يوجد اليه سبيل :

وفى ص 91 جاء هذا البيت :

بددت ريح الصبا لؤلؤه   فانبرى يوقد عنه سرجا

وضبط الصبا بالكسر وهو خطأ مطبعى لا شك فيه . لان الصبا : الريح الشرقية . مفتوحة الصاد .

وفى صفحة 107 شعر فى المجبنات منه :

هات التى ان قربـت جمـرة   فهي على الاحشاء كالمـاء

وقربت مبني للمفعول فجمرة ينبغي أن يكون منصوبا على الحال لامرفوعا كما وقع في الطبع . وقد جاء بعد هذا البيت :

وكلما عض بها لائم تبسمت عن ثغر حسناء

ولا يخفى أن لائم مصحفة عن لائم .

وفي الصفحة نفسها أورد المؤلف بيتين في قضيب آس وصل الى الشاعر من محبوبه . وثاني البيتين هو هذا :

اتى كاسمه آس لما بى من الجوى
فحل حلول السعد والمال واليمن

وقد كتب الناشر الفاضل على كلمة آس قوله : «هكذا فى الاصل» فان كان يعنى أن حقها النصب اي أن يقول الشاعر أتى كاسمه آسيا فذاك . وإلا فلا موجب لهذا التعليق على أن النصب فى الكلمة ليس ضربة لازب إذ لايمتنع توجيه رفعه بحسب القواعد . وقد يقال انه باق على نصبه وأجرى الوصل مجرى الوقف .

وفى ص 116 قطعة شعرية منها هذا البيت :

أو ما ترى أوتارها قصد القنا وحبالهن ذوائب الفرسان

وهو يصف خيام قوم محاربين وقد وقع ضبط كلمة قصد بفتح فسكون . ويظهر لى أن الصواب كسر القاف مع فتح

الصاد فانه يقال رمح قصد بوزن كتف وقصيد بمعنى متكسر والرماح بينهم قصد بكسر ففتح وعلى هذا يفسر البيت .

وفي ص 122 فقرة نصها : «زففتها بنت ليلتها عذراء . وجلوتها عليك كريمة فكرها حسناء» وعلق على فكرها بقوله في هامش الذخيرة : «فكرتها» وأياً كان فان كريمة مضافة الى ما بعدها وقد جاءت في الطبع منونة وهو ولا شك خطأ مطبعي .

وفي ص 133 وردت هذه العبارة : « وفي ابن حفص المتقدم الذكر يقول» وصوابها : «وفي ابي حفص» على مانعطيه الاشارة الى المذكور قبلها .

وفي ص 143 ورد هذا البيت :

ولادة قد صرت ولاده   من دون بعل فضح الكاتم

وقد ضبطت ولادة في أوله بضمة واحدة وحقها التنوين محافظة على الوزن وان خولفت قاعدة نداء المفرد العلم . وقد ورد مثله منونا في شواهد العربية كما هو معلوم .

وفي صفحة 145 وقعت هذه العبارة في وصف قاض : «وكان يدخل المسجد وعليه رداء معصفر وحذاء صرار» وضبط صرار بكسر الصاد وفتح الراء مع التخفيف وأظن أن صوابها فتح الصاد وتشديد الراء بصيغة المبالغة .

وفي ص 153 وردت هذه العبارة والكلام على أحد القضاة

«ومدار فتياه على بقي وعبيد الله بن يحيى» وقد ضـبط اسم بقي بشدة على الياء وفوقها فتحة ولا يخفى أن الصـواب في ضبطه الكسر والتنوين مع التشديد ان كان أصله الصفة والفتح فقط بدون تشديد إن كان أصله الفعل .

وفي ص 159 وهي خاصة بترجمة القـاضى أبي الوليـد يونس بن عبد اللهبن الصفار من بني مغيث ما نصه : واستخلف على القضاء ابنه مغيث بن محمد» ولا يصـح هذا وقـد علم أن اسم والـده يونس فيجب التحقق منه .

وفي ص 162 في ذكر أحد القضاة: «وهو مقيم على حاله الى وقت املاء هذا الكتاب وقد نيف على الثمانين . حسـن البقية،» وضبط حسن بضم الحاء وسكون السين ولعل الصواب فتح الحاء والسين معا .

وفي ص 168 زجل لابن قزمـان منه هذا الشطر : « قد حط فيه السيف حطاً لا يفهم» بالحاء المهملة في الفعل والمصدر ولا يخفى أن المقام للخاء لا للحاء لان المراد تشبيه أثرالسيف بالـكتابة وهى الخط . وبدون ريب هذا خطأ مطبعي .

وفي الصفحة التي تليهـا في زجـل آخـر للمذكور هـذا البيت :

والرياض تلبس غـلالا   من نبات فحـل زمرد

وضبط لفظ فحل بفتح الفاء وسكون الحاء ولا معنى للفحل هنا وإنما المراد ان النبات (فى حال) الزمرد يشبه به فى حسن خضرته وجمال نضرته فضبط فحل بسكون الفاء وفتح الحاء ولا زال هذا اللفظ مستعملا عندنا في العامى بهذا المعنى فهو من قبيل النحت في الفصيح .

وفى ص 170 بيت من زجل له أيضا هو هذا :

ونجوم السعد تطلع   ونوار اليمن تفتح

وضبط تفتح بفتح التاء الثانية مع التخفيف وأرى تشديدها فيكون بصيغة الماضى لان النوار مذكر فى العامى والفصيح فاذا لم تشدد التاء الثانية وجب رد تفتح الى يفتح .

وفى ص 183 ورد هذا البيت لعبد الله بن الناصر .

أتاك تعبيري ولما يحل   منى على أضغاث أحلام

وكان شاعر أهدى اليه ياسمينا أبيض وأصفر مع شعر يقول فيه :

من ياسمين كالنجوم تبرجت   بيضاً وصفراً . والسماح يعبر

فكان تعبير هذا الامير ان أجازه بدراهيم ودنانير ولم يحل على أضغات الاحلام . فيحل حينئذ بضم الياء وكسر الحاء من أحال الرباعى الذي مصدره الاحالة والاسم منه الحوالة لا من حال يحول كما ضبطه الناشر الفاضل .

وفي ص 201 لغز فى المبخرة وهو هذا :

وجائمة لها ابن مسـتطـار يفارق جسمه عند افتراق
ولم أر قبله من ذي نعيـم يحرق جسمه والروح باق
إذا صاحبته لم يبد شخصا ولايخفى عليك لدى التلاقي

ويظهر لي أن صواب عجز البيت الاول : «يفارق جسمه عند احتراق». فالفاء واقعة مكان حاء والا فتعبير «يفارق جسمه عند افتراق» لا طائل تحته والتصويب وإن كان يؤدي الى هذا المعنى أيضا فإن فيه تفننا في اللفظ مع موافقته للصورة التي تضمنها البيت الثاني بل أن هذا البيت لايعدو أن يكون مفسرا للاول .

ثم إن يحرق في الـكـتاب وقع ضبطه بصيغة المبنى للفاعل والصواب ضبطه بفتح الراء على المبنى للمفعول. كما أن التلاقى كتبت بدون ياء والصواب اثباتها .

وفى صفحة 203 هذا البيت :

رجعت على رغم الوفاء الى الصبر كماصبر الظمآن فى البلد القفر

وقد ضبطت فيه كلمة صبر بكسر الباء والصـواب فتحها وهو غلط مطبعي لاشك .

وفى ص 221 وقع هذا البيت من قطعة :

هذا هو الليل البهيم بدا على القمر المنير

هكذا بوضع الميم من كلمة البهيم فى حيز الشطر الاول

وبضبطها بالسكون والصواب رفعها وجعلها في مبدإ الشطر الثاني ليستقيم البيت .

وفي صفحة 267 موشحة منها هذا السمط :

مثل حالي حقه أن يشتكى   كمد اليأس وذل الطمع

وقد وقع شكل يشتكي بفتح اليا' وكسر الكاف والصواب ضم الياء وفتح الكاف لتنسجم العروض مع نظائرها في السموط الاخرى . وظننت أولا أنها غلطة مطبعية فإذا بي أرى كمد وذل في العجز منصوبتين وحقهما الرفع .

وفي ص 281 زجل منه هذا الشطر :

وانا ذاب نحسوها ليل نهار .

وقد ضبط فيه إنا بكسر الهمزة وتشديد النون وأثبتت ذا بلصقها وهي معجمة وب مكسورة بازاء نحسوها ولعل الناشر الفاضل تصورها مثل هذه الباء المصرية التي تدخل على الفعل المضارع في درج الكلام . والذي يظهر لي أن يضبط انا بفتح الهمزة والنون مخففا على صورة ضمير المتكلم وحده وداب كلمة واحدة بدال مهملة وبا' مفتوحة أصلها دأبا ثم خففت بتسهيل الهمزة وحذف الالف وكذلك نستعملها في اللفظ العامي والمراد على كل حال معناها اللغوي وهو الاستمرار والعادة والشأن أي وانا شأني وعادتي او على الاستمرار نحسوها ليل

نهار . ولا يعكر علينا كون الفعل ـ نحسوها ـ مفتتحا بنون المتكلم ومعه غيره لانه كذلك يستعمل في العامي حالة الافراد والجمع فيقال انا نكتب وانا نقرأ وهكذا .

ويصح كسر الباء من كلمة دأبي أي عادتى كما لايخفى على الاستعمال الفصيح فيكون التقدير وأنا دأبـي أي عادتى نحسوها ، ولكن عدم همز الالف وحذف الياء التي بعد البـاء يرجع ان أصلها كان دأب بفتح الباء كما قلنا أي صيرها مثـل مكة في قصد حجيج الشعراء اليها

وفي ص 283 زجل جاء فيه :

قاضي يعطي عطية الامـرا

رد غرناطة مكة الشـعرا

وضبط رد بضم الراء وسكون الدال بدون تشديد ومكـة بكسر التاء المربوطة والصواب فتح الراء من رد وتشديد الدال على صيغة الماضي وفتح تاء مكة على انه مفعول رد الثـاني أو تسكـينها جريا على الاصطلاح العامي ، للتخفيف .

وفى ص 300 زجل يقول صاحبه فيه :

حبيب إياك تبعد عن عيني

فاني بعدك يولـد حيـني

وقد ضبط فعل يولد بضم الياء وفتح اللام وتركـت كـلمة بعدك بدون ضبط وهى ان قرأتها بفتح الباء فكانت ظرفا هزل

المعنى ونفه وان قرأتها بضم الباء وهو الواجب كان يولد بضبطه المذكور لاارتباط بينه وبينها . والصواب ضبطه بتشديد اللام على صيغة المبني للفاعل ويكون هو الخبر عن بعدك

وفى صفحة 305 بيتان فى تفاحة :

تفاحة بت بها ليلتى أبثها سري والشكوى

أضمها معتنقا لاثما اذ ذكرت سرة من اهوى

وعلق الناشر الفاضل على اذ ذكرت بقوله : «فى نفح الطيب اذا وهو تحريف» ولا تحريف فيه اذا قرئت اذ بسكون الذال وجعلت الالف من الفعل فهمزت وفتحت وسكن ذال الفعل وخففت كافه فكان أذكرت .

وفي ص 313 وقع هذا البيت من قطعة :

تبين فقد وضح المعلم وبان لك الامر لو تفهم

وضبط فيه المعلم بضم الميم والصواب فتحها لان المراد واحد المعالم وهى المعاهد وأمارات الطريق بخلاف المعلم المضموم الميم فانه من أعلم الشيء جعل له علما والثوب المعلم المخطط أو المطرز وذلك هو علمه .

وفى ص 344 : «وألقت بمسقط الرأس جرانها» وضبط الناشر الفاضل كلمة مسقط بفتح القاف. والمفعل بالفتح للمكان من سقط صحيح قياسا ولكنهم لم يذكروا مسقط الرأس الا

بالكسر فلعلهم خصوه بذلك والسماع فى هذا الباب اولى كما هو معروف .

وفى ص 349 : «وكان له فيها مقام محمود» بضم الميم من مقام وأظن ان الاولى فتحها لان المراد بالمقام هنا المنزلة والمكانة لا الاقامة والنزول .

وفى ص 355 : «الى أن انتهوا به منقطع اثره بقرية بلده» وعلق الناشر الفاضل علىقوله بقرية بلده فقال : «وفي الذخيرة بتربة .وهو تحريف» . وأظن أن الصواب هو ما في الذخيرةلان بلده هي القرية فإضافة القرية إليها من إضافة الشيء الى نفسه بخلاف التربة فان فيها مغايرة وقد درجوا على استعمال التربة في هذا المعنى فلا موجب لانكاره . قال الشاعر :

بلاد بها نيطت على تمائمي وأولأرض مس جلدي ترابها

وفى ص 365 : «وليس يحمد قبل النضج بحران» وقد ضبط يحمد بفتح الياء مبنيا للفاعل وعلق الناشر الفاضل على بحران بقوله : «البحران الجائع» ولا يخفى ما فيه . وهذا مثل ضربه صالح بن عبد القدوس فى قصيدته النونية المشهورة إذ يقول :

فلا تكن عجلا في الامر تطلبه

فليس يحمد قبل النضج بحران

فيحمد بصيغة المبنى للنائب والبحران من الاصطلاحات

الصبيـة يراد بها ما يطرأ على البدن دفعة مـن التهيج حـالة المرض . قال الشيخ داود الانطاكي في كتابه التذكرة[1] واحمده ما وقع بعد النضج ـ وقال في كتابه «النزهة»[2] : والمراد بالنضج اعتدال الخلط فليعرف .

وفي ص 410 عند ذكر تقسيمات مملكة لشبونة وقع ضبط النسرين بفتح النون وكذلك في صفحة 417 والمعروف أنه بالكسر فلينظر .

وفي ص 413 : وقع هذا البيت :

عـيرتـنى بسقــام وضـنى ان هذين لزين العاشقين

بصيغة الخطاب للانثى أي بسكون الراء وكسر التـاء من عيرتنى وهو كذلك لايتزن فالصواب فتح الراء وسكون التاء وربما كان هذا الخطأ من المطبعة .

وفي صفحة 418 : «ومن نثره في كـتاب الذخـيرة (مـا) يدل على طبقته» وما هذه التى بين المعقفين من زيادة الناشر مـا يـظهر ولا داعي لـها وليقرأ يدل بالبناء للمـفعول .

وفي الصفحة التالية لهذه شعر منه :

أما الرياض فـانهن عـرائس لم يحتجبن حذارعين الكالي

1) ص 45 ، ج ني ، المطبعة الازهرية بمصر

2) النزهة المبهجة . بهامش التذكرة ص 46 ، ج ني

جاد الربيع لها بنقد مهـورها   دفعاً ولم يبخل بوزن الكالي

وقد فسر الفاضل الـكالي من البيت الاول بالمراقب وأصاب وفسره في البيت الثانى بقوله: «الكالي هنا من كلا: مقلوب كال» فأبعد النجعة وانما هو من كلأ الدين اذا تأخر دفعه فهو كالئ وكان الاصمعي لا يهمزه . ويكثر استعمال هذه الكلمة بيـن الموثقيـن خصوصافى عقود الزواج فيقولون في الصداق: جملته مابين نقد وكالئ: كـذا وكذا وذلك لانه يستحب تأخير جزء من الصداق الى مابعد الدخول على قول العلماء .

هذه هي جملة الملاحظات التي عنت لنا أثنـاء مطـالعة الكـتاب وأمكـننا التنبيه عليها وبقـيت ملاحظـات أخـر لم نتمكن من تحقيقها لانا بحال هجرة وكـتبنا ليسـت معـنا . وأهم هذه الملاحظات ما كـانت له علاقة بالتـاريخ وتحـقيق شخصية ما كهذا (الهبدورة) بالباء الموحدة المذكور في صفحـة 171 فقد وقع في وهمنا أنه ربما تصحف عن الهيـدورة بـالياء المثناة والهيدورة فى العامية المغربية اسم لجلد الخروف الذي يتخذ للجلوس والشخص بما وصف به من شذوذ جـنسي ربمـا كـان لقبه هذا لقوة الشبه بينه وبين جلد الخروف في الاستعمال ولـكننا الان لانجزم بشـيء في هـذا الاسم لا سيما والاسمـاء

لا تملل كما يقولون .

وثم من الملاحظات ما لم نعره اهتماما كبيرا وهو مايتعلق بضبط الازجال فان كثيرا من هذا الضبط مخالف للمنطق العامي فى المغرب الذي يتشابه مع ما كان عليه في الاندلس ولكنا رأينا أن التعلق بذلك من التعمق الذي لافائدة فيه خصوصا والناشر الفاضل اذا عدل عن الوجه العامي في ذلك فانه يقرب من الوجه الفصيح .

وختاما لقد رأى القاريء العزيز أن هذه الملاحظات منها ما نشأ عن خطأ مطبعى ومنها ما كان سببه السهو فقط ومنها ما يتعلق بنطق جهوي خاص فجميعها ليس فيه غضاضة على الكتاب وتحقيقه . وانا قبلها وبعدها لنبدي إعجابنا بحضرة الدكتور ضيف الذي استطاع أن يخرج هذا الاثر النفيس بهذه العناية الكاملة التى قل من يضطلع بها من بين الناشرين المحققين وإنا لنهنئه من صميم الفؤاد على توفيقه ونجاحه .

II

كنت قبل هذا بمدة ، كتبت تقريظا نقديا للجزء الاول من هذا الكتاب القيم ، الذي نشره الاستاذ المحقق الدكتور شوقي ضيف . ونوهت بعمله العظيم ، وأشرت الى بعض المآخذ وعلى التحقيق بعض الكلمات التي خالف رأيي رأيه في قراءتها أو هو لم ينتبه الى تصحيحها . من غير أن أغفل مطلقا عن الاعتراف بمجهوده الجبار الذي أخرج به ذلك النص المهم في حلة قشيبة من التحقيق والضبط والتعليق تعجز الكثير من أئمة هذا الشأن .

وغبرت مدة اقتنيت فيها الجزء الثاني . وكنت متشوفا لظهوره . ولكني لم أستطع قراءته متمليا مستفيدا ، لما كنت منهمكا فيه من الاعمال والتبعات . حتى أمكنتني الفرصة الآن وقد تخففت من تلك الاعباء الثقال،فكان هو من أول الكتب التي سارعت الى منادمتها والاستمتاع بها . ولا أكذب القاريء أنني زدت إعجابا وتقديرا لعمل الدكتور الفاضل فلا أدري أكان عمله في هذا الجزء أكثر تدقيقا منه في الجزء الاول أم أن تجربة ثلاث سنين[1] وخبرتها هما اللتان جعلتاني أقدر

1) نشر تقريظ الجزء الاول في ج 4 من مج 29 من مجلة المجمع العلمي العربي الصادر في اكتوبر 1954 ونشر نقد الجزء الثاني في ج ل من مج 33 منها الصادر في يناير 1958 .

أعمال الناس وأزنها بميزانها الحقيقي اكثر من ذي قبل .

وعلى هذا السنن العلمي اللاحب ، اردت ان اتمم ذلك التقريظ النقدي - ولا خير فى تقريظ لايكتب بروح نقدية - بالتنبيه على بعض الهنوات ولا اقول الهفوات ، فانني اؤكد ان بعض الكلمات التى ينتبه اليها القارىء هى فى الغالب مما يغفل عنه الكاتب . فلا يكون اهمالها من باب الخطأ الذي يلزم المؤلف . وهى لذلك عندي من الهنوات التى لا مصدر لها ، لا من الهفوات التى تؤخذ على الكاتب . ومن الطبيعى ان اغض الطرف عن بعض الشكلات التى تزحلقت عن محلها او وضعها الطابع غلطا على غير وجهها ، فان من سبق له ان نشر كتابا او مقالا او قصيدة فيها بعض الشكل لابد ان يكون قد صدم ببعض هذا التغيير، وبعض القراء يجهلون ذلك فيأخذون به المؤلف ، ولكنهم احرياء ان يعرفوا من سياق العمل أن مثل هذا المؤلف أو ذاك ليس ممن يجهل أن الفاعل مرفوع وأن مضارع الثلاثى غير مضموم الاول الخ ، وهكذا نحن لم نتتبع شيئاً من هذا الهوس الذي يتورط فيه بعض الكتاب .

ولا أحتاج أن أقول . . انني بهذا التنبيه إنما أتعاون مع حضرة الناشر على خدمة هذا الكتاب ، وأتمم ما بدأت به فى الجزء الاول من التقريظ والنقد ، عناية بهذ الاثر النفيس الذي

كانت المكتبة العربية فى أمس الحاجة اليه . ولذلك أزف من جديد عرائس التهاني للدكتور شوقي ضيف على توفيقه وتبريزه في خدمة الادب العربي سواء بالتأليف أو النشر أبقاه الله وأدام النفع به. وهذه هي تلك الهنوات المشار اليها . .

وقع في صفحة 8 ضبط كلمة موسطة بفتح الميم والسين ونص العبارة التي جاء فيها «وهي في الاقليم الخامس موسطة» والضمير يرجع الى مدينة طليطلة . وأظن أن هذه الكلمة وقعت في الجزء الاول بهذا الضبط أيضا . وكنت توقفت فيها. ولما كنت بعيدا عن منزلي ومكتبتي لم يمكنني تحقيقها . وبمقتضي ما ذكره اللغويون من أن فعل وسط هو من باب وعد يظهر لي ان حقها ان تكون بكسر السين على وزن موعدة وفي الكتاب العزيز «وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه» على أن صاحب القاموس ذكر أن موسط البيت بوزن مكرم هو ما كان في وسطه خاصة فليحرر.

وجاءفي ص 16 عن أبي الخطاب الشاعر: «وكان في صلة الفضلاء الذين وفدوا على المتوكل بن الافطس» ولعل الصواب وكان في جملة الفضلاء . .

وفي ص 23 :

أعلل نفسي بالمواعد والمنى　　　وما العيش واللذات إلا محمد

بـذاك سبـا عقلي وهـاج لي الجوى

ولـم يسـبـه حـور اوانـس نهـد

واظن ان صواب كلمة بذاك . . فذاك بالفاء .

وفي ص 52 : «وكـان (ابن همشك) يردى اهل الجنايـات من حافة عظيمة» وضبط الحافة هنا بتشديـد الفاء ، والصـواب تخفيفها فان الحافة جانب الوادي مخففـة . ولعل الضبط خطـأ مطبعي .

وفي ص 67 مـا نصه : «لا يعـدم مـال الكريم غـارة من الافضال (تسن)، وعادة من الاحسان تسن» ويجب إعجام السين من (تسن) في الفقرة الاولى . وهو تطبيع .

وفي ص 103 : «ونهرهـا الـكبير (يعنى غرناطـة) يقال لـه شنيل» بفتح الشين والنون مع تشديدهـا . وتكرر هذا الضبـط في شعر ورد في نفس الصفحة . وعلى ما يظهر لي ، يجب ان يـكون كـل من الشين والنـون في هـذا الاسم مـكسوراً ؛ اما الشين فلأنهم قد يـكتبون هـذا الاسم بزيادة يـاء بعده هكذا : شينيل ، ومعلوم ان اشباع الـكسرة يولد الياء . وقال ابن زمرك في إحدى قصائده التي يصف بها بعض مصانع غرناطة كما في نفح الطيب :

يا قصر شينيـل وربعـك آهـل والروض منك على الجمال قداقتصر

واما النون فلانهم يذكرون في مفاخر غرناطة على سبيل النكتة الادبية ، ان نهرها شنيل يعدل بألف من نيل مصر لان عدد الشين في حساب الجمل ألف فاذا قلنا شنيل فكأنما قلنا ألف نيل . ومقتضى هذا كسر النون كما لا يخفى . ويسمي الاسبان نهر شنيل Genil على عادتهم من قلب الشين العربية خاءً في بعض الاسماء . وعلى كل حال فهم قد كسروا الخاء المنقلبة عن الشين والنون معا .

وفي ص 104 من موشح :

ورسولي قد تعرف   منه بما أدري فحرف

ولاقامة الوزن يجب حذف الياء من قوله بما .

وفي صفحة 117 :

لاتلمني بأن طربت لشدو   يبعث الانس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حق علينا   إنما الحق أن تشق القلوب

وقد ضبط اللام في لاتلمني بالفتح ، ولا شك أنه خطأ مطبعي وأن حقه الضم أما صدر البيت الثاني فيظهر أن صوابه أن يكون هكذا : ليس شق الجيوب حقا علينا . ولا يحسن نصب شق ورفع حق لان الاول هو المحكوم عليه . وبعد كتابة ما ذكر رأيته كما ذكرت في نفح الطيب .

وفي ص 119 في التعليق: «وذكر ابن ذاكور في شرحه

على القلائد» والصواب ابن زاكور بالزاي . وأظنني نبهت على هذا في الجزء الاول .

وفي ص 144 :

أنت الهوى لكن سلوان الهوى
قصد ابن معن والحديث شجون

وأظن أنه (قصر ابن معن) بالراء كما يدل عليه ما بعده والبيت السادس بالخصوص .

وفي ص 156 :

عليك لنا فضل ومن وأنعم   ونحن علينا كل مدح محبر

وأعرف أنها يحبر،وقافية الشعر مضمومة فهو الذي يناسبها بغير تكلف .

وفى صفحة 225 : «ولهم فيه غلل عظيمة» بضم الغين ، والصواب كسرها . وفيها عن الكاتب ابن طاهر : «أخبرني والدي أنه لم يزل مع الملك المذكور عثمان بن عبد المؤمن في عز ونعمة،إلى ان وقع له على رسالة بعثها الى اخيه ابى جعفربن عبدالمؤمن ملك اشبيلية فغاروسمه فمات» الخ. وقد ضبط فعل وقع بالتشديد من التوقيع،وأظن ان سياق القصة يعطي انه بالتخفيف من الوقوع بمعنى العثور،اي انه عثر له على هذه الرسالة التى يخاطب بها اخ مخدومه ، يريد ان يلتحق به . فغار مخدومه وقتله .

وفى ص 231 :

وان احمد فى الدنيا وان عظمت

لواحد مفرد فى عالم امم

بفتح همزة امم واظن ان الصواب ضمها ، ولعله تطبيع .

وفى ص 253 :

اربأ بنفسك ان تكون متابعا   ما الحر إلا ان يؤم فيتبع

ببناء يؤم للمفعول فهو بمعنى يقصد ، وظهر لى انه ربما كان يؤم على صيغة المبنى للفاعل من الامامة وتأتى كلمة يتبع بعده اكثر تمكنا واقرب مناسبة .

وفى صفحة 255 :

الزز بز القفا وخلعته   فاخلع علينا من ذلك البز

وقد ضبطت كلمة بز بالفتح على انها فعل ماض. والصواب رفعها على انها اسم بدليل عطف وخلعته عليها . ولا معنى لفعل بز هنا ، وربما (ورب للتكثير) كان ذلك الضبط تطبيعا .

وفيها ضبطت كلمة (وتهت) بضم التاء وهى من تاه يتيه فحقها الكسر ، ولا يبعد ان يكون ذلك خطأ من الطبع .

وفى صفحة 267 :

ثمانى خصال فى الفقيه وعرسه

وثنتان والتحقيق فى الا(مرشيق)

وهذا من شعر اليكي الشاعر الهجاء المشهور . ووضع الناشر الفاضل الحروف الاخيرة في البيت بين عقفتين يدل على انها لم تثبت بالاصل وانه هو الذي تمم البيت بها . وقد جاء البيت تاما بما يقرب من عمل الناشر عند صفوان بن ادريس في زاد المسافر ونصه :

ثماني خصال في الفقيه وعرسه

وثنتان والتحقيق بالمرء اليق

ومن ابيات القطعة في المغرب :

ويكذب احيانا ويحلف حانثا

ويكفر تقليدا ويرشي و(يحمق)

هكذا بتتميم الناشر ، والبيت في زاد المسافر هكذا :

ويكذب احيانا ويحلف حانثا

ويكفر تقليدا ويزني ويسرق

وفي الصفحة بعض اللحن في بعض الابيات الاخر، ونظن انه من خطإ الطبع .

وفي صفحة 269 :

وصارم ابصرت ذي فلة فقلت يا صارم من فلكا

فقال لي لحظ غلام رنا ونهد عذراء كما فلكا

وقد ضبطت فلكا الثانية بالبناء للمجهول والصواب بناؤها

للفاعل ، يقال فلك ثدي الجارية وتفلك . وما نظن الشاعر اتى بالبيت الاول الا لاصطياد هذا الجناس الكامل ، فلا يصرف عن قصده

وفى ص 277 : ذكر ابن سعيد فى ترجمة أبى الحسن جعفر بن الحاج أنه هو والد أبى محمد عبد الحق الذي ارتضاه أهل لورقة للقيام بأرضهم ، فلم يرض . . وفى الصفحة قبلها ذكر فى ترجمة أبى محمد هذا أن اسمه عبد الله . . ولم يحقق الناشر الفاضل فى ذلك، مع انه احال على مصادر كثيرة لترجمة أبي الحسن بن الحاج هذا ما بين خطية ومطبوعة . وبما ان الخطية التي أحال عليها ليست بيدنا فإننا أيضا لم نستطع ان نقول كلمة فاصلة في الموضوع ، لاسيما والضبي فى البغية وابن الابار فى المعجم يسميان هذا الولد اسما ثالثا هو عبد الرحمن .

وفى ص 279 ورد هذا البيت :

رويدا فلي قلب على الخطب جامد
ولكن على عتب الاحبة دائب

بالدال المهملة في دائب ، ولا يخفى أن الصواب إعجام هذه الدال ، فكلمة ذائب هنا واقعة في مقابلة جامد من عروض البيت . ولا معنى للدؤوب على معاتبة الاحباب بل المقصود

ذوبان القلب من سماع عتابهم . وهذا كله إنما سببته نقطـة سقطت من يد المنضد فيما نعتقد ، ولكنها نقطـة هي مركز الدائرة في معنى هذا البيت .

وفي صفحة 287 جاء هذا البيت :

وما هو غير ان أدعي وحسبي
حيا الاخـوان أو مـوت الاعـادي

بضم التاء من موت ، ولا شك أنه معطوف على حيا فحقه النصب . والشاعر يتأسف على عدم إدراك مراده قبـل الموت عما في البيت قبل هذا ، وما مراده الا ما ذكر . وفيهـا أيضا هذا البيت :

انـكرت ان راع الزمان أدبى وهل رأيـت ذا نـهى مؤمنـا

بنصب الزمان . والصواب رفعه لانه هو الفاعل الرائـع .

وفي ص 798 هذا البيت :

بلادي التي ريشت قويديمتى بهـا
فريخـا وآوتنـى قـرارتهـا وكرا

وفيه تصغير قادمة على قويديمة بزيادة اليـاء ، ولا تصح هذه الزيادة نحوا ولا عروضا .

وفى ص 302 وقع هذا البيت من قصيدة :

وأصدرت الرايات حمرا كأنها صدور حسان مسهن عبير

وقدنونت فيه صدور وحسان على انها وصف للصدور، وأملح من ذلك ان تضاف صدور الى حسان لتفيد ان هـذه الصدور لغوان حسان لامطلق صدور حسـان قد تكـون على حسنها لرجال خشان .

وفى ص 306 جاءت هذه العبارة : «إنه ما اخـتلف الليـل والنهار الا بنقص وإمرار» هكـذا بالصاد فى نقص واظنه بالضاد

وفى ص 310 ابيات فى النوار المعروف بالخيري ويقول له العامة عندنا الخيلى . منها :

لك الخير اتحفني بخيري روضـة
لانفـاسه عنـد الهجـوع هـبـوب
اليس اديب النور يجعـل ليـله
نهـارا فـيذكـو تحته ويطـيب

والمقصود قوله اديب النور ، فانه بـالنصـب خبر ليـس ، لا بالرفع كما ضبط في الكتاب، والشاعر يشير بذلك الى قولهم الليل نهار الاريب .

وفي صفحة 311 من قصيدة في وصف بحيرة بلنسية :

اذا النـاس حنوا للـربيع وجـدتنا
بها فى ربيع كـل حسن من الزهر

هكذا ثبت هذا البيت باضافة ربيع الى كل حسن، وبيان

ذلك بقوله من الزهر ، ويظهر لي ان صواب هذا البيت هو كما يلي :

اذا الناس حنوا للربيع وجدتنا
بها في ربيع كل حين من الدهر

والضمير في بها يعود للبحيرة ، فهي . كما قال المؤلف وردد ذلك الشاعر في ابيات أخرى. تكسب بلنسية جمالا طبيعيا وخضرة ونضره بحيث تجعلها كأنها دائما في فصل الربيع . وبعد هذا البيت يقول الشاعر :

تهب نعاماها فيفغم أنفنا بأنفاسنا الملذوذة البرد في الحر

وقد ضبط فعل يفغم بالبناء للمجهول وأنفنا مرفوع على أنه نائبه ، ثم ضبط البرد بعلامة الرفع ايضا . ولا شك انه بعد أخذ الفعل فاعله لم يبق إلا جر البرد بالاضافة الى ما قبله إضافة لفظية . فإن اردنا ان نرفعه فعلينا ان نبني فعل يفغم للمعلوم وننصب انفنا على انه مفعول له ويكون البرد حينئذ فاعلا مرفوعا

وفي ص 312 يقول الشاعر في صفة مذانب ماء، من ابيات :

كالنصل إلا انه لا يتقى كالظل إلا انه لا يرهب

ولا شك ان الظل هنا محرفة عن الصل بالصاد وهو الحية الخبيثة بدليل قوله لا يرهب، وتشبيه الماء الجاري بالصل معهود عندهم.

وفى ص 314 حكاية عن ابن عائشة الشاعر انه كان يوما مع ابن خفاجة وجماعة من الادباء تحت خوخة منثورة فهبت ريح صرصر، اسقطت عليهم زهرها. الخ.، وظاهر انها خوخة منورة لا منثورة.

وفى ص 316 وردت ترجمة الحافظ أبي الربيع الكلاعى، وهو منسوب الى ذى الكلاع بفتح الكاف من اذواء اليمن، فضم الكاف كما فى الكتاب خطأ. واثبت له المؤلف ابياتا فى مشط فضة، منها هذا البيت:

مشط الحسان بعظم ظلم لعمري عظيم

وقد ضبط لفظ مشط بضم الميم، وهو الآلة كما لا يخفى، والمراد هنا الفعل بدليل قوله بعظم، فحق الكلمة إذن فتح أولها.

وفى ص 319 هذا البيت:

فبت لا حاله كحالي ضجيع بدر صريع سكر

برفع اللام من حاله، وصوابه لا حالة.

وفى ص 339 هذان البيتان من قصيدة:

يا يوسفا أزرى بحسن الذي آمن فى الجب وقوع الهلك
قطعت ايدي نساء له فكم قلوب قطع الناس لك

ويظهر لي ان آمن صوابها أمن، وان البيت الثانى سقط

من اوله حرف الشرط والتقدير ان قطعت ، وذلك ليتزن ولتكون الفاء من فكم واقعة موقعها من الجواب .

وفي ص 341 بيت من موشحة لابن حريق يقول فيه :

محمد اللنق يا غزالي　　يا صاحب العينين الكبار

وقد ضبط اللنق بالشدة المفتوحة على اللام ثم بتسكين النون والقاف معاً ، واظن ان الصواب تشديد اللام مع الضم وتسكين النون ورفع القاف، اولا ـ لانه بتسكين القاف يختل وزن البيت . وثانياً ـ لان اللنق لقب هذا الموصوف وبه يعرف ، فحقه ان يكون تابعا في الاعراب لمحمد . وإنما قلنا إن اللنق لقب ، لان هناك من أعلام الاندلسيين من يعرف باللونكو [1] ، فالغالب أن اللنق الذي نحن بصدده هو تعريب له وانظر هل تكون هذه الكلمة (اللونكو) مأخوذة من Long الفرنسية بالمعنى الطويل ؟

وفي ص 368 ورد هذا البيت ضمن قطعة :

والشمس تجنح للغروب مريضة

والبرق يرقى والغمامة تنفث

---

1) جاء في صلة الصلة لابن الزبير ما يلي : «على بن عبد الرحمن الانصاري الخزرجي من ولد عبادة بن الصامت يكنى ابا الحسن ويعرف بابن اللونقة وتفسيره الطويل» وكذلك هو في الصلة لابن بشكوال ، ولكن غير مفسر بالطويل .

وضبط فعل يرقى بفتح القـاف من الرقي وهـو بالكسر من الرقية كما لا يخفى بدليل ما بعده .

وفي ص 374 هذا البيت من قطعة :

فلا رحلت الا بقـلبي ظعـينة   ولا حملت الا ضلوعي هودجا

والظعينة المرأة المسافرة في الهودج فهي الراحلة بقلبه وهي الفاعل برحلت ، فحقها الرفع لا النصب كما ثبت في الطبع .

وفي ص 376 جاءت هذه العبارة من كلام الفتح في القلائد «وكانت عنده (مناهل) تزف فيها للمنـى أبكـار نواهد» وقـد توقفنا في مناهل هذه . لا لاختلال السجع ولكن لعدم وضـوح المعنى أيضا معها . ورجعنا الى القلائد فاذا بها : مشاهد .

وفي ص 386 في ترجمة ابن مـغاور الشـاعر أن بعض الاعيان وهب له نصيبه من السقيا في يوما ، فسقى جنته ، وجاء في ذلك اليوم ضيف فكتب اليه يستسقيه خمرا هذين البيتين:

سقيت أرضى بفيض مـاء   فاسق ضلوعى بفيض راح
واترك جفاي يذهب جفاء   واخفض جناحا على جناحي

وقد علق الناشر الفاضل على صـدر البيـت الثـاني بقوله «هكـذا الشطر في الاصل» وأظن ان هذا الشطر واضح لا غبار عليه . فان الشاعر احس بقلة الذوق في كثرة السؤال فاعتبر

ذلك جفاءً وعدم بر ، فقال لمخاطبه المسؤول : «واترك جفاي يذهب جفاء» أي غثاً كغثاء السيل مما لا يعتد به ، قال تعالى : «فأما الزبد فيذهب جفاء» فجفاي بفتح الجيم وجفاء بضمها ، وهما كذلك عند الناشر الفاضل ، إلا أن همزة جفاء جاءت في الكتاب مضمومة ، وهو خطأ مطبعي لا شك فيه . فظهر أن الشطر صحيح المعنى واللفظ لاتوقف فيه . نعم في قوله جفاي زحاف يمكن تجنبه بجعله جفائي ، وربما كان كذلك عند الشاعر .

وفى ص 429 هذا البيت من قطعة :

سروا كاقتداء الطير لا الصبر بعدهم

جميل ولا طول الندامة ينفع

ولم أفهم لاقتداء الطير بالقاف معنى . فرجعت الى (قلائد العقيان) التي أحال الناشر الفاضل عليها فى تحقيق بعض ألفاظ القطعة ، فوجدتها كذلك ذكرت هذه الكلمة ، وقد وقع فى وهمى انها ربما تكون محرفة من اغتداء بالغين . والمعنى أنهم سروا بكرة كما تبكر الطير فى نهوضها . وفى الحديث: « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا» فهذا هو اغتداء الطير . وفى شواهد البلاغة :

اذا أنكرتني بلدة ونكرتها   خرجت مع البازي، على سواد

445 ثبت هذا البيت :

وحقك ما تركت الشعر حتى   رأيت البخل قد أزكى شهابه

بالزاي في أزكى، فقلت ياليت المنضد أبدل ذال زاكور بزاي أزكى ، والذال المعجمة كثيرا ما ترد في مطبوعات الشرق زايا، لان بعض إخواننا الشرقيين ينطقونها شبيهة بالزاي تماما

وفي ص 450 ورد هذا البيت :

ثمرات الانس ترتاد عندي   وهي من روضك تجنى وتجبى

بكسر همزة الانس وحقها الضم وبفتح تاء ترداد وحقها الضم أيضا . وفي الصفحة التي بعدها هذان البيتان :

أخطأت في بر الذي لم ترعه   وغدا يلاحظني بمقلة ساخر

إن التواضع للذي يعتده   ضعة لجهل ما له من عاذر

وترعه لا شك انه تصحيف صوابه يرعه ليبقى الكلام كله على الغيبة في غاية الانسجام .

وفي ص 462 وقع هذا البيت :

يقولون لا يبعد ولله دره   وقد حيل بين العيروالنزوان

وقد ضبط يبعد فيه بضم العين وصوابه الفتح لانه من البعد بفتحتين بمعنى الهلاك ، لا من البعد بالضم ضد القرب، وبعض اللغويين يسوي بينهما ، والتحقيق التفرقة .

وفي ص 454 ورد هذا المقطع من موشح :

بی جوی مضمر ليت جهدي وقفه
كلما يذكى ففؤادي أفقه
ذلك المنظر لا يداوي عشقه

وصواب يذكي كما لا يخفى يذكر وهو خطأ مطبعي وذكر المحقق الفاضل ان هذه اللفظة وقعت في رواية دار الطراز يظهر ويا ما أحسنها هنا . .

وفي صفحة 462 من قطعة في عدم الاعتداد بالاحساب والانساب اذا لم يكن صاحبها ذا مال :

فحرام المجد والعلم اذا لم يكن عندك شي من ذهب

وعلق الناشر الفاضل على كلمة فحرام أنها في الاصل حرام ولا شك أن الفا التي زادها الناشر قصد بها إقامة الوزن . ولكن صواب الكلمة هو ما كان في الاصل ، على أن تقرأ : حر أم المجد والعلم. بكسر الحا وضم الراء من حر مع اضافتها للفظ ام ، وغير خفى ما يقصد بذلك من الفحش والازرا .

وفي ص 470 من بيتين في وصف الخيل :

هى البحور ولكن في كواثبها عندالكريهة منجاة من الغرق

والمراد بكواثبها اعاليها لا اسافلها كما فسرت في التعليق على ان المراد بذلك ارجلها . . وفي الحديث يضعون رماحهم

علي كواثب خيلهم . قالوا هي من الفرس مجمع كتفيه قدام السرج . ويرشح هذا المعنى ان الشاعر جعلها منجاةمن الغرق . شأنمن يجتنب الغرق ان يطلب العلو لا السفل .

وهنا ننتهي من هذه الملاحظات التي نرجو ان لا نكون اوغلنا فيها حتى اسففنا وسفلنا. على اننا قد تركنا بعض الكلمات لم يخامرنا شك في ان خطأها من باب التطبيع . . واما قبل وبعد فان قصدنا هو خدمة هذا الكتاب القيم ، ولو بجزء من الف ، من العناية التي حظي بها من حضرة ناشره الفاضل . فليقبل منا جنابه هذا التطفل على عمله العظيم مع اصدق التحيات واخلص التقدير .

هل الشعر في تراجع ؟

كانت امسية رائعة حين زارتني هذه الاديبة التي تشرف على مجلة «المعتمد» للشعر والنثر، الآنسة «طرينة» وبصحبتها، رفيقتها الآنسة انطونييتا . وحضر الشاعر عبد القادر المقدم وعبق الجو بحديث الشعر والنثر تتخلله نكات ادبية لطيفة ، يزيد في لطفها ، ضحكات العذارى ولمحات الجمال المهذب :
فلا مجال لانشاد قول المتنبي :
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب
الا للازراء عليه بمثل قول الاعزازي :
خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه
وكانت الآنسة انطونييتا ، تميل الى ان الشعر يتراجع ، وانه لم يبق في العصر الحاضر من يميل اليه . وانه لم ينبغ منذ مدة مديدة شاعر يفري فري الشعراء الكبار ، سواء في اسبانيا وفرنسا وايطاليا من العالم اللاتيني او غيرها من العالم السكسوني او الجرماني، وتسألني: «أليس كذلك في العالم العربي؟»
في حين أن الآنسة «طرينة» مؤمنة بالشعر ورسالته متحمسة له، ترى انه قائم بدوره في التخفيف من غلواء المادية المسيطرة

على مشاعر الناس ، وايناس هذه الوحشة التي يشعر بها المسجونون في فضاء الحياة الآلية الضيق ، وتسرد اسماء كثير من نبغاء الشعر المعاصرين الذين لا يقلون شأنا عن اسلافهم ، وتحجها بانها ايضا من الشاعرات اللائى لهن شأن .

ولا تتمالك «انطونيتا» الا ان تستسلم استسلاما انثويا امام هذا الاطراء . وتنتصر «اعتماد» صاحبة «المعتمد» . . .

وقد عادت الآنسة «طرينة» في هذه الايام ، تسألني عن عدم اهتمام الشباب المغربي بالشعر ، والبرود الذي يقابل به مجلة «المعتمد» ؛ فهل هي ايضا عدلت من رأيها في الشعر ، او هذا رأي لها خاص بالشعر العربي ؟

ومهما يكن ، فان هذه دعوى طالما رددها الكتاب والادباء من عهد الجاهلية الى الآن فطورا ، تقدم في صيغة الازراء على الشعراء المعاصرين وانهم لم يبق لهم (من متردم)، وطورا ، تعاد في صورة ان العصر عصر علم وصناعة . وان هذه «حقيقة» لا مجال «للتخيل الشعري» فيها .

والواقع انى ارى ان الشعر سائر في طريقه آخذ بحظه من التقدم الذى يقتضيه العصر .

ففيما قبل بقليل ، كان عندنا شوقي . وهو شاعر لم تظفر العربية بنظيره في العصور المتقدمة . ولا يزال عندنا امثال :

العقاد ، وعلي محمود طه ، وانور العطار ، وعمر ابو ريشة. واحمد ابو شادي ، وغيرهـم ممن يعرضون فـي شعرهم ، فنـا جديدا ومعاني ابكارا لم يسبق للعربية عهد بامثالها .

اما ان الشعر قليل ، فانه ما فتيء قليلا منذ كـان ، وقيوده هي التى تجعله قليلا مع موضوعه الذى هو احساس بالجمال ، وتعبير جميل عن هذا الاحساس ، فانه ليس باستطاعة كل من يأخذ بيده قلما . ان يعبر هذا التعبير ، وان احس بما يحس به الشاعر ، بل ان هذا الاحساس حظ مشتـرك بين الناس ، ومن ثم ، كانت حاجتهم الى من يعبر لهم عنـه عامـة ، فلم يغنوا عن الشاعر

ومع ذلك ، فان الشعر بالقياس الى اي فن من الفنـون ليس بقليل .

نعم انـه قليل بالنسبـة الى الفنـون جملـة ، ويقـل ايضا بمقارنته بالانتاج الفكرى . . . الحر المطلق .

ولكن من يصحح الحكم بهذه المقارنة ؟

اما عدم اهتمام الشباب المغربى بالشعـر ، فانما جـاء من ان الشبـاب اليوم في ازمـة فكرية من هذه الصعوبـات التى تلاقيه فى طريق تثقيفه واعـداد نفسه لمعركة الـحياة ؛ وكلما استقر مستقبل الشباب كثر اقبالـه علـى مائـدة الفن والادب وتنقل بالشعر الذى لا يطيب الانس الا عليه .

جائزة الشعر الملغـاة

احتفلت الدوائر الثقافية * بعيد الكتاب يوم 23 ابريل على جاري العادة : واعطيت جائزة النثر لمن استحقها . واعلن ان جائزة الشعر قد الغيت هذه السنة ، لان القصـائد التي قـدمت للمباراة الادبية لم تبلغ المستوى الشعري المطلوب .

ونحن مع اسفنا لهذه النتيجة نرى ان هذا الحكم كان ضربة لازب لتقويم أود الشعر في هذه البلاد وتوجيهه الوجهة الصالحه التي ينبغي ان يسير في طريقها حتى يبلغ كماله فقد كثر الشعر كثرة لامزيد عليها ، ولـكنها كثرة الغثاء الذي لا غناء فيه . ولذلك فان البلاد على كثرة ما فيها من الشعـراء لا تزال تشكو فقر الشاعرية ، ولا يوجد فيها شاعـر واحد يرفع رأسه بالشعر ويقال فى حقه انظروا ها هو ذا شاعر من المغرب.

وقد كـان جلالة الملك سيدى محمد الخامس أنشأ ثـلاث جوائز للشعر فى عيد العرش ، فمنحت الجـائزة الاولى جزافـا مرتين او ثلاثا . ثم شعرت لجنة التحكيم بما فى عملها ذلك من مجازفة ، فلم تعد تمنح الا الجائزتين الثانية والثالثة .

ولقد وجد ذات مرة فى قصيدة لاحد الشعراء الذين منحوا

ـ كان ذلك في تطوان عاصمة المنطقة الخليفية يومئذ .

الجائزة الاولى ، تفعلة كاملة زائدة في بيت من أبيات القصيدة ومن الغريب أن هذه القصيدة تناولها النقاد بالنظر والتمحيص، ولم يعثروا فيها على هذه الزيادة المباركة . مما يدل على أنه كما يكون النقاد يكون الشعراء ! وهذه الجزئية تميط اللثام عن مبلغ تمكن الشعراء من صناعة الشعر واستظهارهم على اجادته بوسائله التي هي ثقافة خاصة لامعدى عنها لمن اراد ان يكون شاعرا حقا . كما أنها تظهرنا على أننا لم نجاوز بعد النظر في عرض الشعر الى جوهره، وان غيرنا ان كان يتطلب من الشعراء سموا في التفكير وتجديدا في التعبير، فاننا مازلنا نتطلب منهم اتقان القوالب وتصحيح الاساليب .

ولعلنا بهذه اللمحة قد وضعنا اليد على مكمن العلة في الشعر المغربي، أعني الشعر الحديث الذي يراد منه أن يجاري النهضة العصرية ويكون تعبيرا صادقا عن آلام وآمال هذا الشعب المكافح من اجل تبوء المكان اللائق به في الحياة ، فهوشعرضعيفـمادةوروحا ولنترك الروح الى المادة التي تسبق في بناء الاثر الفني ، فنجد ضعفها متأتيا من عدة عوامل . منها قلة الحصيلة اللغوية عند الشعراء ومنها عدم التمكن من قواعد النحو والصرف والبيان والعروض، ومنها اختلال الذوق الادبى ومنها سوء الاسوة التي اوقعتهم في كثير من هذه النقائص .

فالشاعر الذي يتخرج على شعر المجلات والصحف وعلى شعر الدواوين الحديثة المملوء بالاغلاط وان ارتقى به الحال نظر قليلا في ديوان ابن زيدون ، هذا الشاعر لا بد أن يأتي مسخا من الشعراء ، فلا يكون عنده ثروة لفظية تجعله يعبر عما شاء كيف شاء . ولا تسلم له حتى التعابير الصحيحة الفصيحة فكيف بالصور البيانية المعجبة ؟

ولذلك فلا جرم أن نلقى شعره مليئا باللحن ومخالفة القياس الصرفي ، وفي العروض ان سلم له الميزان فهو غالبا لا يسلم من عيوب القافية .

والمؤسف هو ان نجد بعض الشعراء يعتقدون ان اللحن في الشعر جائز ، وان مخالفة القياس والقواعد على العموم ضرورة شعرية لاحرج في ارتكابها . وهذا الاعتقاد ان دل على شيء فعلى الاستهانة بلغة الضاد وانتهاك حرمتها وجعلها بدعا من اللغات الحية . فصاحبه احرى ان يعد عدوا من اعداء العربية يعمل على اماتتها لا شاعرا من شعرائها الذين تزدهر على أيديهم .

ولما أخرج الكاتب اللبناني الموهوب جبران خليل جبران منظومته « الكواكب والمواكب » كتب عنها الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد كملة تعرض فيها لما

يقع في اسلوب جبران من تساهل في اتبـاع احكـام النحـو والصرف وأسف على ذلك قائلا انه لايوجد في لغة من اللغات الحية أديب مرموق يجهل قواعد لغته وهي كـلمة صادقة الى أبعد حد ، ونحن نزيد عليها أنه اذا كـان هذا الاديب موجودا في اي لغة من اللغات فهو لن يكون من عوامل حياتها. وكيف تحيا اللغة اذا تنكر لها الادباء من كـتاب وشعراء .

على أن هذا الضعف المادي له نتيجة حتمية وهي ضعف الروح الشعرية . روح الخيال والتفنن والتصوير ضـرورة ان الالفاظ قوالب المعاني فاذا كانت القوالب مهشمـة . فان مـا يصب فيها لا يجيء الا مهشما مـثلها . وكما يقـال ان العقـل السليم فى الجسم السليم فكذلك المعنى الجميـل فى اللفـظ الجميل .

وإذن فعلى شعرائنا اذا ارادوا ان يتمكنوا مـن ناصية الشعر ان يقذفوا بانفسهم فى ميادينه الرحـبة وينصرفـوا اليه بكليتهم ، ولا يحسبوه هواية يتلهى بها فى اوقات الفـراغ فهو كما قال الراجز او اكـثر مما قال :

الشعر صعب وطويل سلمـه
اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه
يـريد ان يـعربه فيـعجـمه

وأول ما يبدأون به مادة اللغة الواسعة فيتزودون منهـا بالزاد الكافى ولا يألون جهدا فى أن تكـون ذخيـرتهم منها اعظم الذخائر ثم يتقنون نحوها وصرفها وبيانها وعروضها مقبلين اثناء ذلك فى نهم شديد على حفظ اشعار العرب العرباء ، من فحول شعراء الجاهلية وصدر الاسلام ثم شعـراء العصـر الاموي والعصر العباسى وأخص من هؤلاء كلهم اصحاب المعلقات وكعب ابن زهير وحسان بن ثابت وعمـر بن ابى ربيعـة وجريـرا والفرزدق وبشار بن برد وأبا نواس وحبيبا الطائـى والمتنبى والبحتري وأبا العلاء ثم ينظرون بعد فى شعر الاندلسييـن ثم بعد ذلك في شعر المعاصرين. ولا يعكسون ابدا لان البدء بهؤلاء يضعف ملـكـتهم بخلاف اولئك فان ممارستهم تقوي الملكـة وتربي الذوق الادبي - العربي - في حين ان الشعر الحديث لايستطيع ذلك لان اسلوبه العربي ضعيف ، ومعانيه في الغالب غير عربية فيختل الذوق الادبي معه. وبالجملة فان ذلك التراث الادبي القديم هو للعربية بمـثابة اللاتيـنية للغات الفـرنسية والايطالية والاسبانيـة مثلا . لا يكون الاديب ولا سيمـا الشاعر ضليعا في مادته حتى يلم به ويتعمقه والا فسيبقى مثل الفراش الذي يحوم حـول السراج يلتمس النور ولا ينال منه الا الوهج الذي يحرقه ويكفنـه في سـواده .

ولعلنا رأينا كيف وقع هذا لكثير من الشعراء الذين تردد اسمهم في بعض الاوقات ثم خبوا خبو الشهاب المنقض ، وكذلك سيقع لكثيرين من الشعراء الحاضرين ان لم يأخذوا الكتاب بقوة .



ايهما يكون الآخر
المجلة ام القراء . . . ؟

كثير من المجلات التي صدرت في العالم العربي . ومنه المغرب ، لم تدم الا قليلا ثم احتجبت فما هو السبب في ذلك ؟

أين هى مجلة الزهراء ؟

أين هي مجلة المعرفة ؟

أين هي مجلة الامالي ؟

أين هي مجلة الشرق الادنى ؟

دع عنك المجلات التي احتجبت لموت أصحابها اومقاومة السلطة لها كالمنار ولغة العرب والشهاب والسلام فهل ان حياة المجلة مرهونة بظروفها او ظروف قرائها بمعنى أنه اذا كانت المجلة قوية تثبت لحوادث الدهر فانها تعمر وتدوم ولو لم يكن هناك قراء، ولو لم يكن هناك مشجعون او انه لابد من المساعدين والمؤيدين والا اختضرت المجلة في عنفوان شبابها واخترمت ولو كانت غاية في الطرافة والابداع ؟

اعرف بعض المجلات التي تصدرها بعض الهيآت ، وهي فى حد ذاتها من خيرة المجلات مباحث وتحريرا ونشرا :

ولكن لولا أن الهيأة التي تصدرها تروج لها بين التجار والملاك والمموليين من أنصارها ومعاونيها فيشتركون فيها ولو لم يفهموا منها حرفا واحدا اما استطاعت أن تستمر في الصدور ولو سنة واحدة .

ولما أنشأ صديقنا الاستاذ أحمد مدينة مجلة « الانوار » وجعلها خاصة بالسينما والمسرح قال الكثير منا إنها مجلة لم يحن بعد وقت وجودها ، وظن الناس أنها سوف لاتكون كما يجب أن تكون . . الا أن الواقع كذبهم فكانت مجلة راقية مهذبة الحواشي متقنة الصنع ومع ذلك فإن صاحبها ما أصدر منها بضعة أعداد حتى اصطر إلى إيقافها لانها لم تصادف إقبالا يكافيء المجهود المبذول فى اخراجها .

وبالامس توصلت بالعدد 51 من مجلة «المختار» اعنى عدد نوفمبر 1947 ومعه رسالة تنبئنى بأنه آخر عدد يصدر من هذه المجلة التى يعلم القراء انها من أغنى المجلات مادة وأعلاها تحريرا . وذلك ؛ قطعا : للعجز الذي أصاب ميزانيتها والذي لا تغطيه مداخلها التافهة الناشئة من قلة اقبال القراء عليها .

وهذه مجلة لا يمكن ان يعيبها احد من أية ناحية ، فموضوعاتها بقدر ما هي منوعة شائقة ، لا تستعصى على ذهن

القاريء العادي كما انها لاتنطامن اما فكر أي قاريء مثقف، وتحريرها في الدرجة القصوى من البلاغة والبيان، وطبعها مضرب الامثال في جمال الشكل ودقة الصنع، ناهيك بان رئيس تحريرها هو الاستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير « المقتطف » المجلة العربية الاولى التي جعلت للعلم قيمة في البلاد العربية وقد تخلى عن تحرير «المقتطف» مجلته ومجلة ابيه الى تحرير «المختار» لما لمس في ذلك من الفائدة العامة للاقطار العربية من حيث انتشار الثقافة وتعميم المعرفة بوسيلة لايقدر عليها الا من يشرفون على إخراج «المختار» في أكثر لغات المدنية الحديثة انتشارا فى العالم .

فهل بعد هذه المجلة يقال ان المجلات في العالم العربى تحيا أو تموت بسبب قوتها أو ضعفها ، كمالها او نقصها ، طرافتها او ابتذالها ؟

الحقيقة أن العالم العربى لا يوجد فيه قراء ، والكتب والمجلات التى تنتشر من مصر فى البلاد العربية قليلة جدا بالنسبة الى عدد العرب ولو كان فى العرب قراء كما لدى الشعوب الاخرى لما كفى عدد تلك الكتب والمجلات قراء مصر وحدهم، واذا كان هذا هو الحال فى مصر التى تصدر مطبوعاتها الى الاقطار العربية كلها فماذا سيكون الحال فى البلاد العربية

الاخرى المختلفة عن مصر فى الثقافة وقوة الانتاج وفن الطباعة ولا سيما بلاد المغرب ؟

لا شك أن مـن يستطيـع الانتاج الادبـى فـي بلاد كـهـذه ويستطيـع الاستمرار فى ذلك الانتـاج يكون موفقا جـدا لانـه يكون قد خلق لنفسه قراء في وسط هو الذي يخلق الكـتاب .



بعد احتجاب المجلات المصرية

كتبت في «لسـان الدين» الكلمة الآتية : توقفـت عن الصدور كل من مجلة الرسالة والثقافة والمقتطف المعروفات بمصر والعالم العربى : والسبـب في ذلك العجـز المالي الذي يعزى الى قلة الاقبال على هـذا النوع من المجـلات الثقافيـة الراقية . وقد قامـت في مصر ضجـة بين الادباء بسبـب هـذا الاحتجاب ، واغتنم الفرصة أدعياء الكتابة وانصار الادب المائع فقالوا ان مثل هـذا المجـلات لم يبق الذوق العـام يستسيغها لرجعيتها . وقال المخلصون ان على الحكومة ان تعين هـذه المجلات لانها لا تستطيع ان تؤدى مهمتها بدون اعانة . والحقيقة ان هذه المجلات دخل ادارتها ضعف كبير ولم يكن لها طريقة منظمة للتوزيع ، والا فرسالتها اعظم من ان تحتاج الى اسنـاد وهي بالاحرى اعظم من ان تتقهقر امام زقزقـة العصافيـر من على منبر صحافة الاعانات »

هذه الكلمة الصغيرة التى كتبتها في هذا الموضوع الذى اثار عشرات الاقلام المثقفة وفي مقدمتها يراعي الدكتور طـه حسين والاستاذ الكبير عبـاس محمـود العقـاد لم تكن لتشفـى غليلي ، وان جمعت زبدة الرأي في الموضوع ، وشـعرت من

نفسي بالحاح متزايد لبيان ما ابهمت وتفصيل ما اجملت . فاخترت ان تكون هذه الكلمة في «الانوار» متممة لسابقتها في «لسان الدين» .

والواقع الان ان هذه المجلات قد احتجبت ، ولسنا نحاول بعثها من جديد ، ولكن لئلا تصير المجلات الاخرى من طرازها الى هذا المصير يجب ان نفكر في الامر بطريقة عملية كي نضمن الاستمرار لكل مجلة تؤدي مهمتها الثقافية في نشاط واخلاص . ولعل اول نقطة ينبغى البدء بها فى التنبيه على اسباب هذا العجز هي ان هذه المجلات، من حيث كونها ذات مهمة سامية ، تتخير كتابها من الطبقة الراقية من حملة الاقلام وتدفع لقاء ما يكتبون مكافآت مالية عالية فى بعض الاحيان وخاصة لبعض مشاهير الكتاب . وهذا هو التقليد السائد فى الغرب اليوم ، تحفظ به المجلات المحترمة مستواها الراقي وتحقق به المنافسة المرغوبة فى هذا الصدد ؛ ولكن المجلات الغربية لها قراء يعدون بعشرات الالوف وهي تطبع على قدر الطلب وليست المجلات العربية كذلك فهي تنوء بعبء كبير من النفقات ولا تجد من اين تستخلص ذلك .

وهذه اولى المفارقات بينها وبين هذه المجلات التافهة التى انما تعنى بسفاسف الامور وبالعرض دون الجوهر فهي

قلما نستكتب احدا من المشاهير واذا استكتبته فانما يكون ذلك في موضوع سطحي لا اثر له في الفكر ولا في التوجيه ؛ والغالب انها انما تريد ان تستعمل اسمه للدعاية والتغرير فاذا حصلت على واحد من هذه الطبقة فليس بعده الا اعمال المترجمين وكتابات الناشئين التي لا تكلفها درهما واحداً بل يكون لها الفضل والمنة في نشرها والتنويه باصحابها. ولتغطية هذه التفاهة فانها تعنى بتجويد الطبع والاخراج والاكثار من الصور المغرية والنكت التي قد تضحك احيانا ولكنها لا تزيد ابداً في علم ولا معرفة .

وهكذا ببضع مئات من الدراهم تزاد على ثمن الطبع الاصلي تخرج المجلة في صورة ضاحكة ، (ولكنه ضحك كالبكاء) كما قال ابو الطيب المتنبي في حين ان المجلات المفيدة تصرف بسخاء على اختيار المادة وتقتصد في العرض فيكون مظهرها القاتم اول المنفرين منها ، اصحابها يقولون ان غزارة المادة وقوة الروح تكفلان لها الانتشار وتغزوان كل الاوساط ولكن الواقع ان الناس مأخوذون بالمظاهر عمون عن اكتناه بواطن الاشياء ، فهم يقعون على هذه الحوامض والمخللات وقوع الذباب ويزهدون في الغذاء الصحي الدسم الذي به يقومون نفوسهم وعقولهم . ومن هنا جاء الخطأ فظن صعاليك الصحافة

ان تلك المجلات الثقافية القوية لم يبق لها مجال وان الذوق العام لم يعد يستسيغها وان نقيق الضفادع وزقزقة العصافير من مستكتبيها هو الادب الحي والانتاج الجديد الذي يقبل عليه جمهرة القراء وتتخطفه أيدي الناشئة الحديثة وساء ما يظنون .

انهم في الحقيقة ينومون عقول الناشئة ويفسدون أخلاقها ويعملون على انحطاط المستوى الفكري والاجتماعي في البلاد العربية من حيث يشعرون او لا يشعرون ، ولو كان في هذه البلاد مصلحة واعية للثقافة والتوجيه لضربت الحجر منذ زمن على هذا النوع من الصحافة الذي اثمه اكبر من نفعه والذي أصبح يدعي انه الصحافة المجددة الجديرة بالبقاء .

ثم انه ان كان فى اهمال المظهر وتواضع الاخراج فى الصحافة الثقافية الراقية ما ينفر منها ويقلل الاقبال عليها فان ضعف الادارة وعدم تنظيم التوزيع هو من أكبر الاسباب فى العجز المالى الذي يلحقها والاحتجاب الذي تمنى به حتما فى الاخير ولئن قلنا إن المجلات الغربية لها عشرات الالوف من القراء فان لها أيضا ألوف المتعهدين والموزعين والباعة ومن يضعونها بين يديك فى كل حين وفى كل محل . ولا يتعلل أحد هنا بارتفاع نسبة المتعلمين فى البلاد الغربية فان اي بلد من البلاد الغربية لا يفوق في تعداده البلاد العربية جملة الا بنسبة

يسيرة، والمهم هو تنظيم الصلات بين سائر أجزاء القطر العربى حتى يكون ما يصدر فى اي ركن من أركانه من المطبوعات الثقافية يتداول فى بقية الاركان كما يقع فى فرنسا مثلا او فى انكلترا : ولتنخفض نسبة العدد فى هذه المطبوعات ما انخفضت فانها لا تقل عن عشرين الف نسخة فى أسوء الاحتمالات .

وعلى كل حال فانا اعرف أن كثيرا من الادباء والمثقفين وطوائف من القراء المختلفة الحيثيات كانت تطلب مجلة «الرسالة» مثلا فلا تجدها وتشترك فيها فلا تصلها بانتظام ؛ وقد لا يكون الذنب ذنب الادارة ولكنها لا تصل والسلام ؛ كما انه قد يكون بعض الباعة والمتعهدين ممن لا ذمة لهم ولكن يجب البحث عن آخرين . . وهذه اقطار افريقية الشمالية يمكن أن يوزع فيها من المجلة المذكورة أربع آلاف نسخة على الاقل بنسبة ألف نسخة لكل قطر منها مع التسامح في عدد مايستحقه كل قطر ، فهل كان يوزع فيها جميعا ولو ألف نسخة واحد ؟

لماذا لاتؤلف شركات للنشر والتوزيع في هذه السوق العظيمة التي هي من أنفق الاسواق وأكثرها رواجا لهذه البضاعة التي ليس لها منافس لا من الداخل ولا من الخارج وإذا لم يمكن تأليف هذه الشركات الان. فلماذا لايقع الاتصال

بشركات النشر والتوزيع الاجنبية التي لها فروع كثيرة في مصر مع أخذ الضمانات الكافية لاعتمادها فى هذا العمل سواء من الناحية المادية او الادبية ؟

إن الدول التي تهتم ببسط نفوذها المعنوي او بتصريف انتاجها الاقتصادي لتشهر الحروب الدامية من أجل إيجاد الاسواق التى تنفق فيها سلعتها والمحافظة على الاوساط التى تتقبل دعوتها ؛ فما بالنا نحن العرب نقبل الغزو ولا نغزو ، ونبذل ما بأيدينا وإن كنا لا نأخذ عوضه شيئا ؟

ان سوق افريقيا الشمالية لا : يفرط فيها الا من لا حاضر له ولا يرجى له مستقبل ، وانها لمصر بما يحتمل ان يكون لها فيها من نفوذ ادبي فضلا عن المنفعة الاقتصادية انفع من امريكا اللاتينية لاسبانيا ؛ فليت شعري لماذا لا تستغل الاستغلال اللازم فى هذا الباب ؟

ولعل ما يعتذر به الكتاب والناشرون ويقوم عائقا بينهم وبين الاستفادة من هذه السوق هو اللوائح والقوانين التى يعلمون حق العلم اننا لا يد لنا فى وضعها ولا نرضى بها ابدا [1] ولكن اللوائح والقوانين من هذا الشكل لا تقوم الا فى وجه العاجزين ؛ فعلى الكتاب والناشرين ان يجمعوا شتاتهم

1 ـ كان هذا فيما قبل الاستقلال

وينظروا فى حقوقهم الضائعة فيطالبوا بها .

ان اعانة الحكومة او حمايتها للادب والادباء - كما طلب الاستاذ الزيات صاحب مجلة «الرسالة» فى مقاله الذى ودع به مجلته ينبغى ان تتوجه لهذه الناحية الايجابية من الاعانة او الحماية ، ينبغى ان تكون معاملة بالمثل لمن يقف فى وجه انتشار الكتب والمجلات والصحافة العربية التى لا تنتشر في فرنسا ولا في انكلترا ، بل في الاوطان العربية بافريقيا الشمالية وغيرها . واليوم الذى تعتنى فيه الحكومة المصرية مثلا ، بالاحصاء الدقيق لما يدخل بلدها من المنشوارت الاجنبية وتقاضى الشركات الموردة او حكوماتها على اساس اصدار مثل ما تورده لها هذه الشركات الى البلاد الخاضعة لحكوماتها ؛ هو اليوم الذي ستكون مصر اعانت فيه الادب والادباء وحمتهما الحماية المطلوبة ؛ وليس ذلك ببذل مبلغ من المال لتسديد العجز المادي الواقع في ميزانية احدى المجلات او اعفاء بعض الصحف من ضريبة الدخل كما اقترح الدكتور طه حسين . نعم وذلك هو اليوم الذى تشعر فيه مصر بكرامة الاستقلال ونشعر معها بهيبة الحكومة المصرية ؛ ومن لم يؤمن بنفسه لم يؤمن به الناس .

نعـــي وفــاة؟

ما ظننت ان الخطأ يصح يوما ما، ويحتاج اليه كما احتجت الى هذا الخطأ اليوم .

فكل من يتتبع صحافة تطوان يلفت نظره في بعض الاحيان . هذا العنوان الناشز وهو (نعي وفاة) للاخبار بموت بعض الفضلاء . وهو تعبير متناقض ، لان النعي هو الاخبار بالموت فلا حاجة لزيادة كلمة وفاة قال الحماسي :

الا بكر الناعى بأوس بن خالد
أخى الشتوة الغبراء والزمن المحل

فالقائل نعي وفاة كانه يخبر بوفاة الوفاة ، ولا يخفى بطلانه مع انه لا يريد هذا المعنى ولا يقصد اليه .

انما نحن قد احتجنا اليه اليوم ، لاننا بكتابة كلمة نعي ربما افزعنا بعض القراء فتوهمه خبرا بوفاة شخصية مهمة تستحق النعي . فبادرنا لتصحيحه بذلك الخطأ ، وانه نعي وفاة !

ومرادنا ان نتكلم على ما اشيع عن صديقنا الدكتور محمد تقي الدين الهلالى منذ نحو ثلاثة شهور من انه توفى . ولا ندري مصدر هذه الاشاعة هل هي من عدو كاشح يتمنى موت عالم من علماء الاسلام واديب من ادباء العربية الممتازين

بغيا وحسداً من عنـد نفسه ، او من صديق يشفق من هـذا الحادث الجلل .

وعلى كل حال فقد طارت الاشاعة كل مطار ولا ترى الا سائلا عن نصيبها من الصحة . واذا شخصيا قد سالنى بالمشافهة والمكاتبة غير واحـد من النـاس . وبالطبع فانى كنت انعيهـا لهم واؤكد لهـم ان حضـرة الدكتور مـا زال بحمد الله حيـا يتمتع بصحة جيدة وفي نعمة شاملة .

وفي احدى رسائلى اليه لمحت الى هذه الاشاعات تلميحا ولم اصرح له بها ، ففهم بزكانته المراه واجابنـى عن خصـوص هذه النقطة بهذه العبارة :

«لا ادري من هم اولئك الاعداء ، وماذا اشاعوا عنى ، فان كان الـذي اشاعـوه المـوت ، فما اجهلهـم ! فكل نفس ذائقـة المـوت :

تمنوا لى الموت الذي يشعب التى

وكل امـريء والمـوت يلتقيان»

وأذكر بهذه المناسبة اني قبل نحو العشر سنين او تزيد كتبت رسالة الى صديقي الاديب التونسي سعيد ابوبكر صاحب ديوان «السعيديات» وديوان «الزهرات» بعد انقطاع مني ومنه عن المراسلة فأجابني أنه فرح برسالتي فرحا عظيما لانه كان

يعدني في حساب الاموات .

وذلك ان بعض المشايخ المشهورين من فاس كان زار تونس فسأله الصديق عني فقال له لقد مات منذ مدة ونعته الصحف ! ولا احتاج ان أقول اني وصديقي المذكور ضحكنا من رقاعة هذا «الحي» الذي ظن أنه سوف لا يموت كما أني اذكر انى أنشدت فى جوابي للصديق سعيد ابى بكر بيت المتنبى :

يا من نعيت على كره بمجلسه

كل بما زعم الناعون مرتهن !

وان كان هنا ما نأسف عليه من هذه الامور، فهو أولا: سقوط همم هؤلاء الناس الذين لم يروا شفاء ما بأنفسهم من غل وموجدة الا فى موت اخصامهم وفقدهم للحياة ، كأنهم مخلدون بعدهم. وكأن فى الموت شماتة .

وثانيا : وفاة ذلك الاديب الصديق منذ نحو عامين ، حيث رثيناه فى «الانوار» (ع : 7 ص : 18 و 19) وعرضنا بعض النماذج الحلوة من ادبه الرقيق ، ولعل فى هذا ما يذكر هؤلاء الفضوليين بالحقيقة التي يغفلون عنها وهي ان الموت لايتصرف وحسب الاهواء فقد مات المنعى اليه . ولم يمت المنعى وقد يموت الناعي ويبقى المنعى. ورحم الله من مات ! وهدى

من بقي .

ولا بأس ان نختم هذه الكليمة ببيتيـن في الموضوع .
نظمناها فيمن كان من قبيل هؤلاء المرضى بقلوبهم :

اذا حشرجت نفسي وفاضت حشاشتي
وأسبل سجف فوق وجهي ثخين
هنالك فانعوني الى كل شاذيٍ
لعل رضاه في مماتي يكون

بين جيلين

مما لا جدال فيه ان ليس فى المغرب اليوم شخصيات من ذوى الكفايات النادرة فى العلم والادب والسياسة ، ولا فنيون من ذوي التخصص فى فروع المعرفة التي تتقوم بها الشعوب فحملة الشهادات العليا عندنا يعدون على أصابع اليد ومع ذلك فأكثرهم مقبل على شأنه ولم تظهر لحد الان عبقرية خارقة للعادة في ناحية من نواحي التفكير الانساني او الفن او الاجتماع . واذا نظرنا الى غالب من يشرفون على تسيير المؤسسات العلمية والهيآت السياسية والحركات الاقتصادية في البلاد نجدهم من ذوي الدرجات المتوسطة في الثقافة وممن اقتصروا على المراحل الاولية في التعليم العالي بحيث ربما يكون في أتباعهم او فى المبتعدين عن الاعمال العامة من حصل على درجة أعلى منهم فى الثقافة والتعليم .

ولقد تتحول هذه الاعمال شيئا فشيئا بعد زمن قريب الى ايدي أناس من ذوي الكفاءة والمقدرة ، وكلما كثر عدد المتخرجين والمنتهين فى الدراسات الفنية العليا سيطروا على اجهزة العمل السياسى والاقتصادي والوطنى بوجه عام، وحينئذ تكون الحياة السياسية قد استقرت او كادت . والمجتمع

المغربي قد تطور تطورا عظيما . واقتصاديات البلاد قد دخلت في عهدها الزاهر فلا جـرم ان يجني هـؤلاء المـشرفون على مقدرات الوطن ثمار أتعابهم ويمرحوا في بحبوحة النعيم حيث لا يشاركهم من لم يكن من طبقتهم وحين ينسـون من مـهد لهم السبيل الى عيشة الرفه هذه تمهيدا . .

بلى إنهم سيزرون على الطبقة المتوسطة ويقولون لها ان عهدها قد باد ؛ وسيتعجبون من سيطرتها اليـوم عـلى مـرافق الحياة كيف كانت وكيف كان يتأتى لها تسـيير دفة الاعمال التي تولتها وهي بالـمكان المتواضع من الثقافـة التي تؤهل لذلك ، وأخـيرا سيكون نظـرهـم اليهـا نـظـر الارستقراطيين الى الشعـب في المجتمع المبني على اعتبار الطبقات .

واذا حق هذا غدا فإنه لايحق اليـوم ؛ اذا حـق في زمـن الكسل العلمي والجمود الارادي ان يسيطر المختصون ويسود المفتنون فيقبع كل واحد في ناحية يعمل عمل اليوم في أشهر ويتقاضى جزاء اتعابه الالوف المؤلفة فإنه لا يحق اليوم وقد طغى نشاط العاملين على علمهم ورجحت ارادتهم بمقدرتهم ، فلـم يبق مرفق من مرافق الحياة لم يشاركوا فيه ولاباب من أبواب الخدمة الاجتماعية لم يدخلوا منه .

ان الاعمال هي التي تظهرنا على قيم الرجال، والاثار هي

التي تدلنا على اقدار العاملين . وأما العلم ، وأمـا الشهـادات العليا ، اذا كانت زينة لاصحابها وحليـة يتميزون بها فقط فـلا ينزلون الى الميدان ولا ينفعون بقدر ما انتفعوا ، فهي والعدم سواء . والذي نريد ان نقوله هو ان التقويم الحقيقى للرجـل هو ما يحسن ان يعمله ؛ وفي هـذه الفترة العصيبة من تاريـخ الامة ، فترة الانبعاث لا يحسن ان يعمل الا أصحاب النفوس الـكبيرة والارادات القوية ولو كانوا من متوسطي الحال في العلم والمعرفة .

وهل يحسن ذلك الفني المحدود الـآفاق ، المسجـون فى مختبره ان يكون زعيما سياسيا للامة ومديراً لمدرسة او عدة مدارس تشـرف على اعداد رجـال الغد ، ورئيسـا لجمعيـة او جمعيات لنشاط الشبيبة ، ومستشاراً وموجها للافراد والجماعات المختلفة فى الاعمـال الاقتصاديـة والاجتماعيـة وفـى الشـرع والقانون ، وكـاتبا صحافيا وخطيبا فـى المحافـل وربـمـا اقتضى منه ان يكون واعظا دينيا ايضا ! ؟

هل يحسن ذلـك الفني هـذا كله واكثر من هـذا كلـه ؟ واذا كـان الجواب بالنفـي ـ وهـو ما لا محيد عنـه ـ فليعـرف اذن الجيل الطالع قدر الجيل الراهن وليعلم انها ليست المعارف فقط التي تعلي درجة الانسان ولكنه العمـل والعمـل الضخـم

الذي تنوء به العصبة أو‌او القوة .

هذا العمل الذي يقوم به اليوم فلان وفلان ممن نعرفهم ونقدرهم قدرهم والذى لا يستطيع ان يقوم بـه غدا كل فنـي محدود الـآفاق مسجون فى مختبره هـو ان لم يزد فى قيمتـه عن اعمال الفنيين لا يقصر عنها بحال ، لان العبرة دائما بأثـر العمل فى الشعب وينفعه المتعدى الى الغير وقـد ضرب هـذا العمل الرقم القياسى فى هذا الباب وامتاز بشيء لم نقلـه بعد وهو أنه عمل عار عن المنافع الشخصية لصاحبه وانه اذا انتفع منه بشيء فلا تكون نسبته الى انتفاع العامل المستقبل عشـرة فى المائة .

فليذكر النـاس اليوم وغدا هـذا المجهود الطائـل الذى يبذله افراد لم يؤتوا من سعة المعارف ما يقنـع الجيل الطالـع ولـكنهم أوتـوا من قـوة الارادة اوفـى قسـط مكنهم مـن ان ينتفعوا بمواهبهم الى أبعد حد .

مؤتمر ادباء العرب

حضرت مؤتمر ادباء العرب الذي انعقد بالقاهرة فى دورته الثالثة ، تحت شعار القومية العربية من يوم 9 دجلبر 1957 الى يوم 15 منه ، وحضرته وفود البلاد العربية جميعا ، الا المملكة السعودية والاردن ، ولقد كانت حفاوة مصر بضيوفها الادباء حفاوة بالغة ، وكان النزول فى فندق سيميراميس الفخم . أما المؤتمر فكان ينعقد يوميا مسا' فى قاعة المتحف الزراعي ، على حين يخصص الصباح لزيارة الآثار والمتاحف ودور الكتب والمعامل ومراكز النشاط الاجتماعى وحضور الحفلات الشائقة كحفلة افتتاح عيد العلم الذى وافق انعقاد مؤتمر الادباء وكحفلة اقتبال المجمع اللغوى عضوه الجديد الاستاذ شفيق غربال وغيرهما . هذا الى السهرات السينمائية والتمثيلية او الادبية التى كانت تختم اليوم المليء ، بالانس والسرور والبهجة ! . .

ولقد كان اليوم الذى وصلنا فيه ، انا وبقية الرفاق اعضاء الوفد المغربى ، يوم اتصال وتعارف ، اذ كانت أبهاء الفندق تعج بالشخصيات الادبية . من اعضاء الوفود المختلفة . ومن ادباء مصر الذين جاءوا لتحية اصدقائهم وضيوفهم ادباء الاقطار

الشقيقة . وكان الوفد السوري اكبر الوفود على الاطلاق ، اذ يعد اكثر من عشرين عضوا ، وكان يضم مع ذلك شخصيات فذة من مثل الاستاذ فؤاد الشائب والدكتور سامي الدهان والسيدة وداد سكاكيني الكاتبة الادبية المعروفة ، والدكتور جودة الركابي والدكتور اسعد طلس وسواهم وكنا منذ وصولنا قد ارتبطنا بمواعد مع مندوبي الاذاعة المصرية وصوت العرب وبعض الصحف والمجلات كجريدة المساء التي كان لها اهتمام كبير بالمؤتمر وتسجيل وقائعه على اكمل وجه، ولذلك فاننا لم ناخذ قسطا من الراحة حتى انغمرنا في هذا الجو الادبي الرائع . وصرنا ننتقل من ندوة الى ندوة ، ومن حلبة الى حلبة . تتبادل فيها الآراء وتتبارى الملكات . وكان هذا اللقاء بين ادباء العالم العربي ، وتعرف بعضهم الى بعض ، شخصيا بعد التعارف الروحي ، من اعظم فوائد هذا المؤتمر ، ان لم يكن اعظمها على الاطلاق ، كما كان يصرح بذلك من سبق لهم ان حضروا دورتيه الاوليين من الاعضاء .

وانعقدت الجلسة الاولى للمؤتمر برياسة السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم نائبا عن الرئيس جمال عبدالناصر. وقد القى كلمة رحب فيها بوفود الادباء العرب، باسم مصر التي هي جزء من العالم العربي، وتلاه مندوب الجامعة العربية الاستاذ سعيد

فهيم فتحدث عـن النشاط الادبي للجامعة الذي يتمم عملهـا فى الميدان السياسى وما اليه. وتكلم الدكتور طه حسين عن وفد ادباء مصر الذي لوحظ انه لم يشتمل على الاستـاذ العقـاد ولا على توفيق الحكيم ، فدعا الادباء الى تقدير مسؤولياتهم فيها يكتبون وما ينتجون. ثم تتابع رؤساء الوفود بعد ذلك في القاء كلماتهم مرتين باعتبار اسماء بلدانهم ، على حـروف المعجم . فابتـدىء بمندوب الاردن وختم بمندوب اليمن. ولم يكن الاردن ممثلا رسميا ، وانما مثله احد ادبائه المعارضين للنظـام القائم فيـه . وانتهـت جلسـة الافتتـاح بالكلمة التى القاها الاستاذ يوسـف السباعى عن المكتب الدائم للمؤتمر . وقد بذل هذا المكتـب مجهودا كبيرا في تنظيم المؤتمر والعمل على نجاحه، وكان من انشط اعضائه الاستاذ محمود العالم والدكتور شكرى فيصـل. اما كلمات رؤساء الوفود فكانت كلها تقريبا تدور في فلك واحـد هو تحية مصر ورئيسها العظيم ، وتمجيد القومية العربية ، وضرورة تجنيد الادب لخدمة المطامح العليا للعرب وامتازت كلمتا رئيس الوفدين السوري واللبناني : الاستـاذ فؤاد الشائب والدكتور سليم حيدر ببلاغة الاعداد وحسن الالقاء .

وقد ظهر من أول وهلة أن المؤتمر تهزه حمى السياسة اكثر مما تستهـويه اريحية الادب، فوفـود البـلاد الممتحنة كـالجـزائر

وفلسطين تحظى بمنتهى الرعـايـة ، وتقـابل بالتصفيقـات الحادة، والتهامس حول المملكة السعودية والاردن بسبب عدم مشاركتهما في المؤتمر ، يرتفـع الى ان يصير نقدا لـلاوضـاع السياسية في البلدين ، والموضوع الحساس الذي اختير ليكون محور المداولات فى المؤتمر، وهو القومية العربية، كاف وحده لان يجعل من المؤتمر مظاهرة سياسية ناجحة، وأشياء أخرى تلحظ ولا تقال، كل ذلك مما جعل صبغة المؤتمر سياسية اكثر منها أدبية، وهل كان فى الامكان غير ذلك؟ ان الشرق العربى يعيش فى واقعه السياسى على فوهة بركان ، وكل عمل لا يتجاوب وهذا الواقع مقضى عليه بالفشل . وهل نجح المؤتمر الا بقراراته السياسية؟ اذا فليس هناك توجيه، وإنما هو تعبير، وتعبير بليغ عن إرادة الامة العربية ورغبتها في الحياة الكريمة حياة المجد والعز والشرف وهؤلاء الذين لا يزالون يحلمون «ببرجوازية» الفكر «وبرجعاجية» الفن قد فاتتهم القافلة وأصبح ما بينهم وبين واقع الحياة والقومية الواعية في بلادهم خرابا يبابا ! . .

وابتدأت المحاضرات في اليوم الثاني وكان موضوعها الشعر والقومية العربية، فتكلم اولا الدكتور طه حسين باسم الوفد المصري في الموضوع وكان مما قاله : «ان الشعر هو المنشيء للقومية العربية أولا . ، وهو الذي شارك في تكوينها ونقويتها بعد أن

كونها القرآن . ثم عاد يقول : «والقومية العربية إذا أردنا أن نعرف متى تكونت بالمعنى الدقيق لكلمة القومية . فينبغي ان نردها الى ظهور الاسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها: الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضا انما هو النبي (ص) . هو الذي جاء بالقرآن ودعا الى الحق واجتمع حوله الاقلون من اصحابه ، وجعل الاقلون يكثرون شيئا فشيئا حتى كانت الهجرة وحتى أسست أول مدينة إسلامية وبعبارة ادق اول مدينة عربية منظمة عرفها التاريخ ولا أذكر اليمن القديمة لاني لا اكاد أعرف من حضارتها ونظمها شيئا» الخ . وزاد عميد الادب العربي فقال : «ومن غريب الظواهر الادبية التي تلاحظونها في حياة هذه القومية الجديدة التي أنشأها الاسلام ، والتي ألغى فيها الفروق بين الاجناس ، وألغى فيها أن يكون لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى ، من أغرب الظواهر التي ترونها ان الشعراء الذين استأثروا بالشعر وامتازوا فيه وأصبحوا هم ألسنة الامة العربية بمعناها الجديد لم يكن منهم شاعر عربي خالص ، كان بعضهم فارسيا وبعضهم قبطيا وبعضهم يونانيا» الخ . وبعد الدكتور طه حسين تكلم الاستاذ ابراهيم العريض من البحرين عن الشعر العربي الحديث فقال : «إن لوحته ـ كما أرى ـ لطخات من

الاوان تفيض على غير هدى تندمج كلها لتكون رمزاً موحداً لا يستطيع القاريء ـ ولا أقول السامع لاسباب ظاهرة ـ ادراك ما يرمز اليه من تشخيص الذاتية المزدوجة الا باستيعاب اللوحة في نظرة كلية شاملة يفترض منه القاؤها من مسافة بعيدة لا تتحمل التدقيق والتجزئة وبعده تكلم عن السودان الاستاذ عبد الله البنا فألقى بحثا وضعه بالاشتراك مع الدكتور محيي الدين صابر والاستاذ محمد محمد علي من الوفد السوداني . ومما جاء فيه «ان الاسلام لم يخلق القومية العربية . ولكنه هذبها فحارب العنصرية المتعجرفة ولم يجعل للدم العربي فضلا على دماء الشعوب الاخرى . وساعد على اندماج القبائل في وحدة قومية بأسرع مما كان يحدث لو ظلت امداً أطول في جاهليتها» وكانت الكلمة الختامية لمندوب اليمن الاستاذ أحمد الخزان الذي تحدث عن الادب العربي في اليمن ومساندته للقومية العربية .

وفتحت باب المناقشة فتعرض حديث الدكتور طه حسين لمواخذات عديدة . منها أن تكون القومية العربية لا شيء قبل الاسلام ؛ وان الاسلام هو الذي كونها ، فمن قائل ان الاسلام انما كان له فضل تقويتها وتهذيبها اذ كانت موجودة قبله ، ومن قائل ان لا أثر للاسلام في ايجاد القومية العربية ولا في تقويتها وتهذيبها . وانها كانت موجودة ومتكاملة قبل

ظهور الاسلام ، وبعثة النبي عليه السلام ، «وعليه السلام» هذه من عندي لان الفريق المتحدث بهذه الفكرة كان ممن يندرج في المقطع الثاني من القولة المشهورة لصاحب دلائل الخيرات «عدد من صلى عليه ، وعدد من لم يصل عليه» !

والواقع أن القومية العربية كانت حقيقة ثابتة قبل ظهور الاسلام، وان الشعر كان هو منشئها الاول - كما قال الدكتور اولا - وان الشاعر الجاهلي لما قال :

قومي هم قتلوا اميم اخي ... فإذا رميت اصابني سهمي
فلئن عفوت لاعفون جللا ... ولئن بطشت لاوهنن عظمي

انما عبر عن شعور اصيل بهذه القومية وبمفاهيمها الذاتية. وما كان يوم ذي قار، مهما بولغ في التقليل من اهميته ، الا اعلانا للخارج عن حقيقة القومية العربية وخصائصها الثابتة.

والاعتراض على ذلك بالنزاع الذي كان قائما بين العرب والحرب القبلية التي لم تخب نارها في وقت من الاوقات ، مردود بما كان للعرب من دول وحكومات منظمة في الجنوب والشمال ، وحديث مملكة سبأ مما سارت بذكره الركبان . على ان الفتن والحروب الداخلية ما انعدمت قط من مجتمع ولو كان بالغا في الرقي ابعد الغايات ، وحروب اسبارطة واثينا من اول من يحضر في الذهن دليلا على ذلك.

اما الاسلام فهو دعوة انسانية عامة لا شأن لها بالقومية العربية ولا بغيرها من القوميات حتى نكون هي التى كملتها وقوتها فأحرى ان لا تكون هي التى كونتها وانشأتها . ولعل الذين قالوا ان الاسلام هذب القومية العربية فنفى عنها العنصرية والاعتزاز بالجنس كانوا اقرب الى الصواب ، على ان يعمموا حكمهم هذا بالنسبة الى الاسلام على القوميات كلها عربية ، وغير عربية ، فقد كان من خصائص نبى الاسلام انه كما قال بعث الى الناس عامة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة . ومن اقواله المأثورة : لا فضل لعربى على عجمى ولا لاحمر على اسود الا بالتقوى . وفي القرآن الذى هو دستور الرسالة المحمدية «يايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم» نعم فقد هذب الاسلام القومية العربية ونحابها نحو روح الدعوة السامية التى اتى بها ليتسنى للعرب ان يكونوا رسل سلام وهدى ورحمة للبشرية جمعاء . وقد استطاعوا ان يقوموا بهذا الدور العظيم مدة حياته (ص) وايام الخلفاء الراشدين (ض) لما كانت الفوارق الجنسية معدومة ، وكان بلال وصهيب وامثالهما ، يتقدمون عند عمر على امثال أبي سفيان وعمرو بن سهيل ابن الحرث بن هشام من تلك الرؤوس، فلما اراد بنو أمية ان

يبعثوها بدعة وان يرجعوا بالقوم على حافرة الجاهلية انتقض امرهم واصطدموا بالقوميات العديدة التى كانت قد انضوت تحت لواء الاسلام . فكانت هي القاضية عليهم. فمن هذا نعرف ان الاسلام لم يات لاسناد قومية ما ، وانه بوتقة تنصهر فيها القوميات الضيقة لتصير دعوة انسانية عامة تسوق البشر لما هو خير لهم بالذات.

ومما تعرض للمواخذة من حديث الدكتور طه حسين قوله عن اليمن القديمة انه لا يكاد يعرف من حضارتها ونظمها شيئاً، فقد انكر الوفد اليمنى قوله هذا، واشار الى ان الكتب مشحونة بالحديث عن اليمن وحضارتها القديمة، وانها هي العربية السعيدة التى تحدث عنها كثير من المؤرخين الاجانب، قدماء ومحدثين، وحسبنا ما ذكره القرآن العظيم عنها وما نوه به من امرها فكيف يتجاهلها عميد الادب العربى هذا التجاهل ؟.

ومما أخذ على الدكتور طه حسين ايضا قوله ان الشعراء الذين اصبحوا لسان الامة العربية بعد قيام دولتها لم يكن منهم عربى خالص، فكيف نسى الدكتور شعراء دولة بنى امية واكثرهم ان لم نقل كلهم عرب خلص؟ ولا يختلف الامر عن ذلك كثيراً فى شعراء دولة بني العباس. بل اننا اذا دققنا النظرنجد ان من اشار اليهم الدكتور لم يكونوا ألسنة الامة العربية ولا شعراءها الناطقين باسمها ، وانما كانوا من

الشعوبية والخارجين على العروبـة والقومية العربية . والخلاصة ان المناقشة حول حديـث الدكتور كانت حادة واذها كـادت تستأثر بالجلسة كـلها .

وفى اليوم الثالث كان مـوضوع الحديث النثـر والقومية العربية ، فالقى الاستاذ يعقوب عويس ممثل الاردن كلمة اهاب فيهـا بالادباء العـرب ان يتحملوا مسؤولياتهم امام الاخطار التى تهدد الشعوب العربية وان يجدوا فى التعبير عن رغبات هـذه الشعوب ومطامحها العليا . وبعده تكلم الاستاذ كامل السوافيري من فلسطين فقال : نريد بالقومية العربية ذلك الشعور الذي يجمع الامة العربية الواحدة، التى تسكن الوطن العربى الواحد . والتى تربط بين ابنائهـا الى جانب اللغة العربية روابط التاريخ والبيئة والجغرافيـة والمصالح المشتركـة والديـن» ثم تكلم الاستاذ محمود تيمور من مصر، فاشار الى الصراع الذي قام بين دعاة القومية العربية والمناهضين لها في اوائل هذا القرن، ونوه بكل من الاديب الحر والاديـب القومـى من حيث انهما معـا يلتقيان فى النهاية على صعيد العمل لمجد الامة وعز الوطن .

وفتحت المناقشة بعد ذلك فكانت معركة حامية ، من جانب واحد ، حول اعتبار الدين مقوما من مقومات القومية العربيـة . وذلك بسبـب ورود كلمة الدين «فقـط» فـي حديث الاستـاذ السوافيرى . وكان ممـا قاله احـد المنـدوبين اللبنانيين : اننـا

لا نقيم بناء القومية العربية على اساس دينى. لان واقع التاريخ لا يمكنه ان يتجاهل جهود الشعوب العربية غير المسلمة فى حقل القومية العربية واستعرض اسماء بعض الادباء المسيحيين الذين ساهموا في حركة البعث العربى. ولا ندرى كيف استقام له اعتبار الدين من مقومات القومية العربية متنافيا مع واقع التاريخ ؟ فهل إن العرب ، مسلمين ومسيحيين ، غير متدينين فى حياتهم الواقعية . ولماذا كان ذلك تجاهلا لجهود الشعوب العربية غير المسلمة ولم يكن تجاهلا ايضا لجهود الشعوب العربية المسلمة ، ولم يقل احد بأن المراد بالدين هنا هو الاسلام خاصة ؟ كان الاولى فى التعليل ان يقال: اننا لا نريد ان نبنى قوميتنا على اساس دينى ، لان الدين انما هو خرافة قديمة او هو افيون الشعوب كما يقول الماركسيون اما التحكك بالمسيحيين وهم لا يقلون تدينا عن المسلمين فليس بعلة مقبولة ! . وقال مندوب لبنانى آخر «اننا لا نقبل أن نقيم القومية العربية على أساس من الدين ، لا للاسباب المذكورة ولكن لان الدين . أساسا لم يعد يصلح مقوما علميا لقوميتنا» ولم يكن ينقص هذه الدعوى العريضة الا شيء قليل من التعميم فيقول حضرته ان الدين أساسا لم يعد مقوما علميا للقوميات مطلقا ، لتسلم من المعارضة لان ما لا يصلح للقومية العربية لا

يصلح لغيرها، اذ أنها ليست بدعا من القوميات السائدة في العالم

وأسهم الدكتور طه حسين في المناقشة ليناصر الذين يقولون بابعاد الدين عن حظيرة القومية العربية، بعد أن كان قال في حديثه السابق ان الاسلام هو الذي كون هذه القومية وقال في هذا الصدد بالخصوص: «اننا ننكر على الغرب اقامته دولة اسرائيل، في بلاد العرب، على أساس ديني» كأن الغرب لو أقام دولة اسرائيل، في بلاد العرب على غير اساس الدين لما كنا ننكر ذلك عليه.. وهنا نتساءل هل نسي الذين لا يقبلون اقامة القومية العربية على أساس من الدين، ان هذه القومية الاسرائيلية التي ليس لها أساس الا الدين هي التي أرغمت معاطس سبع دول عربية وطامنت من غلواء هؤلاء الادباء العرب الذين كانوا يملأون الدنيا حماسة وتعاليا، فصاروا يملأونها شكوى وتباكيا؟ بل من الذي جر اولئك الادباء الانسانيين، المتنسكين في الابراج العاجية الى الاهتمام بشعور قومهم والاحساس بكرامتهم المهانة، حتى انبعثوا للمشاركة في هذا المؤتمر الذي عقد تحت شعار القومية العربية، غير أولئك الاوباش الافاقين الذين لارابطة تجمعهم الا رابطة الدين، وبها هزوا العالم العربي هذه الهزة العنيفة التي افاق معها كل حالم وصحا كل سكران..

لقد وجدت في عصرنا هذا دولة من أعظم دول الشرق وهي الباكستان ، ولم يكن السبب في وجودها الا الدين فهل قلل ذلك من أهميتها في الميدان الدولي او كان سببا في ضعف كيانها الداخلي . . ان فرنسا ما انهزمت في الحرب العالمية الثانية تلك الهزيمة الشنعاء برغم قوتها المادية العظيمة الا لانها لم تكن تنطوي على عقيدة دينية متينة . وبذلك ضعفت معنوياتها وانعدمت منها روح المقاومة ، فوشكان ما وقعت تحت سنابك خيل الاعداء . . وذلك ما جعلها تستفيق من غشيتها على اثر صيحات المفكرين والمصلحين الاجتماعيين فتتدارك الامر بالدعوة الى الرجوع للكنيسة وتمتين روابط الاسرة واقامة بناء المجتمع على اساس الاخلاق الفاضلة والمثل العليا . ان العرب المسيحيين يجب ان يفهموا ان العرب المسلمين كثرة لاحاجة تدعوهم الى التبشير بالاسلام ليزيد عددهم واحدا الى سبعين ، والفئة التى تتملقهم من المسلمين كالفئة المتعصبة منهم ، ليست هي التى تبنى مستقبل العرب وتحيى مجدهم الدائر لانها قلة من الجانبين . على ان مشكلة العرب . مسيحيين كانوا او مسلمين ، ليست مشكلة عدد بل نوع ، وكيف لاكم . فليكفوا عن هذا الهراء الذي يصرفون فيه اعمارهم بدون طائل ، ولينصرفوا الى العمل الجدي الذي

يعلي من شأنهم وشأن وطنهم ، وفي القدر المشترك ، والقاسم الاعظم من تعاليم المسيحية والاسلام ما يكفي ليجعلهم دائما اخوانا متحابين ، ذوي عقيدة ثابتة وإيمان صحيح ، فضلا عن المقومات الاخرى لقوميتهم التي تتغلغل في مجاهل التاريخ الى ماض سحيق .

كانت الاحاديث في هذا اليوم ثلاثة فقط ، وكانت قصيرة في الجملة . فطالت مدة المناقشة على حساب قصر مدة الحديث ، وكان الجمهور يفاجأ بمثل ما ذكرته من تلك الحملات الصاخبة ، والغريب أن أبطالها كلهم كانوا من المسلمين ، ولم يستطع احد أن ينبري للرد عليهم الا بالتورية والتلميح كما فعل الدكتور شكري فيصل والاستاذ سعيد العريان . ان الجو كانت تسيطر عليه السياسة الداخلية للبلاد العربية ، فلذلك لم يستطع احد أن يقتحمه . وكثر الجدل حول مفهوم القومية العربية حتى قام بعض الاساتذة وطلب من المؤتمر ان يدعو الاستاذ ساطعا الحصري لالقاء محاضرة في القومية العربية على المؤتمرين ، وكان الاستاذ الحصري حاضرا وكانت نكتة فيها سخرية لاذعة !

وفي اليوم الرابع كان موضوع الحديث «النقد والقومية العربية» فتكلم الدكتور عبد الستار الجواري

مندوب العراق عن الادب العربي وغزو الشعوبية له قديما وحديثا بغية النفوذ منه الى النيل من القومية العربية . ثم تكلم الاستاذ رئيف الخوري من لبنان في الموضوع فقال «ان القومية العربية التي نعنيها هي ظاهرة حديثة جدا . انها جديدة تحررية تطورية» وتساءل بعد ذلك «ما عسى أن يكون بالضبط هذا النقد الادبي الجديد المتحرر الذي يخدم قوميتنا العربية التحررية الجديدة . . ثم قال «ان ذلك لن يكون ممكنا كل الامكان الا ان تتجاوز القومية العربية التحررية في انفسنا طور الشعارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتصبح وجهة نظر شاملة ننظر بها الى الوجود . وفلسفة حياة نحياها بمثلها في كل نبضة من نبضات وجداننا ، وفي كل موقف نقفه من الاشياء والاحداث . وفي كل عمل نعمله » . وتكلمت بعده الدكتورة سهير القلماوي من مصر، فتحدثت عن مفهوم القومية العربية ، وتعبير الادب عن هذا المفهوم الذي وقف النقاد منه مواقف غامضة غير محدودة . وأخيرا تكلم كاتب هذه السطور عن المغرب، فالقى خطابا تناول فيه بالنقد النظرية الاقليمية في الادب من حيث منافاتها للقومية العربية وأشار إلى أن رسالة الادب العربي يجب أن تكون جادة وهادفة. ونوقشت الابحاث بعد ذلك مناقشة مقاربة ، لانها لم تتناول منها الا العرض ، وأما

الجوهر فيظهر انه لم يكن ثمة خلاف حوله . بل صرح بعض المتكلمين ان المؤتمر منذ يومه هذا صار جادا . يهدف للغاية التي اجتمع من أجلها .

وكان اليوم الخامس يوم جمعة وقد استغرقته كله الرحلة التي قام بها المؤتمرون الى مديرية التحرير، فلم ينعقد المؤتمر .

وفي اليوم السادس كانت الجلسة الخامسة للمؤتمر ، وكان موضوع الحديث «حماية الاديب والقومية العربية» فألقى الاستاذ محمود المسعدي من تونس بحثا دعا فيه الى حرية الاديب المطلقة ، في ميدان الفكر ، اطلاقا لاتقييد فيه ولاتضييق قال «فلا نحاول حصره في «ايديولوجية» معينة. فنحمله على الماركسية مثلا او على ما يقابلها من مذاهب فكرية غربية او شرقية ولا نرى ربط شعوره بقومية معينة قد تفيض عنها نفسه الكبيرة، ولا حبسه في ثقافة دون غيرها» ثم تكلم بعده الدكتور جودة الركابي من سوريا ، فقال «ان حماية الاديب يجب ان تاتيه على انها عون ومساعدة وتشجيع واكرام ، وتقدير وتفتيح آفاق لا على انها الزام واكراه . فعلى الاديب ان توجه اليه الحماية ليخدم لا ليشعر بالتبعية» وبعده القي بحث الاستاذ الشيخ محمد البشير الابراهيمي من الجزائر ، القاه بالنيابة عنه

الاستاذ ابو محمد صالح . وقد اشاد بما كان للاديب العربي من مكانة في الماضي عند الخلفاء والملوك وقال بوجوب حمايته في العصر الحاضر من كل ما يعوق شخصيته عن الظهور، وحماية انتاجه . وكانت كلمة الختام للاستاذ احمد العدواني من الكويت ، فدعا الى ضمان الحرية للاديب العربي وضمان مستقبله وشيخوخته، واقترح سن قانون موحد للملكية الادبية، ورفع القيود المفروضة على تنقل الكتاب العربي، وانشاء اتحاد عام للادباء العرب ، وتلا ذلك مناقشة الكلمات ، فتعرضت كلمة الاستاذ المسعدي لحملة شعواء من كثير من النقاد اذ اعتبرت خارجة عن النطاق الذي انعقد فيه المؤتمر ، ومناهضة لادب الالتزام وفكرة القومية العربية العامة . وبالغ بعض الادباء ففاه بكلمات نابية لم يكن هناك مبرر مطلقا لتفوهه بها ، لا سيما وان حرية الاديب ، وعدم قسره على الالتزام والادب الهادف ، مما جاء في كلمات كثير من المتحدثين في المؤتمر ، ودافع عنه كثير من الذين شاركوا في المناقشات العامة مدة انعقاده. فالامر يتعلق بحملة، اكثر من شارك فيها انما اندفع اليها بغير شعور .

وفي اليوم السابع كان اجتماع رؤساء الوفود في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب، وذلك لتحريرالتوصيات

والقرارات العامة للمؤتمر ، وقد استغرق العمل سحابة اليـوم ، ومن ثـم كان الانصراف الى الجلسـة الختامية في المتحـف الزراعى لعرضها على الجمهور . وكانت جلسـة حافلة ترأسهـا الاستاذ يوسف السباعى فـي حين ان الجلسات السابقة كـان يترأسها شخصيات من اعضاء الوفود المختلفة . وتليت النصوص فلم تستهدف لمناقشة جوهريـة ، بل سرعـان ما أقـرت صيغتها النهائية التى كانت تقابل بالتصفيقات الحادة . وتـكهرب الجو ، خاصـة ، بالبيـان الذي اصـدره المؤتمـر عن الجـزائر تاييدا لكفاحها المقدس من اجل حريتها واستقلالها واستنكاراً لحرب الابادة التى يشنها عليها الاستعمار الفرنسى الغاشم ، ثم بالبرقية الموجهة من المؤتمر الى سكرتير الامم المتحدة فى الموضوع. وقد كنا عملنا نحن مندوبـى اقطـار المغرب العربى الثلاثـة ، داخل جلسة التوصيـات والقـرارات العامة . على فصـل قضيـة الجزائر عن بقيـة القضايا العربيـة واعطائها حق الاولويـة من بين تلك القضايا لكونهـا مشكلة الساعـة في العالم العربى ، وكان الاخوان الفلسطينيون يعارضون فى ذلك واخيرا اقتنعوا بصواب الفكرة وان توجيه الجهود الى معالجة مأساة الجزائـر لا يعنى نسيان القضية الفلسطينية ولا غيرها من قضايا البـلاد العربية الاخرى التى ستضمن جميعهـا في البيان العـام الذى

يصدره المؤتمر موجها الى ادباء العالم. وهكذا صدر البيان الخاص بالجزائر والبرقية الموجهة الى الامم المتحدة. ثم البيان العام الى ادباء العالم وهو يتضمن ايضا قضية الجزائر. بالاضافة الى قضية فلسطين وعمان واليمن. وما تلاقيه هذه البلاد العربية من طغيان الاستعمار الغربى واعتدائه على أهلها المسالمين، ودعوة هؤلاء الادباء الى التضامن مع الامة العربية واستنكار ما يقوم به المستعمرون من اعتداء سافر على حريتها وحقها فى الحياة الكريمة وحماية كيانها وتقرير مصيرها. وكان هذا الموقف الصريح الذي وقفه المؤتمر من سياسة الغرب الاستعمارية في البلاد العربية انتصارا عظيما لدعاة القومية العربية ونجاحا باهرا أحرز عليه المؤتمر في الاوساط الوطنية للبلاد العربية جمعاء. يضاف الى ذلك التوصيات العامة التي صدرت عن المؤتمر، وكلها تسجل تطورا قوميا واعيا في السياسة العربية وجميع نواحي النشاط الفكري والثقافي للشعب العربي. فالقومية العربية «اعراب عن عزم نضالي من أجل حرية الامة، العربية ووحدتها. لتستطيع ان تسهم اسهاما فعالا في بناء عالم متحرر من آفات الاستعمار ومآثم العدوان.. وهي مشروع انساني نحو تحقيق مثل خلقية رفيعة في المدى القومي والمجال الانساني، مبرئة نفسها من كل لوثة عصبية سواء أكانت

طائفية أم عنصرية أم اقليمية» . والاديب العربي عليه أن يذكر أن واجبه نحو قوميته «يركز واجباته نحو نفسه ونحو انسانيته ويوجهها في هذه الحقبة حول الغايات النبيلة التي يتجه اليها العرب في الوحدة والتحرر . والقيم المثلى التي يهدفون اليها في الانعتاق من ربقة الجهل والضلالة ، والاندفاع في طرق العيش الكريمة واغناء الحياة الانسانية بكل قواهم الذكية المعطلة . واستعادة المنزلة الكريمة التي كانت لهم في اطوار حياتهم الماضية »

ولحماية الاديب العربي ، أوصى المؤتمر الكتاب العرب «الا يتعاونوا مع دور النشر التي تسيء الى رسالة الادب والحرية والقومية العربية بنشر كتب الدعاية الاستعمارية والتفرقة والتعصب» والتوصية تلمح ، ولا شك ، إلى مؤسسة فرنكلين الامريكية والمكتبات والادباء الذين يتعاونون معها في العالم العربي وقد تجاوبت انحاء قاعة المؤتمر بالتصفيق تأييدا لهذه التوصية . وخجل ناس ممن كانت التوصية تعنيهم . وشجب المؤتمر اللهجات العامية ودعاتها الذين يقوضون اهم اركان القومية العربية فأوصى بإشاعة التدريس باللغة العربية الفصحة في جميع مراحل الدراسة» وهذه التوصية تعني بعض الاساتذة المصريين الذين يفضلون القاء دروسهم في الكليات والمدارس

العليا بالعامية المصرية، والذين ارتفعت الشكاية منهم فى بعض جلسات المؤتمر . ومن الغريب ان بعض الاساتذه من هؤلاء اراد المشاركة فى احدى المناقشات بالمؤتمر وطلب السماح له بالتكلم بالمصرى ، فمنعه رئيس الجلسة . وكان هو الدكتور سامى الدهان ، فالح هذا الاستاذ فى الطلب ، وأصر الرئيس على المنع ، فلم يسع «الاستاذ» الا الانسحاب بدون كلام . وهذا التمسك بالعامية من بعض المصريين لا يشابهه الا التمسك بالفرنسية من بعض المغاربة ؛ هدى الله الجانبين !

وتوصيات المؤتمر كثيرة يطول بنا تتبعها ، وآخرها توصية بانشاء اتحاد عام للادباء العرب ومجلة ادبية تكون لسانا لهذا الاتحاد . وهكذا ختم مؤتمرادباء العرب دورته الثالثة التى كانت مظاهرة ثقافية ناجحة بل انتفاضة قومية عظيمة ، لها ما بعدها .

وينتهى الكلام عن المؤتمرولا ينتهى عن ظروفه وملابساته، وما جرى في اثناء انعقاده من حفلات وزيارات ومشاهدات . وقد كان اقتبال السيد الرئيس جمال عبد الناصر لاعضاء المؤتمر من احظى هذه الماجريات · ذلك الاقتبال الذي جرى فى قصر القبة ضحى يوم الاحد 15 من الشهر ، فصافح سيادته بحماس وتودد جميع اعضاء الوفود والقى فيهم كلمة ترحيب وقال لهم : «انكم عامل أساسى من عوامل القومية العربية» .

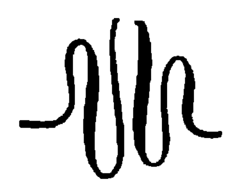
وكـان الاستاذ العقاد من بين الحاضرين .

ومن الحفلات الرائعة التى حضرناها حفلة توزيع جوائــز الدولة بدار الحكة صبــاح يـوم الخميـس 12 من الشهـر ، وكانت الجوائز اربعا ، وقدرهـا الف جنيه مصرى لكل جائـزة فى الطــب ، والعلوم ، والهندسـة ، والادب . وقـد القى فيهـا الدكتور كامل حسين الذي فــاز بجائـزه الادب على قصتـه قرية ظالمة خطابـا عظيما استمر فى القائـه قرابة ساعة ، بتـأن وترتيل ، وكان يحتوي على افكار عميقة ومعلومات طريفة . وكـان القاؤه له ارتجاليا فى الغالب وكـان من ابدع مـا سمـع «ادباء العالم العربى» بحيث ندم الذين فاتهم على تخلفهم عن الحضور فى هذه الحفلة .

وكانت حفلة جمعية الادباء التى اقيمت يوم الاربعاء 11 من الشهر على الساعة التاسعة ليلا فى القاعة الذهبية بمتحف المنيل، من اروع الحفلات ايضـا ، ومن الحفـلات التى لها صلة ماســة بالمؤتمر ، وقد حضرها اكثر من مائة شاعر ، وتبــارى الشعراء فى الانشاد اول الامر ، فكان من احسن من سمعناهم الاستاذ ابراهيم العريض ، والاستاذ شوقى بغدادى . والشاعرة العراقيـة المعروفة نازك الملائكة ، ومواطنتها الدكتورة عاتكة الخزرجى ، وشعرها يتناول الموضوعات السياسية ولا يكسر عمود العروض

كأحسن ما انت سامع من شعر شوقى والجارم وتلك الطبقة ، وفى ثانى حال عرضت مناظـر من الرقص الشعبـى والالعاب البلدية مما يسمى بالفولكور ولم تنته الحفلـة الا بعد منتصف الليل .

وان أنس لا انسى دعوة كريمة. وان كانت خاصة، لمأدبة عشاء اقامها الصديق الاستاذ عادل الغضبان في بيته الجميـل المشرف على النيل وقد اشتملت على النخبة من ادباء العروبة، ورجال الفكر والقلم. وكان من حضورهـا بعض السيـدات المهذبات ، والموسيقار الشهيـر سامى الشوا. فلم نشعـر كيـف انقضت تلك السهرة على طولها بين الاحاديث الطلية وانشاد الشعر والتملى بانغام الموسيقى الحية. انها انقضت، سريعا، كما تنقضى سائر اوقات السرور .



كتاب الغصون اليانعة
فى محاسن شعراء المائة السابعة

تحقيق الاستاذ ابراهيم الابيارى

وهذا كتاب آخر لابن سعيد المغربى ، صاحب كتاب المغرب . يرى النور بعد ما لبث في ظلمات الخزائن قرونا عدة . على يد خريت ماهر . خبير بخبايا الدفاتر ، هو الاستاذ ابراهيم الابيارى. وصلة الاستاذ الابيارى بالمغرب قديمة، وعلاقته بالمغاربة قدماء ومحدثين وطيدة . فكثير من طلبتنا درس عليه واقتبس من علمه . وكثير من آثار علمائنا ما كان ليبرز للوجود لولا عنايته وتهممه به . ومنها كتاب الغصون اليانعة الذي بين يدينا الآن. فقد قام الاستاذ الابيارى عليه خير قيام. قدم له بمقدمة عرف فيها بقيمته. واثبت بالادلة القاطعة نسبته لابن سعيد . وحقق نصه أتم تحقيق ، فضبطه وشرح ما فيه من الغريب ، وترجم للاعلام الواردة فيه او أحال على مظان ترجمتها، والحقه بفهارس لمحتوياته من اسماء الاعلام والقبائل والاماكن والكتب والابيات الشعرية ، فضلا عن اسماء الشعراء المترجمين فى الكتاب وهذه هي الطريقة العلمية التى تعلو

ولا يعلى عليها فى تحقيق الكتب القديمة ونشرها . والتى لا تقل فيما تكلف من تعب ونصب عن تأليف الكتب ووضعها من الاصل (وما يعقلها الا العالمون) .

وصلتي بكتاب الغصون اليانعة قديمة . ترجع الى سنة 1940 حين اطلعت عليه بمكتبة «الاسكوريال» ونقلت منه بعض التراجم المغربية . وقد تذاكرت حينذاك فى شأنه وشأن مؤلفه مع صديقى الاب نيمسيو موراطا المكلف بقسم المخطوطات فى المكتبة المذكورة ، فأحالنى على بحث نشر حوله في احد اعداد مجلة الاندلس . اثبت انه من مؤلفات علي بن سعيد المغربى . ثم بعد ذلك بنحو عشر سنين أخذت منه صورة فتوغرافية لمعهد مولاي الحسن . واهتم به بعض الادباء في تطوان محاولا نشره فلم يفعل شيئا، وكأن الاقدار انما ادخرت فضل هذا العمل للاستاذ الابيارى لانها علمت انه لا يستطيع احد ان يفرى فريه في ذلك، وزاده اخراج دار المعارف له فى هذه الحلة القشيبة رونقا وجمالا .

وعلى انى طالعت هذا الكتاب في أصله ، فقد حبب الى ان اقرأه مرة ثانية في هذا الطبع الرائق ، خصوصا وان قراءة الاصل متعبة جدا ، لرداءة خطه . واثناء مطالعتى له ، لاحظت بعض المآخذ الطفيفة . والاغلاط الخفيفة ، منها ما يتعلق بالطبع

ومنها ما يتعلق بالقراءة، فاردت ان أنبه عليها في هذا المقال، وذلك من دلائل اعجابى بالكتاب وتقديرى لمحققه ، والا فما كنت لاتجاوب وهذا العمل او لم يكن يستحق التنويه ويتصف بالكمال او يكاد ، عدا ما يدفع العين ويحقق بشرية من صدر عنه .

فأول ذلك ما اشار اليه المحقق الفاضل في مقدمة الكتاب ص . . ك ـ من عبارة التمليك هذه التى كتبت على الورقة الاولى من المخطوط (لمحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم) فانه جعل هذا الاسم الاخير . . الحكم ، وهو في الاصل الحكيم . والشخص هو الوزير ابن الحكيم رفيق ابن رشيد فى رحلته . والمترجم فى الاحاطة بما لا مزيد عليه من التنويه . وهو اشهر من ان يعرف .

ثم العبارة الثانية التى تفيد ان الكتاب كان فى ملك زيدان ابن المنصور وهي . . (الحمد لله. تملك هذا الكتاب عبد الله المعتمد عليه المفوض أموره اليه أمير المؤمنين زيدان ابن امير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أصلح الله أحواله) وقد اشتبهت على حضرة المحقق فقرأ بعد اسم زيدان . . مراكش الفهري . . ولا يخفى ان هذا الكتاب هو من جملة الكتب التى كانت لمولاي زيدان ابن المنصورالسعدي واخذها القرصان الى اسبانيا فضمت الى مكتبة

«الاسكوريال» ويوجد على هذه الكتب كلها عبارة التملك بخط المنصور نفسه او بخط ولده زيدان ، ولا محل فى اسمى الملكين معا للفهري لانها من دوحة الاشراف العلويين المعروفين بالسعديين .

وفي ص 7 وقعت هذه العبارة «والنهوض الى الطبقة العالية ذات الاعراب والابداع» والاعراب هنا وان صح ان يراد به البيان لانه احد معانيه ، الا ان قصد المؤلف هو الاغراب بالغين المعجمة ، وهو كذلك فى الاصل ، وربما كانت نقطة الغين سقطت عند الطبع . وفى ص 9 اثناء تعليق لحضرة المحقق ما نصه . . «وثم كتاب آخر لابن سعيد . وهو زبدة الحلب» واظن ان هذا سبق قلم، فزبدة الحلب هو لابن العديم المذكور تاريخه في التعليق ، جعله كالمختصر لذلك التاريخ وعبارة وثم كتاب آخر «ربما أشعرت بهذا السبق القلمى. وفى ص 12 «اطلعته واسطة من عقد شعرائها «والصواب فى عقد ، وفيها ايضا . . ذاكرت بعض علماء بلدي في شأنه فنوه باسمه وأنشدنى له «والصواب أحد علماء بلده . والخطآن يصح ان يكونا من الطبع . وفى ص 13 وقع هذان البيتان .

فجر الصبا في وجنتيه غدا	يموج مثل البحر الجائل
أما تراه اذ طفا ماؤه	قد قذف العنبر في الساحل

والذي تعطيه قراءة الاصل أنه بحر الصبا لا فجره ، وهو المناسب لقوله يموج ولمعنى البيت التالى ، على ان هذا البحر الجائل الممثل به غير واضح المعنى، ولا واضح اللفظ في الاصل فليحرر ، وضبطت تاء أما تراه بضمة والصواب فتحها .

وفى نفس الصفحة جاءت أبيات شعرية ذكر المحقق أنها من مجزوء المديد، وهي من مجزوء الرمل، وهذا أولها ليستدل به

وبديع أطلع الآ س بروض الجلنار

على ان المديد لايستعمل الا مجزوءا فلا يحتاج الى النص على أنه مجزوء .

وفى ص 25 يقول المؤلف فى شعر لبعض من ترجمه من الادباء «وهو من المحاسن التى لا يجب ان تغفل» مكان يجب أن لا تغفل ، فهذا التعبير الخطأ الذي يقع لبعض كتابنا اليوم مزمن . ولا أقول قديم ليلا يظن صحته بالقدمة .

وفى ص 32 والتى تليها تردد اسم الشاعر ابن بقى مضبوطا بتشديد القاف وأظن ان هذا التشديد خطأ . لان هذا الاسم أصله الفعل وان قلنا أنه منقول عن الصفة فحق التشديد ان يكون على الياء .

وفى صفحة 38 يقول المحقق الفاضل فى طريانة . . أنها بفتح فسكون «المنارة التى امام اشبيلية على الجانب الغربى

والمعروف فى ضبطها أنها بكسر الطاء، ثم هي الجانب الغربى من مدينة اشبيلية او الناحية الواقعة غربى النهر الكبير منها. لا المنارة التى امام اشبيلية ولعل اصل الكلمة المنازه اي أمكنة النزهة والفسحة فتصحفت في الطبع بالمنارة.

وفي صفحة 43 .. وكان كثير الاجمال والمطايبة والمرح «والصواب وكان كثير الاحتمال .. وفيها «ووتده» بالكسر وصوابه ان يكون مرفوعا وهو وما بعده جملة في موضع الحال وفيها «والفندق الذي ذبح فيه ابن الياسمين «والصواب ابن خاقان وهو سبق قلم ولا شك؛ واقع كذلك فى الاصل، وتتايع فيه حضرة المحقق.

وفى ص 44 فليحزن الكتاب ما قد غاله. وتكرر هذا الشطر فيها مرتين هكذا. وصواب الكلمة الاولى فليحذر.

وفى ص 48 هذا البيت ..

بذاك النارنج وهو كأنما يريك على الاجياددرا منضدا

والشطر الاول غير متزن كما لا يخفى وصوابه :

.. بدا لك للنارنج زهر كأنما ..

وفي ص 49 وقع ذكر العلامة ابي الحجاج بن نموي بالواو مصحفا الى نمري بالراء، في الاصل وفى التعليق .. ومصدر ترجمته الذي ذكره الاستاذ المحقق قد اثبته بالواو، وفيها

أيضا قطعتان من الشعر كتب عليهما أنهما من مجزوء المديد وهما من مجزوء الرمل . .

وفي ص 52 . . وردت قطعة شعر اولها .

ثار شوقي الى الحمى   وهوى الخرد الدمى
وتذكرت ما خلا   من نعيم تصرما

فجاء قول الشاعر مصحفا الى وتذكري وهو كذلك لايتزن ولا ينسجم مع ما عطف عليه . وفي ختام هذه الابيات يقول الشاعر . .

ايها المبتلي به   عش كئيبا متيما
والذي جاء لاحيا   فيه صبا ومغرما
قل له دع سبيله   وانج منه مسلما

وقد ثبت البيت الوسط منها في الكتاب هكذا . .

والذي جاء لاحيا   فيه صار مغرما

ولا يخفى ما فيه من اختلال الوزن وقطع الارتباط بالبيت الذي بعده . وفي صفحة 55 كتب على بيتي شعر أنهما من الكامل . وهما رجز . وهذا نصهما . .

يا ظبى سنجار أما ترثى لمن   قدصار من أجلك فى كف الاجل
قد كان مشغولا بدرس علمه   فاليوم لا علم بقى ولا عمل

وقد زيد فى كلمة بدرس الف فصارت بدارس وهو تصحيف

فقط . وفى ص 62 هذا البيت :

اياك من صحبة السلطـان ان لهـا
صفوا يـروق ولـكـن غبـه كـدر

وقد أثبت اوله هكـذا (ايا لمز صحبة) وهـو غير صحيح وفى ص 69 وقع هذا البيت من شعر كثير . .

حيتك عزة بعد الهجر وانصـرفت
فحى ويحك ، مـن حياك يا جمـل

مضبوطاً بكـسر الكـاف من حياك وضم الجيم مـن جمل والصواب فتح الـكـاف خطابا للجمل وفتح الجيـم مـن جمل، وهو جمل الشاعر الذي خاطبه بأبيات منها هـذا . ولها قصة في كتب الادب .

وفي ص 77 أبيات في وصف مطر غزير عاق الشاعر عن زيارة ، منها هذا البيت . .

ملأ الارض وحـولا أصبـحت   وهي مثل الحبر هلك الحبر

وقد صحفت فيه كلمة هلك بهلا فانطمس معناه . والشاعر يقصد أن هذه الوحول التى هى فى لونها الحالك مثل الحبر بكسر فسكون اي المداد صارت هلـكا ومضيعـة للحبر بـكسر ففتح اي اللباس والثياب وفى ص 82 .

من لصب فوق فرش ضنى   أبـدآ يبـرأ وينتـكـس

جفنه بالدمع منطلق وكراه عنه محتبس
جهل العواد موضعه فهداهم نحوه النفس

وقد جاء عجز البيت الاول في الكتاب هكذا.. أبداً فبرؤه ينتكس، ولا يصح من جهة الوزن والقافية ثم ان البيت الثالث ثبت في الاصل هكذا . . جهل العذال . . وكذلك أثبته الاستاذ المحقق ، ولكنه غفل عن طرة جاء فيها . . العواد وفوقها كلمة بيان اشارة الى صواب البيت الذي يحسن به معناه، اذ لايخفى ان لا مناسبة للعذال هنا . وفي ص 83 تعليق على ترجمة أبي الحرم الماكسيني نصه . . «التكملة من معجم الادباء ونكت الهميان وبغية الوعاة» ولم نر للمحقق الفاضل تكملة زاد بها شيئا على ما في الاصل «من مدينة ماكسين» وفي المطبوع «من ماكسين» وأظن أنه اراد ان يحيل على مصادر ترجمة هذا الاديب فسبق القلم الى ذكر التكملة . وفي ص 87 وردت هذه الابيات التي يمدح بها الشاعر ابن نوفل وزير حلب ابن الموصول :

وصل الموصول كل على بك يامن لا نظير له
لك دون المبتلى حسدا آخر قد زان أوله
وسماح ناهض ، وله خلق في الناس أسفله
وكفاه أن يذوب جوى كلما أصبحت مخمله

ويذوق الموت من كمد كلما حاذيت منزله

والورى داع وملتفت وسؤول مد أنمله

وقد ضبط فى البيت الاول كل على بتنوين كل وفتح عين على ، ولا شك أن الشاعر يخاطب الممدوح ويذكر أن والده الذي اسمه الموصول ، وصل به كل على ، فحق كل على النصب والاضافة الى وعلى بضم العين. كذلك ضبط أسفله فى آخر البيت الثالث بضم اللام وهو القافية التى يجب ان نكون مفتوحة كأخواتها قبلها وبعدها . ومخمله جاءت فى الكتاب تخمله فعلا مضارعا فارتفع اللام واختلفت القافية . وحاذيت كتبت حازيت بالزاي وهو خطأ مطبعي ولا شك . وفي ص 91 وقع ذكر الشريف أبي القاسم السبتي شارح مقصورة حازم في التعليق ، فجاءت نسبته البلدية هكذا (البتي) وهو بلا شك خطأ مطبعي . وفي ص 95 هذا البيت من قطعة .

بقانا الحسود ولسنا كما يقول ولكن كما يعلم

وبقانا هذه هي في الاصل نعانا وكلاهما غير دقيق التعبير عما يريده القاضي أبو حفص بن عمر صاحب الابيات ، وهو من هو جودة شعر وبراعة نظم ، فهل تكون محرفة عن هجانا؟

وفي صفحة 98 تبتدىء ترجمة الجراوي الشاعر المشهور وقد تكرر اسمه في المخطوطة بصورة الكوراي لا الكوارئي

كما أثبت في الطبع . وكثر الاضطراب في اسمه عند كثير ممن ترجموه . وقد بينا ذلك في ترجمته من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، وهي الحلقة السادسة، ووقع في ترجمته هذه بعض الاغلاط منها ضبط تادلا ، بلاد الشاعر ، بفتح الدال ، والمعروف فيه الكسر، ومنها تحديد موقع جراوة قبيلة الشاعر ومنها الغلط في تاريخ الدولة الموحدية والحفصية ، جاء فيها المفضلية وغير ذلك ونظن أن هذه الصفحة لم يصححها الاستاذ المحقق نفسه . وفي ص 102 هذا البيت .

أنحى الزمان على الاغرار واجتهدت
في قطع دابرهم أحداثه السود

والاغرار هنا صوابها الاغزاز . . لان المراد بهم قراقوش الغزى ومن لف لفه . وهي كذلك في المخطوطة التي جرى عليها الطبع . وبعده :

ونازعتهم سيوف الهند أنفسهم ... فلم يفدهم عن الهيجاء تغريد

وصواب الكلمة الاخيرة تعريد بالعين المهملة اي فرار ، وفي 103 هذا المطلع . .

أحاطت بغايات العلا والمفاخر ... على قدم الدنيا هلال بن عامر

وقد ضبط قدم بفتح القاف والصواب كسره . ومن هذه القصيدة أيضا في نفس الصفحة . .

وكم قد أقاموا من عروش موائل
وكم قد أقالوا من جدود عوائر

وموائل هنا صوابها موائل بالهمزة. وفي ص 106 هذا البيت يمت بالثلب والرقاعة والسخف وأما ما سواه فلا

وقد سقطت البا في ما فصوابه وأما بماسواه. وفي ص 107 هذا البيت في الخمر :

من الماء فيها للحباب عمائم وللنورمنها في الاكف ذوائب

وقد ضبط النور بفتح النون ولعل الصواب ضمها ، وفيها.

قد يكرم القرد اعجابا بخسته ، وثبت القرد بالفا فأوهم أنه الفرد بالفتح وهو القرد بالقاف المكسورة وفي ص 114

ياتائها ياجاهلا يا قاطعا كل مقال جاء من قائل

والبيت من السريع فياء النداء في ياقاطعا زائدة ، وفيها هذا البيت من قطعة . .

ما فيهم بعد أبي جعفر الا امام وارث بغى امام

وبغى هنا خطأ صوابها عن ، فإن الوزن والمعنى يختلان ببغى

وفي 132 وقع ذكر العبيد بين الفاطميين وضبط العين من هذا الاسم بالفتح والصواب الضم، وفي ص 133 هذا البيت:

ولم أكن أغلط في مثله لكن رمتني ثقتي بالشفيع

وصواب رمتني هذه دهتنى كما بالاصل . وفيها هذا البيت ايضا من قطعة فى القلم . .

يموت فيحيـا ثم يفـرغ زاده   فيرجع للقبر الذى فيه تيمـا

وصوابه الذى منه قيما بالقاف كما بالاصل ويعنى الشاعر بالقبر الدواة .

وفى ص 147 ورد هذا البيت .

فاوسعه على التفسيح حمدا   ويوسعنى على الاحسان ذما

واظن ان صواب قراءته على التقبيح .

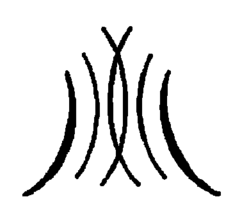
وفى ص 150 من جملة اوصاف لبعض بنى عبد المومن . . «وأسفحهم يدا» وأظن ان صحة قراءتها واسمحهم وفى الصفحة التى بعدها هذا البيت من قطعة .

لا تـحقـرن صـغيـرا   وتهـملـن غـمـوضـه

وقد ضبط لفظ غموضه بفتح الغين وعلق الاستـاذ عليـه بأن الغموضة هو الخامل الذليل . ولم أقف على الغموضة فيمـا بين يدي من كتب اللغة ، وأرى ان الاولى ضم الغين من هذا اللفظ على أنه الغموض مضافا الى ضمير المتحدث عنـه وهـو الحقير . ولا حاجة حينئذ الى الاغراب بجعله غموضة .

هذا ما سنح لنا من التوجيهات في هذه التوافه التى كثرت عددا وقـلـت حاصلا ، ولا نبرىء انفسنا مما يـكون قد وقع لنا

فيها من السهو والغلط فالانسان معدن الخطأ والنسيان ..
ونتقدم الى الاستاذ المحقق بجزيل الشكر على ما اتاح لنا من
التمتع بهذا الكتاب في حلة النشر الباهرة التى لا ينقص منها
شيئا وقوع مثل هذه الهفوات الصغيرة الى جانب حسنات
التحقيق الكبيرة ونؤكد له مزيد احترامنا وتقديرنا .



بين التطبيع... والتصحيح

يجهد الكاتب نفسه فيحرر المقال كما يجب ان يكون الفاظا متخيرة يجانس بعضها بعضا وأسلوبا مشرقا جميلا يملك على القاريء مشاعره وحواسه ، وأفكارا منسقة ، ومـوضوعـا طريفا يثير اهتمام من صار لا يبالي ما ينشر ولا يحفل بما يقال ثم يدفع به الى الصحيفة التي ألحت عليه ، ورغبت مـنه أن يكتب إليها من غير أن تدفع له بدل أتعاب ، ولا أن تجزيه على ذلك ولو بالكلم الطيب . فاذا به وقد صدر في الصحيفة ، تغيرت معالمه ، وتنكرت معارفه ، فمن تطبيع أفسد تراكيبه وجمله ، الى تصحيح حضرة رئيس التحرير الذي خيل إليه أنه صار عديلا لليازجي والبرقوقي والبشري وعلي يوسف والزيات وفؤاد صروف واضرابهم من أئمة البيان وأعلام الادب الذين رأسوا تحرير صحف شهيرة فبلغوا بها أعلى مستو للبلاغة العربيـة . . فهو لذلك لايحجم أن يبدل هذه اللفظة بغيرها ويزيد هذه الكلمة هناك ويحذف تلك من هناك ، وهكذا . .

وما أذكر اني نشرت مقالا وسلم من تطبيع ولو في كلمة واحدة او تصحيح من هذا القبيل .

وأقدم ما أذكره من ذلك أني نشرت بإحدى الصحف المغربية من

نحو عشرين سنة خلت قصيدة أقول فيها :

ولا غروى فإنك من علمنا   اماما لا نقيس به اماما

فحذف رئيس التحرير الالف المقصورة من غروى ظانا ان غروى لاتكون الا (غرو) بدون الف كما اشتهرت . وجاهلا في الوقت نفسه ان حذف الالف منها يخل بوزن البيت، وكان هذا الرئيس في عيني شيئا كبيرا ، فاستهنت به من يومئذ . .

وكتبت مرة بمقالا لاحدى المجلات فوقعت فيه كلمة مضعوف فأبدلها المصحح بكلمة ضعيف ، وهو وان لم يفسد المعنى ، فقد حز في نفسي ان يظن اني خالفت القياس مع ان كلمة مضعوف صحيحة فصحية مسموعة من العرب ونطقت بها شعراؤها قال لبيد:

وعالين مضعوفا وفردا سموطه   جمان ومرجان يشك المفاصلا

وقال حافظ ابراهيم في قصيدته العمرية الشهيرة :

كم خفت فيه الله مضعوفا دعاك به

وكم اخفت ضعيفا يثني تيها

وثبت لي في بعض الموضوعات هذان البيتان :

وما هند الا مهرة عربية   سلالة افراس تحللها نغل

فان انجبت مهرا كريما فالبحرى

وان يك اقراف فما انجب الفحل

فكتب حضرة المصحح عليه ان الصواب بغل بالباء وما

درى ان الامر كما قيل : «من الكفر فرواء فان البغل لا نسل له . وقد نبه الناس على هذا قديما كما عند الحريري في «درة الغواص» وغيره .

وفى هذا الموضوع نفسه جاء ذكر القتب وتفسيره بانه رحل صغير فصحف رحل فى الطبع برجل فكان موجبا للضحك ان يفسر القتب بانه رجل صغير !

واللطيف فى هذا الباب ان بعض «الاساتذة» زارني يوما في المدرسة فوقف يقرأ اللوائح والتعليمات المدرسية المعلقة على الجدران وكان فى إحداها هذه العبارة «معارضة القرآن» فوجه الخطاب الى بعض الفقهاء المتشددين من اصحابنا. وقال له على سبيل التنكيت : «ها انت ترى انهم يعارضون القرآن هنا ! » وفاته ان المراد بهذه العبارة هو عرض التلميذ ما معه من القرآن على معلمه ليختبر حفظه . وقد جاءت فى الحديث الشريف وهو ان جبريل عليه السلام كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن فى كل سنة مرة وانه عارضه، فى السنة التى توفي فيها ، مرتين .

وألطف من هذه انى كتبت لاحدى الصحف مقالا بعنوان «محنة فلسطين» ، فتفضل حضرة الرئيس وزاد فى العنوان كلمتى العربية الخالدة ! فلم يدر احد هل هذا الوصف راجع

للمحنـة ام لفلسطين ! ! وبقـى الكـلام من قبيـل (ليت عيليـه سواءً) . .

وقلت في مقال ما ان الدول الصغرى تنساق بحبل الدول الكبرى فرأى حضرة الرئيس ان الدول جمع والحبل مفرد فجمعه على أحبل وكان أحد اصدقائنا الادباء يقرأ المقال فقلت له: «والله لو وقعت لي هذه اللفظة في الضرورة لكنت حريصا ان اتجنبها ، فكيف في السعة ؟ » ولكن هكذا حـكم حضرة الرئيس ! ! !

ومن خفي التطبيع ما وقع لي في بيت من قصيدة قتلها في عيد العرش ونشرتها بجريدة . ما وهو :

ووليـت وجـهـا يستضـاء بنـوره
الى الشرق، ان العرب بالشرق اقعد

فصحفت كلمة اقعد بالعين باقصد بالصاد ، وخفيت علـى المصحح ، وتنوقلت بعد كذلك كما نشرت .

واخفى من هذا ما وقع ايضا في بيت من قصيدة رثيـت بها الامير شكيب ارسلان رحمه الله وهو :

سقط الرائد الذي مهد السبـ ـل وسنـى الفتـوح للابطـال

فقد صحف فعل سنى الرباعي بسن الثلاثـى ، ومـر على المصحح الاول فى الجريده الاولى التى نشرت فيها القصيـدة ـ ان لم يكن هو الذي تفضل بتصحيحه ـ وتنوقلت القصيدة بعد

ذلك على هذا التصحيف . ولم يكن المراد ان يقال ان الامير رحمه الله هو الذي سن الفتوح للابطال ، وانما المراد انه سناها اي سهلها وهذا ما يناسب وصفه بالرائد ولا يصل الى حد المبالغة الكاذبة فى العبارة الاولى .

هذا قل من كثر ، من الهنوات التى نراها كل يوم فيما ننشره او ينشره غيرنا بالصحف مما لو تتبعناه لطال بنا الكلام. وكثيرا ما يحمل وزره على المطبعة وعمالها المساكين، ولكن المصححين في الحقيقة هم الذين يتولون كبره . ولذلك اشركناهم في المسؤولية ، بل جعلناهم هم المسؤول الاول في كل ما يقع من هدا التشويه .

واذا واتتنا الفرصة فسنعود الى الموضوع بأوسع من هذا مشركين فيه بعض الناقدين ، وما لهم من الغرائب فى هذا الباب .

ديوان الشاعر القروي

عرف الاستاذ رشيد سليم الخوري بلقب الشاعر القروي منذ سنين عدة حتى كاد يطغى هذا اللقب الجميل على اسمه العلم. ولم يكن هذا اللقب مما خلعه عليه أحد أصدقائه اومعارفه (ومعارف القروي كلهم اصدقاء في حسبانه حتى تتكشفهم الايام) وانما كان هو التوقيع الذي يتستر خلفه حين ينشر احدى قصائده او مقطعاته ، ولا يرغب في الاعلان عن نفسه فما لبث ان غالب اللقب الاسم وصار اكثر ما يعرف به حتى ان كثيرين لا يعرفون ما اسمه وان كانوا يعرفون لقبه وشعره جد المعرفة

واذا كان الشاعر القديم يقول :

وقلما ابصرت عيناك ذالقب الا ومعناه ان حققت في لقبه

فان هذا المعنى يلوح جليا في الشاعر القروي بحيث يحدد لقبه شاعريته ويجلوها للقاريء قبل ان يحددها النقد ويجلوها التمحيص. وما الشاعر القروي الاوليد احدى القرى اللبنانية وربى الجبل الملهم الذي يكاد يوحي بالشعر لابنائه كافة. فمنهم من يكون امينا على وحيه يؤديه كما تلقاه طلقا كنسيمه شذيا كأرزه لاتصنع فيه ولاتعمل كالطبيعةالقروية سذاجة وسماحة ومنهم من يقع فيما وقع فيه «ابو المرقال» فلا هو بمشيته ولا بمشية الحمامة!

ولما كان شاعرنا من الرعيل الاول بل من طلائعه فإن شعره لم يكن الا مرآة صافية يمثل نفسه وبيئته وقومه العرب ، في كل ما له او لهم من آمال وآلام وماض وحاضر ومستقبل غير حافل الا بعاداتهم واخلاقهم ، ولا معرج الا على تاريخهم وحضارتهم ، فلا اقليمية ولا طائفية ، ولا تفرنج ولا نزغة من النزغات الطائشة التي زل بها «خوارج» بعض البلاد العربية الجدد ، وانما هي العروبة «دين الامة العربية الشامل وشعارها وروحها وشمس اوطانها وهوى افئدتها وملتقى ماتعدد من اقاليمها ولهجاتها» حتى الانظمة الجديدة من رأسمالية واشتراكية لم تستهوه ولم تستمل نفسه لايمانه بان شريعة العروبة فيها ما يغني ويقني «وقد سبقت العروبة النظامين كليهما فى ضرب المثل الاعلى للديمقراطية الحقة ، فهي لا يعوزها بعض ما جد فى دساتير الناس بقدر ما يعوزها حكومة منها قوية تحترم وتطبق دستورها هى .

قبل الثورة الفرنسية وقبل شريعة تحرير العبيد الاسمية فى أمريكا بأكثر من ألف سنة جهر شاعرنا العربى الاعظم بمبدأ الحرية و الاخاء والمساواة.فجعل فك الرقاب كفارة عن الذنوب وزلفى الى الله وقال فى حديثه الانسان اخو الانسان حب ام كره فبقليل من الاجتهاد نتلافى التصادم مع احدث الانظمة الاقتصادية»

الى آخر ما قاله الشاعر فى مقدمته لديوانه التى جعلها ترجمة لنفسه وتعبيرا عن آرائه في شتى المسائل والمشاكل وقد عكست مرآة شعره هذه الآراء بما لا مزيد عليه من الوضوح والبيان لان البر بالعروبة يكسب صاحبه قوة عارضة وبلاغة منطق فلغة العروبة «هى اللغة الخصبة الخلاقة المطواع . لغة اهل الجنة ، اللغة التى اتسعت لرسالة الرحمان ، اللغة التى ملكت فصحاها ألسنة افذاذ الادب العربي ، وألفت بين قلوبهم فى كل قطر سحيق والتى يتناشد الحانها بلابل الشعر من الخليج الفارسي الى المغرب الاقصى» وهكذا سلمت عربية الشاعر القروي من عنجهية المتفصحين ومن ابتذال المجددين الزيوف وجاءت بين بين . منسجمة مع روح العروبة الابية المفضال !

والشعور الوطنى عند صاحبنا القروي لا يتركز مطلقا في تلك البقعة الضيقة من بلاد العرب التى هي لبنان . ثم يفيض بعد ذلك من احساسه على باقى البلاد العربية كما هو الحال عند غيره من شعراء الوطنية العرب ، وانما هو على العكس يتركز فى الوطنية العربية العامة التى تنتظم بلاد العرب جمعاء ثم يفيض من خلجاته وذكريات ايامه السعيدة على بلده لبنان كما رأينا فيما اقتبسناه من كلماته السابقة ، ويحلو لنا ان نؤكده بعباراته الاتية : «امتى انا مكثرا ، ووطنى انا مكبرا .

اذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكانما اكلوا جارحة من جوارحي ، واذا هدروا عربيا في لبنان او تطوان فكانما شربوا نغبة من دمي، وكان كل بلد قوي من بلادي ساعدى مفتولا ، وكل شعب خامل فيها زندي مشلولا. بل ما اعد ذاتي الا خلية في جسد امتي ، انا واحد من سبعين مليونا من العرب ، كل واحد منهم انا . فينبغي ان احبهم سبعين مليون ضعف حبي لنفسي ، من افتداهم فكانما احياني سبعين مليون مرة ، ومن خانهم فكانما قتلني مثلها »

هذه هي سريرة الشاعر القوي مجلوة على منصة شعره ، وهذا هو شعره مرآة لضميره الطاهر النقي الذي يصدر عنه مثل قصيدة «حضن الام» التي لا نملك ان نعجب بها ونحن من المسلمين الموحدين ، كما يصدر عنه مثل قصيدة «وعدبلفور» في شدة صولتها على الصليبيين والصهيونيين بالسواء .

وبعد فماذا يمكننا ان نعرضه من شعر الشاعر القروي وكله درر وغرر وهو مع ذلك يملا ما بين دفتي ديوان يبلغ تعددا صفحاته 900 او يزيد ؟ اذنا نفضل ان نحيل القارىء المشغوف بالشعر الجيد الى منبعه في هذا الديوان واذا كان لنا ان نكتفي بمثال واحد منه فليكن هذا المثال هو هذه

الابيات الشاعرة التى يحيى فيها جلالـة ملـكنا المحبوب سيـدي محمد بـن يوسف ويشيد بشخصيته العبقرية ، مقدمين منها دليـلا ناطقا الى من كـفروا باياديه والى من خفروا بعهودهم له، على ان «عملهم» انما هو لعنة تنصب عليهم من جميع اقطـار العالم وحـكم علـى ديمقراطيتهم المزعومـة بالفشـل والهزيمـة «وقد خاب من حمل ظلما»[1]

قال الشاعر القروي بعنوان «محمد بن يوسف سلطان المغرب» :

كوكب المغرب الذي ابتعث الامـــال نـضـرا ، وقيـت شـر الافول

بشرتنا عنك الاحاديـث فالاقــطار نشوى بذكرك السلسبيل

سيرة طأطأ الملوك لها الهام	وشغـل بكـل سـام جليـل
حملك اسم الرسول فأل جميل	مؤذن بانبعاث عهد الرسول
فارأب الصدع واجمع الشمل وارفع	علم العلم في الجهاد الطويل
ان فى ذكر «طارق» للهيبا	يتلظى فى كل عرق اصيل
نحن من أبعد المطارح بالتأ	يـد ندعـو للمنقذ المامول

1) كتب هذا التقريظ في الشهور الاولى لابعاد جـلالة الملك .

ادب اليوسي

جاءنا من صاحب الامضاء كتاب يقول فيه بعد الديباجة :

هل اوجدتم المنتخب من شعر اليوسي الذي ذكرتم في مقدمتكم المنتخب من شعر ابن زاكور انكم مشتغلون به ؟ وما نظركم في أدب اليوسي ومصادره وعلائقه مع الادباء الاندلسيين والشرقيين؟ ولقد ذكرتم ان ابن زاكور اقتبس ذوقه وأسرار الشعر من اليوسي، وكيف يصح ان يصعد اليوسي الى هذه الدرجة في المعارف الادبية مع أنه ليست له دراسة الا بجنوب المغرب وفي الزوايا ، ولم يعاشر الاوساط العلمية بمدن الحضر كفاس وسلا ؟ وكيف كان الادب المغربي في زمان المولى اسمعيل وبأي أوصاف يختص ، ومن هم رجاله العظام، وما هي تصانيفهم الكبرى في تلك المدة ؟ . . نرجو منكم الافادة عن هذه الاسئلة ولكم منا جزيل الشكر وحسن الثناء .

م . بيرك

وقد أجبناه بما يلي :

ان كتاب المنتخب من شعر اليوسي موجود تام من زمان واني أنتظر فرصة طبعه على مثال المنتخب من شعر ابن زاكور اعني بحروف مشكولة وبمقدمة وتعاليق تفسيرية، وعلى ورق

جميل . ولكن حيث ان هذه الشروط تقتضي نفقات كبيرة فاني اتوخى ان يقوم بطبعه احد المعاهد العلمية او احد الناشرين في الشرق .

اما عن ادب اليوسي ومصادره وعلائقه مع الادباء الاندلسيين والشرقيين فمجمل القول في ذلك ان ادبه ادب حي ، يستمد من فكرة وقادة وثقافة عربية واسعة . ففي النثر له قلم سيال يصرفه في ضروب الانشاء كيف شاء . وفي الشعر له نفس عال يجاري به كبار الشعراء من العرب الاولين ، ولذلك تجده متين العبارة جزل الالفاظ أشبه بشعر شعراء الجاهلية وصدر الاسلام منه بشعر المولدين وشعراء الحضرمن العراقيين والاندلسيين فان كنتم تعنون بعلائقه مع الادباء الاندلسيين والشرقيين مبلغ تأثره بهم، فأنا أرى أنه لم يتأثر الابمن ذكرت من الشعراء الاولين ، وان كنتم تعنون بعلائقه معهم العلائق الشخصية فانتم تعلمون انه في زمانه لم يكن هناك أندلس ولا شعراء اندلسيون. وكذلك كان الادب والشعر بالخصوص، في الشرق ضعيفا متأخرا لغلبة الجهل والعجمة بسبب سيطرة الاتراك على بلاد الشرق العربي وقلة تشجيعهم للادب وأهله وما تعجبتم منه من كون ابن زاكور اقتبس فنه وأدبه من اليوسى مع أن اليوسى انما درس بالجنوب المغربى وفى الزوايا ، ولم ينشأ فى الاوساط الادبية الحضرية

كفاس وغيرها، فالجواب عنه ان ابن زاكور نفسه ذكر تأثره باليوسي في هذا الصدد. واذا تتبعنا شعرهما وقارنا بعضه ببعض نجد تشابها كبيرا في الاسلوب والموضوع بل حتى في الصور النظمية من الاوزان والقوافي. والواقع ان متانة ابن زاكور انما جاءته من اليوسي . والا فقد طال العهد في المغرب من زمان السعديين فما قبله بشاعر قوي الاسر من الناحيه اللغوية مثل ابن زاكور ، وعندنا شعراء معاصرون له نشأوا في فاس حيث نشأ هو، ولكنهم لم يتصلوا باليوسي ولم يتتلمذوا له كما تتلمذ ابن زاكور ؛ والفرق بين شعرهم وشعر ابن زكور من هذه الناحية واضح جدا بحيث لا يحتاج للتوقيف عليه .

ومن هنا تعلمون ان الثقافة الادبية واللغوية في عصر اليوسي لم تكن قاصرة على حاضرة فاس وأمثالها بل انها كانت في الناحية التي درس فيه اليوسي اقوى منها في فاس بل اننا نقول أن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء، حيث درس اليوسي هي التي احيت ذماء الادب في المغرب بعد العدم وسر ذلك ان الفتنة التي استولت على المغرب بعد موت المنصور الذهبي جعلت اعلام المغرب ينحازون الى البادية حيث يأمنون على انفسهم من اعتداء المعتدين واستغلالهم من طرف المتوثبين . وفي القصيدة الرائية التي

رثى بها اليوسى هذه الزاوية لما خر بها المولى رشيد تنويه كبير بما كان لها من مكانة علمية عظيمة وكذلك فى القصيدة الدالية الشهيرة التى مدح بها الشيخ ابن ناصر اشعار بما كان لهذا الشيخ من يد طولى فى العلوم ، ناهيك انه كان يدرس لطلاب كتاب سيبويه الذي لم يدرس بفاس من عهد المكودي. وهاتان القصيدتان نفسهما مما يندر ان يصدر مثله عن شعراء فاس وغيرها في ذلك الوقت. وقد ألقى اليوسي بفاس دروسا عالية بأمر من السلطان مولاي اسمعيل وكان يحضرها غالب علماء فاس الا يعض المنافسين له. وقال شعراً في ذلك ، وأجيب بشعر مضاد كما هو معروف .

بقيت كلمة عن الادب في عهد مولاي اسمعيل ورجاله وتصانيفهم . وهي باختصار ان الادب المغربي في عهد هذا السلطان بدأ يأخذ استقراره بفاس والعواصم الاخرى بعد الاضطراب الذي أصابه بسبب الفتن الداخلية . وابن زاكور من أبرز رجال الادب في هذا العصر وتصانيفه قد ذكرتها في كتاب المنتخب من شعره . ومن رجال الادب في هذا العصر الشريف العلمي وكتابه الانيس المطرب قد تضمن تراجم عدة من أدباء هذا العصر. ومن رجاله أيضا الاديب مصباح وله ديوان شعر سأعمل على نشره بحول الله. وقد ذكرت له قصيدة نادرة

في الجزء الثاني من النبوغ المغربي وله تصانيف اخرى هذا فضلا عن اليوسي الذي يعد استاذهم وامامهم ، وله كتب ادبية طريفة منها المحاضرات والقانون وزهر الاكم في الامثال والحكم وغيرها .

وأخيرا اشكركم على ما اتحتم لي من فرصة التحدث في هذه الشؤون التي قل من يعني بها عندنا، لانحطاط الثقافة الادبية واقبال الناس على المصالح المادية دون غيرها من الروحيات والمعنويات . وعسى ان يكون في هذا الحديث مقنع وتحياتي لكم ختام .

اخطاء مطبعية

المرجو اصلاحها بالقلم على الجدول الاتي :

ص	س	خ	ص
3	3	المجموعة	مجموعة
7	6	واذا	واذ
10	12	بربن	بربر
12	2	ان لها	ان له
12	17	خيرا	خبرا
14	15	وهما	وهي
16	4	بشاشته	بشاشة
21	16	ولعل	ولعلها
24	19	اتمحر	انظر
39	11	أغمات مسرورا	اغمات مأسورا
53	17	تنتقض	تنتقص
54	8	ذلك على	على ذلك
56	1	الوزن	بالوزن
66	1	طهارته	ظهارته
84	15	وهو	وهم
102	13	البرتغاليون	البرتغاليين
110	17	ليونسي	ليونس
128	15	الصنعاني	الصغاني
135	9	توجد	لا توجد
146	18	اعذرنا الا بسؤال	اعذرنا بسؤال

ص	س	خ	ص
168	11	ولاده	ولادة
173	7		أي صيرها الى تمام الجملة هذا الكلام تزحلق عن مكانه في السطر 15 بعد كلمة للتخفيف
176	1	الصبيه	الطبيـة
176	15	ما يظهر	على ما يظهر
181	9	لم يمكنني	لم يمكـنني
182	15،14	الامم	الاسم
195	9	ترداد	ترتاد
228	6	مرتين	مرتبين
234	1	بدعة	جذعة
247	3	الحكة	الحكمة
252	3	لانها	لانهما
256	19	يبرأ	يبرآ
266	8	قتلها	قلتها
276	4	لطلاب	المطلاب

فهرس

المطبعة المهدية - تطوان (المغرب)